الصحبة

سيكولوجية الأخوة والصداقة
عند صوفية الإسلام

الدكتور

محيى الدين عبد الحميد طاهر

كلية الآداب - بنها

نسخة معدلة ومنقحة

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

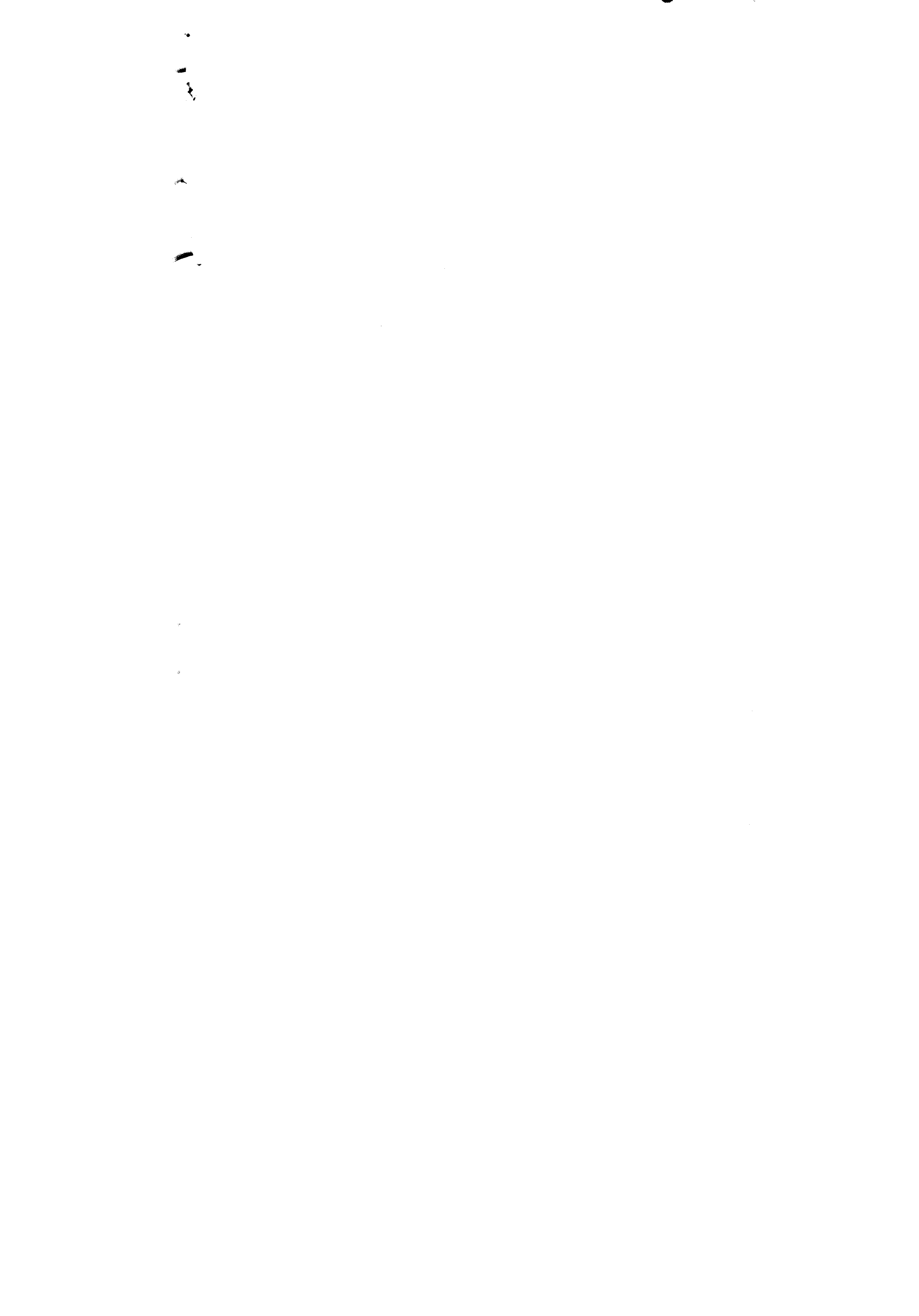
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

الاهـــــداء

الى ابنتى غـــادة

ان الطموحات والآمال العظام ، لا تنال الا بالجهاد ، والمســـــتقبل أمامك ، فسـيرى على الطريق القويم حتى تظفرين بالنجاح ، والله يرعاك ؟

والـــدك
الدكتور
محيى الدين عبد الحميد طاهر



المقـــــدمة

المقـــــدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه،

وبعـــد :

فان موضوع هذا البحث : الصحبة ، سيكولوجية الأخوة والصداقة عند صوفية الاسلام — وهو موضوع على جانب كبير من الأهمية ؛ اذ انه لم يلق العناية والدراسة الكافية من الباحثين فى مجال التصوف الاسلامى؛ وكان ذلك من دوافع اختيارى لهذا الموضوع ، واهتمامى به ، على الرغم من الصعوبات التى أحاطت بى أثناء اعداد هذا البحث ، يحدونى الأمل والرغبة فى الكشف عن هذه الفكرة ، عند صوفية الاسلام ٠

ولقد عرضت فى الفصل الأول : معنى مصطلح الصحبة ، فى اللغة العربية ، وفى القرآن الكريم ، والتطور التاريخى لهـــذا المصطلح عنـــد الصوفية المسلمين ، ثم أوضحت أيضا أنواع الصحبة عند هؤلاء الصوفية٠

وفى الفصل الثانى : بينت فيه حقوق الصحبة ، وشروط اختيـــار الصاحب ، وآداب الصحبة ٠

أما الفصل الثالث : فقد عكفت فيه على بيان ارتباط الصحبة برياضة النفس من الناحية الأخلاقية والنفســـية ، وذلك بالتخلى عن الأخـــلاق المذمومة ، والتحلى بالأخلاق الكريمة ٠

ولقد عرضت فى الفصل الرابع ، لارتباط الصحبة برياضـــة النفس عمليا ، عن طريق ، الذكر ، والعزلة ، والسماع ، والصمت ، والجوع ، والسهر ، وصحبة الشيوخ ، وغير ذلك ٠

وفى الفصل الخامس : أوضحت فيه ، ارتباط الصـــحبة بالمقامات والأحوال ، وأبرزت فيه ارتباط الصحبة بالمقامات كالصـــبر والشـــكر والرضا ، والتوكل ، ثم بينت ارتباط الصحبة أيضا بالأحوال ، كالحب ، والخوف ، والرجاء ، والقبض والبسط ، وما الى ذلك ٠

أما الفصل الســـــادس : فأظهرت فيه ، ارتباط الصـــحبة بالمعــرفة والوجود ، ووضحت فيه ارتباط الصحبة بالمعرفة من حيث الأداة والمنهج والموضوع والغاية ، والوصول وكيفية تحقق السالك بالمعرفة ، ثم بينت ارتباط الصحبة بالوجود عند الصوفية السنين فى شهودهم للأحدية انطلاقا من حال الفناء ، وعند الصوفية المتفلسفين أصحاب وحدة الوجود ٠

ولقد اعتمدت فى هذا البحث على ايراد الكثير من النصوص التى تدور حول هذا الموضوع ؛ اذ أنها كانت المحور والأساس الذى بنيت عليه البناء الفلسفى لهذا البحث ٠

وانى لأرجو أن أكون قد وفقت فى تقديم هذه الفكرة ، فى صورة متكاملة ، يبرز من خلالها آراء الصوفية فى هــذا الشأن ، والله الموفق ، واليه يرجع الأمر كله ؟

دكتور

محيى الدين عبد الحميد طاهر

الفصـــل الأول

معنى مصطلح الصـــحبة

الفصـــل الأول

معنى مصطلح الصـــحبة

تمهيـــد :

رأينا أن نوضح فى هذا الفصل ، معنى الصحبة فى اللغة العربية ، وفى القرآن الكريم ، والمعانى الذى اتخـــذها هـــذا المصطلح فى تطوره الفكرى عند صوفية الاسلام ، ثم نبين أيضا أنواع الصحبة عند الصوفية ، وفيما يلى بيان ذلك :

(أ) معنى الصحبة فى اللغة العربية :

الصحبة هى الرؤية ، والمجالسة ، والملازمة(١) ٠ وقد تعنى الصحبة أيضا : المعاشرة(٢) ٠ والعشرة بالكسر اسم من المعاشرة والتعاشر ، وهى المخالطة(٣) ٠

والخليط هو الذى يجير صاحبه ، ويؤمنه مما يخاف ، وهو الحليف، والناصر على الأعداء(٤) ٠ ويرى التهانوى أن الصاحب بمعنى الصديق ، والرب ، والرفيق(٥) ٠

---

(١) صاحب وصحبة ، والأصل فى هذا الاطلاق لمن حصل له رؤية ومجالسة ، ويطلق مجازا على من تمذهب بمذهب من مذاهب الأئمة ، فيقال : أصحاب الشافعى، وأصحاب أبى حنيفة ، وكل شىء لازم شيئا فقد استصحبه ، أنظر المصباح المنير ، مادة صحب ٠

(٢) صاحبه : عاشره ، والصحب : جمع الصاحب ، والأصـــحاب : جماعة الصحب ، والصاحب : المعاشر ، أنظر ، ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ ، مادة صحب ٠

(٣) انظر المصباح المنير ، مادة : عشر ٠

(٤) راجع المصباح المنير ، مادة : جور ٠

(٥) التهانوى (محمد على الفاروقى) ، كشاف اصطلاحات الفنون ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة عام ١٩٧٧م ، ص ١٩٨ ٠

فمن لوازم الصحبة ، المجالسة ، ويرى السيد محمد مرتضى الحسينى، صاحب تاج العروس أن من أهم شروط المجالسة ، المجانسة ، فهو يقول : « لا تجالس من لا تجانس » • والمجانس : المشاكل ، والشكل : المثل(٦)•

وبالجملة : فالصحبة تعنى الملازمة والاتبـــاع ، وهى تثمر الرؤية والمجالسة والملازمة ، والمعاشرة ، والمخالطة •

وقد تعنى الصحبة كذلك ، الصداقة •

(ب) معنى الصحبة فى القرآن الكريم :

استعملت لفظة الصاحب ، ويصحب ، وصاحبة فى القرآن الكريم :

١ - فمن الآيات التى ذكر فيها الصاحب ، بمعناه فى اللغـــة وهو الصديق أو الملازم أو الرفيق أو التابع ، قوله تعالى :

(وان جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم ، فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا)(٧) •

أى : ان حملك والداك على أن تشرك بالله مالا تعلم ، فلا تطعهما، وصاحبهما فى الدنيا بالبر والاحسان والمعروف •

ويقول تعالى أيضا : (لا يستطيعون نصر أنفســـهم ، ولا هم منا يصحبون)(٨) •

فالكفار لا يستطيعون أن يعينوا أنفسهم ، حتى يعينـــوا غيرهم ، ولا أحد يستطيع أن يحفظ واحدا منهم ، فى مجاورته وصحبته له ، اذا أردنا بهم العذاب •

ويقول تعالى فى سورة التكوير ، منزها الرسول ﷺ عن الجنون (وما صاحبكم بمجنون)(٩) •

---

(٦) أنظر المصباح المنير ، مادة شكل •
(٧) سورة لقمان آية ١٥ •
(٨) سورة الأنبياء آية ٤٣ •
(٩) سورة التكوير آية ٢٥ •

أى : وما رسولكم الذى صاحبتموه ، وعرفتم رجاحة عقله بمجنون.

ويقول كذلك عن المجرم الكافر الذى يريد أن يفتدى نفسه من عذاب يوم القيامة ببنيه وصاحبته أو زوجته ، وأخيه ، وعشـــيرته التى تضمه وينتمى اليها :

(يود المجرم لو يفتـــدى من عـــذاب يومئذ ، ببنيه وصـــاحبته وأخيه)(١٠) ·

٢ – ومن الآيات التى ذكر فيها الصاحب بمعنى المخالط ، قوله تعالى (يسألونك عن اليتـــامى ، قل اصـــلاح لهم خيـــر ، وان تخالطوهم فاخوانكم)(١١) فالخير فى اصلاح اليتامى ، بأن يخالطوا ، ويصاحبوا ويصادقوا بقصد الاصلاح ·

٣ – ومن الآيات التى ذكرت فيها الصحبة بمعنى العشرة أو المعاشرة، قوله تعالى عن الزوجات (وعاشروهن بالمعروف)(١٢) فعليكم أيها المؤمنون أن تحسنوا عشرة نسائكم ، فان كرهتموهن ، فاصبروا ، عسى أن يجعل الله فى المكروه لكم خيرا كثيرا ، فلا تتعجلوا فراقهن ·

٤ – أما الآيات التى ذكر فيها الأصحاب بمعنى الاخوة أو الاخوان، قوله تعالى : (انما المؤمنون اخوة ، فأصلحوا بين أخويكم)(١٣) فالمؤمنون بالله ورسوله أخوة ، جمع الايمان بين قلوبهم ، فأصلحوا أيها المؤمنون بين أخويكم ؛ رعاية لأخوة الايمان ·

٥ – ومن الآيات التى تذكر الصحبة بمعنى المجاورة ، والصاحب بمعنى الجار ، قولهتعالى : (وبالوالدين احسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب)(١٤)·

---

(١٠) سورة المعارج ، آية ١٢ ·
(١١) سورة البقرة ، آية ٢٢٠ ·
(١٢) سورة النساء ، آية ١٩ ·
(١٣) سورة الحجرات ، آية ١٠ ·
(١٤) سورة النساء ، آية ٣٦ ·

وهذه الآية تدعو الى الاحسان بالوالدين والأقرباء ، واليتامى ، والمساكين، والجار القريب ، والجار الأجنبى ، والصاحب المرافق فى عمل أو ســـفر أو جلوس ٠

(حـ) معنى الصحبة عند صوفية الاسلام :

الصحبة عند بعض الصـــوفية تعنى الملازمة والاتباع ، فصـــحبة الشخص تعنى التعلق به والاستمساك ، وموافقته ، وحول هـــذا المعنى يقول أبو طالب المكى (المتوفى عام ٣٨٦ هـ) ٠

« ثم الصحبة : وهى الملازمة والاتباع »(١٥) ٠ وفى نفس هذا المعنى يقول أحمد زروق : « الملازمة المقتضية للتداخل ، هى الصـــحبة » (١٦) ويقول كذلك : « الصحبة : الملازمة المقتضية للمداخلة ، والموافقة »(١٧) ٠ ويقول أيضا : « المصاحبة : الملازمة بالاسعاف »(١٨) ، والاسعاف هو المساعدة وقضاء الحاجة والاعانة على الأمر ٠

أما أبو حامد الغزالى ، فيعرف الصحبة بقوله : « الصحبة عبارة عن المجالسة والمخالطة والمجاورة »(١٩) ٠

وعلى الجملة : فان معنى الصحبة عند الصوفية يقترب من معناها فى اللغة العربية ٠

(د) أسـباب الصـحبة :

من أسباب الصحبة عند بعض الصوفية ، التآلف والتودد ، يقول

---

(١٥) أبو طالب المكى ، قوت القلوب ، مكتبة المتنبى ، القاهرة ، بدون تاريخ حـ ٢ ، ص ٢٣٠ ٠

(١٦) أحمد زروق ، قرة العين ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، عام ١٩٧٣ م ، حـ ١ ، ص ١٦٠ ٠

(١٧) قرة العين ، حـ ١ ، ص ١٨٦ ٠

(١٨) قرة العين ، حـ ٢ ، ص ١٨ ٠

(١٩) أبو حامد الغزالى، احياء علوم الدين ، مكتبة محمـــد على صبيح ، القاهرة عام ١٩٥٨ حـ ٢ ، ص ١٤٢ ٠

السهروردى البغدادى فى هذا الصدد :« التآلف والتودد يؤكد أسباب الصحبة »(٢٠) ·

ومما يوجب الألفة ، فيما يرى بعض الصوفية ، « المناسبة الباطنة »، فقد تستحكم المودة بين شخصين ، لا لملاءمة فى صورة ، ولا حسن فى خلق وخلق ، ولكن لمناسبة باطنة ، توجب الألفة والموافقة ؛ فان شبه الشىء ينجذب اليه بالطبع »(٢١) ·

ويرى أبو حامد الغزالى ، أن الأشياء الباطنة خفية ، ولها أسباب دقيقة ، ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها(٢٢) ·

والألفة أو التآلف والتودد ، من ائتلاف الأرواح ، ويورد الغزالى دليلا نقليا يثبت به صحة هذا المعنى ، وهو حديث الرسول ﷺ : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ، فالتناكر نتيجة التباين ، والائتلاف نتيجة التناسب »(٢٣) ·

والمشاهدة والتجربة تشهد الائتلاف عند التناسب ، وأن التناسب يكون فى الطباع والأخلاق باطنا وظاهرا(٢٤) ·

وعلى الجملة ، فقد ظهر من هذا أن الانسان يصاحب الغير ، لا لفائدة تعود عليه منه ، بل يصاحبه لمجرد المناسبة فى الطباع الباطنة ، والأخلاق الحميدة ·

ولما كان التآلف أو الألفة تعنى ، الالتئام والاجتماع والمحبة ، فان السهروردى البغدادى يرى أن الله تعالى أمر باجتماع الناس فى كل يوم خمس مرات فى المساجد ، أهل كل درب وكل محلة ، وفى الجامع فى الأسبوع مرة ، أهل كل بلد ، وانضمام أهل السواد الى البلدان فى الأعياد

---

(٢٠) السهروردى البغدادى ، عوارف المعارف ، مفصل على هامش احياء علوم الدين للغزالى ، مكتبة محمد على صبيح ، القاهرة عام ١٩٥٨ ، حـ ٣ ،ص٨٦ ·

(٢١) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٤٢ ·

(٢٢) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٤٢ ·

(٢٣) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٤٢ ·

(٢٤) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٤٢ ·

فى جميع السنة مرتين ، وأهل الأقطار من البلدان المتفرقة فى العمر مرة ؛ للحج ، كل ذلك لحكم بالغة ؛ منها تأكيد الألفة والمودة بين المؤمنين »(٢٥)٠

وقد رغب الله تعالى فى الاجتماع ، فقال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان)(٢٦) ٠

ويستدل الصوفية على فضل الاجتماع ، بحـــديث الرســول ﷺ : (المؤمن الف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)(٢٧) ٠ وقوله ﷺ : (مثل المؤمنين اذا التقيا ، مثل اليدين تغســـل احداهما الأخرى ، وما التقى مؤمنان الا استفاد أحدهما من صاحبه خيرا)(٢٨) ٠

ويتضح مما تقدم أن صـــحبة الصـــوفية مؤثرة من البعض ، فى البعض ؛ لأنهم لما تحابوا فى الله ، تواصوا بمحاسن الأخـــلاق ، ووقع القبول منهم ؛ لوجود المحبة ؛ فانتفع لذلك المريد بالشيخ ، والأخ بالأخ ٠

ويذهب ابن عجيبة الحســـنى الى أن التآلف بالنـــاس ، لا يليق الا بالعارفين الراسخين ؛ لأنهم يأخذون نصيبهم من كل شيء ، وقد وجههم الله تعالى لنفع عباده ؛ فينبغى لهم أن يألفوا الناس ، ويألفهم الناس ، وكذلك الصالحون ، المتوجهون لاصلاح الناس بالتبرك والدعاء ، والعلماء المتوجهون لتعليم العباد ، فلابد من صبرهم على جفوة المتعلمين والسائلين، ومن تعلق بهم من المسلمين(٢٩) ٠

وأما المريدون (والسالكون) الســـائرون فيما يرى ابن عجيبة ، فلا ينبغى لهم أن يألفوا الناس كلهم ؛ فان ذلك يقطعهم عن ربهم ، وكل فقير (أى مريد أو سالك) ، مال للرئاسة والسياسة ، وتوجه للناس قبل

---

(٢٥) عوارف المعارف ، حـ ٣ ، ص ٨٣ ٠

(٢٦) سورة المائدة آية ٣ ، وراجع ، ابن عجيبة الحسنى ، الفتوحات الالهية فى شرح المباحث الأصلية ، مكتبة عالم الفكر ، القاهرة ، عام ١٩٨٣ ، ص ١١٦ ٠

(٢٧) راجع ، الفتوحات الالهية ، ص ١٢١ ، وعوارف المعارف ، حـ ٣ ، ص٨٣٠

(٢٨) عوارف المعارف ، حـ ٣ ، ص ٨٣ ، ٨٤ ٠

(٢٩) راجع ، الفتوحات الالهية ، ص ١٢١ ، ١٢٢ ٠

كماله ، فلا يجيء منه شيء ، وانما يألف الفقير من ينهضه حاله ، ويدل على الله مقاله(٣٠) ٠

ويورد ابن عجيبة دليلا نقليا يثبت به هذا المعنى ، فقد سأل بعض الصحابة ، الرسول ﷺ : من نجالس يارسول الله ؟ قال : « من ذكركم بالله رؤيته ، وزاد فى علمكم منطقه ، ورغبكم فى الآخرة عمله »(٣١) ٠

والصحبة تقتضى الألفة ، والألفة تثمرها الجنسية أو المناسبة ، أو المشابهة أو المماثلة ، فيما يرى الصوفية ، وحول هذا المعنى يقول ابن البنا السرقسطى شعرا :

ومن يكن يصـــحب غيـــر جنســـه
فجـاهل والله قـــدر نفســه(٣٢)

ويحلل ابن عجيبة معنى ما سبق من الشعر بقوله : « انما كان من يصحب غير جنسه جاهلا بقدر نفسه ؛ لأن النفس (وهى الروح) ، ياقوتة رقيقة ، جعلها الله فى صدف بشرتيك ، فاذا صحبت بها من هو أحسن ، فقد صنتها ورفعتها ، واعتنيت بشأنها ؛ لأن صـــحبة الأبرار تصـــيرك من الأخيار ، واذا صحبت بها من هو أسوأ منك وأحسر منك ، فقد بخستها ، وحططت قدرها ، ورميت بها فى المزابل ؛ لأن الطباع تسرق الطباع ، والمرء على دين خليله ، وصاحب المرء رقعة من ثوبه ، فلا يصح أن يكون من غير نوعه(٣٣) ٠

فالمريد الصادق فى ارادته ، هو الذى يصاحب أبناء جنسه وشاكلته، ويتجنب غير أبناء جنسه ، وحول هذا المعنى ينصـح أبو بكر الطمستانى

---

(٣٠) الفتوحات الالهية ، ص ١٢٢ ٠
(٣١) الفتوحات الالهية ، ص ١٢٢ ٠
(٣٢) الفتوحات الالهية ، ص ١٢٢ ٠
(٣٣) الفتوحات الالهية ، ص ١٢٢ ٠

(المتوفى عام ٣٤٠ هـ) مريديه بقوله : « من علامة المريد أن يتنافر عن غير أبناء جنسه ، ويطلب الجنس »(٣٤) ٠

والذى يجذب المريد الى الصحبة ، وجود الجنسية ، ومما يدعو الى هذه الصحبة ، الميل الى الاجتماع ، كميل البشر بعضهم الى بعض ، وميل أهل الطاعة بعضهم الى بعض، ، وحـول هـــذا المعنى يقول السهروردى البغدادى : « المقتضى للصحبة ، وجود الجنسية ، وقد يدعو اليها أعم الأوصاف ، فالدعاء بأعم الأوصاف ، كميل جنس البشر بعضهم الى بعض، والدعاء بأخص الأوصاف ، كميل أهل كل ملة بعضهم الى بعض ، وأخص من ذلك ، كميل أهل الطاعة بعضهم الى بعض ، وكميل أهل المعصية بعضهم الى بعض »(٣٥) ٠

واذا علم المريد ذلك ، وأن الذى يجذب المريد الى الصحبة ، وجود الجنسية ، فان على الانسان أن يتفقد نفسه عند الميل الى صحبة شخص ، وينظر ، ما الذى يميل به الى صحبته ، ويزن أحوال من يميل اليه بميزان الشرع ، فان رأى أحواله مسددة ، فليبشر نفسه بحســـن الحال ، فقد جعل الله تعالى مرآته مجلوة ، يلوح له فى مرآة أخيه جمال حسن الحال ، وان رأى أفعاله غير مسددة ، فيرجع الى نفسه بالملائمة والاتهام ؛ فقد لاح له فى مرآة أخيه سوء حاله(٣٦) ٠

ويرى بعض الصوفية أن المريد قد ينفسد بأهل الصلاح ، فقد يميل اليهم بالجنسية العامة ، وهى الصلاح ، ثم يحدث بينهم ميـولا طبيعية ، فيكتسب من طريقهم الفتور ، والتخلف عن بلوغ حاجاته ومتطلباته ، والى هذا المعنى يشر السهروردى البغدادى قائلا : « قد يتفسد المريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما ينفسد بأهل الفساد ، ووجه ذلك أن أهل الفساد ، علم فساد طريقهم ، فأخذ حذره ، وأهل الصلاح غره صلاحهم ، فمال اليهم

---

(٣٤) أبو عبد الرحمن السلمى ، طبقات الصوفية ، مكتبة الخانجى ، القاهرة عام ١٩٨٦م ، ص ٤٧٣ ٠

(٣٥) عوارف المعارف ، حـ ٣ ، ص ١٢٢ ٠

(٣٦) عوارف المعارف ، حـ ٣ ، ص ١٢٢ ٠

بجنسية الصلاحية ، ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية ، حالت بينهم وبين حقيقة (الصحبة لله) ، فاكتسب من طريقهم الفتور فى الطلب ، والتخلف عن بلوغ (الأرب)(٣٧) ٠

ويرى ابن عربى أن المناسبة شرط فى التواصل والصحبة ؛ فان فى الحج يجب أن يتطهر الانسان ؛ حتى تشمل الطهارة ذاته ؛ لأنه يرغب فى تحريم أفعالا عليه ، لا يجب أن تفعل أثنـــاء الحج ، فاستقبالها بصـــفة التقديس أفضل ؛ لأن الانسان يريد بها الدخول على الاسم (القدوس) ، فلا يجب على الانسان أن يدخل عليه الا بصفة الطهارة ، والى هذا المعنى يشير ابن عربى ، قائلا لمريده : « تطهر بجمعك ؛ حتى تعم الطهارة ذاتك؛ لكونك تريد أن تحرم عليك أفعالا مخصوصة ، لا يقتضى فعلها هذه العبادة الخاصة ، المسماة حجا أو عمرة ، فاستقبالها بصفة التقديس أولى ؛ لأنك تريد بها الدخول على الاسم القدوس ، فلا تدخل عليه الا بصفته ، وهى الطهارة ، لما لم تدخل عليه الا بأمره ، اذ المناسبة شرط فى التواصـــل والصحبة »(٣٨) ٠

واذا كان ابن عربى يرى أن المناسبة شرط فى الصحبة ، فانه يذهب أيضا الى أن المناسبة شرط فى الألفة والائتلاف ، واستمع اليه وهو يقول حول هذا المعنى : « لا يأتلف اثنين الا المناســـبة بينهما ، فمنزل الألفة هى النسبة الجامعة بين الحق والخلق ، وهى الصورة التى خلق عليها الانسان (الكامل) ؛ ولذلك لم يدع أحد من خلق الله بالألوهية الا الانسان ، ومن سواه أدعيت فيه ، وما ادعاها ، قال فرعون (أنا ربكم الأعلى) »(٣٩)٠

ويرى ابن عربى أنه لما كان الانسان بهذه المثابة ، كانت الألفة بينه وبين ربه ، فأحبه وأحبه ؛ ولهذا ، ورد : ان الســـماء والأرض ، (يعنى العلو

---

(٣٧) عوارف المعارف ، حـ ٣ ، ص ١٢٣ ٠

(٣٨) محيى الدين بن عربى ، الفتوحات المكية ، السفر العاشر ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، عام ١٩٨٦ ، ص ٢٤٦ ٠

(٣٩) محيى الدين بن عربى ، الفتوحات المكية ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة بدون تاريخ ، حـ ٢ ، ص ٦٠٢ ٠

والسفل) ، ما وسعه قلب العبد المؤمن التقى ، الورع ، وهذا من صـفة الانسان ، لا من صفة الملك ، هذا ، وان شورك الانسان فى كل ما ذكرناه ، الا أن الانسان امتاز عن الكل بالمجموع ، وبالصورة »(٤٠) ٠

ولما كان للانسان الكامل هذا المنصب العالى ، كان العين المقصودة من العالم وحده ، وظهر هذا الكمال فى آدم عليه السلام ، فى قوله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها)(٤١) ٠ فأكـــدها (بالكـــل) ، وهى تقتضى الاحاطة ، فشهد له الحق بذلك ، كما ظهر هذا (الكمال) فى محمـد ﷺ أيضا بقوله : (فعلمت علم الأولين والآخرين) ، فدخـــل علم آدم فى علمه ؛ فانه من الأولين ، وما جاء بالآخرين الا لرفع الاحتمال الواقع عند السامع ، اذ لم يعرف ما أشرنا اليه من ذلك ، وهو (صلى الله عليه وسلم) قد أوتى جوامع الكلم بشهادته لنفسه ٠ وذلك على حد قول ابن عربى(٤٢)٠

تعقيب :

اذا كان الصوفية يذهبون الى أن الصـــحبة أو الصـداقة لا تصح الا بين الأجناس أو الأشباه أو الأمثال ، فان الدكتور زكريا ابراهيم يرى أن أصحاب هذا الرأى ، يتوهمون أن الصداقة (أو الصحبة) ، لابد من أن تقوم دائما بين الشبيه والشبيه ، فى حين أن التواصل الحقيقى بين النفوس ، لا يمكن أن يتحقق الا حين يعرف كل منا ، أن ثمة حدودا ، هيهات لنا أن نتخطاها فى سعينا نحو الاتصال بالآخرين ٠ فليس من شأن الصداقة (أو الصحبة) أن تتملك الآخر ، أو أن تحيله الى مجرد (أنا) جديد ، بل هى (أى الصداقة) لابدمنأن تقوم على احتـــرام (غيـــرية) الآخر ، والاعتراف بماله من سر أصيل فريد فى نوعـــه ، وربما كان السبب فى فشل الكثير من الصداقات ، هو أننا كثيرا ما نعجز عن احترام امكانيات الشخص الآخر ، فترى الواحد منا ، يحاول دائما أن يكتشف لدى صديقه ميولا متجـانسة مع ميوله ، وعادات مطابقة لعـاداته ، وطباعا موافقة

---

(٤٠) الفتوحات المكية ، حـ ٢ ، ص ٦٠٣ ٠

(٤١) الفتوحات المكية ، حـ ٢ ، ص ٦٠٣ ٠

(٤٢) الفتوحات المكية ، حـ ٢ ، ص ٦٠٣ ٠

لطباعه ، دون أن يفطن الى أن لهذا الصديق أيضا جوانب أخرى من ميوله وعاداته وطبـــــاعه ، قد لا تتفق تماما ، مع تلك التى يكتشـــفها فيه ، ويستخلصها منه(٤٣) ٠

ونحن نرى أن أصحاب هـــذا الرأى ، وهو الصـــحبة الناتجة عن التجانس أو المناسبة أو المشاكلة ، يذهبون الى القـــول بأن المناسبة أو المشاكلة (تكون) اما من كل وجه ، واما من أكثر الوجوه ، وذلك فيما يرى ابن عربى(٤٤) ٠ واذا أردنا أن نقف على معنى التجانس فى اللغة العربية ، فاننا نجد أن المجانس هو المشاكل ، وأن الشكل فى اللغة يعنى المثل ، وأن المثل قد يستعمل بمعنى الشبيه ، وبمعنى نفس الشيء وذاته . ولا يعنى التجانس ، المطابقة فى الطباع والأخلاق والصـــفات من جميع الوجوه ، وانما يكون التجانس فى بعض الصفات والطباع والأخـــلاق ، دون البعض الآخر(٤٥) ٠

(هـ) مراتب الصحبة أو المخالطة :

يرتب ضياء الدين السهروردى (المتوفى عام ٤٩٠ هـ) فى كتابه ، آداب المريدين درجات الصحبة ، فيذهب الى القـــول بأن أول الصـــحبة معرفة ، ثم الفة ، ثم عشرة ، ثم محبة ، ثم صحبة ، ثم أخوة(٤٦) ٠

أما أبو طالب المكى ، فيرى أن للناس فى التعـــارف سبع مقامات ، بعضها فوق بعض :

فأول ذلك : المعرفة ، ثم المجاورة ، ثم المرافقة ، ثم الصحبة ، ثم

---

(٤٣) الدكتور زكريا ابراهيم ، مشكلة الحب ، مكتبة مصر ، القاهرة ، عام ١٩٧٠ ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ ٠

(٤٤) الفتوحات المكية ، حـ ٢ ، ص ٢٨٦ ٠

(٤٥) راجع ، معنى لفظ التجانس ، والمشاكلة والمشابهة والمماثلة ، فى المصباح المنير ، ومختار الصحاح ، المواد : جنس ، وشكل ، وشبه ، ومثل ٠

(٤٦) ضياء الدين السهروردى ، آداب المريدين ٠ دار الوطن العربى ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٧٦ ٠

الصداقة ، فالمعاشرة ، ثم الأخوة ، وهى فوق الصداقة ، ثم المحبة ، ثم الخـــلة(٤٧) ٠

ويذهب الغزالى الى أن للمخالطة روابط ، وهى كالآتى : القرابة ثم الجوار أو المجاورة ، ثم الصحبة ، فالصداقة ، وأخيرا الأخوة(٤٨) ٠

ويوضح أبو طالب المكى ، الفروق بين هذه المراتب أو الدرجات ، فيرى أن المعرفة تنتج عن الرؤية ، أو السمع ، وأن المجاورة هى (حق الجوار) ، وهذا هو الجار الجنب ، وأن المرافقة فى طريق أو سفر ، وهذا هو « الصاحب بالجنب » ، ويجعل المكى المعاشرة مع الصداقة ، ويرى أن الصداقة حقيقة الأخوة(٤٩) ٠

ويعرف المكى ، المعـاشرة بقوله « المعـاشرة مأخوذة من العشير ، وهو الخليط المقارب ؛ ولذلك سمى الزوج عشيرا ، فى قـــول النبى ﷺ (ويكفرن العشير)(٥٠) ٠

والأخوة فى رأى المكى لا تكون الا بين النظراء فى الحال ، والمتقاربين فى السن والمعانى ؛ بأن يوجد فى أحدهما من القلب والهمة والعلم والخلق، ما يوجد فى الآخر ، وان تفاوتا ، كما قال تبارك وتعالى (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) وليسوا من جنســهم ، ولا على وصـــفهم فى الخلقة ، ولكن لما تشابهت قلوبهم وأحوالهم ، آخى بينهم ، فهذه أخوة الحال(٥١) ٠ ويرى أبو طالب المكى أن هـــذه الأخوة (أخـــوة الحال) ، هى حقيقـة الصداقة(٥٢) ٠

ومن خصائص الأخوة فيما يرى المكى ، المحبة التى تثمرها الألفة أو

---

(٤٧) قوت القلوب ، جـ ٢ ، ص ٢٣١ ٠
(٤٨) احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ١٧٠ ٠
(٤٩) قوت القلوب ، جـ ٢ ، ، ص ٢٣١ ٠
(٥٠) قوت القلوب ، جـ ٢ ، ص ٢٣١ ٠
(٥١) قوت القلوب ، جـ ٢ ، ص ٢٣١ ٠
(٥٢) قوت القلوب ، جـ ٢ ، ص ٢٣١ ٠

الائتلاف ، ويعرف هذه المحبة بأنها ارتياح القلوب ، وانشراح الصدور ، ووجد السرور ، وفقد الوحشة(٥٣) ٠

ويجعل أبو طالب المكى ، الخليل فـــوق الحبيب ، ولا يكون هـــذا (الخليل) الا فى (شـــخصين) عاقلين ، عالمين ، عارفين ، على معيـــار واحد ، وطريق واحد »(٥٤) ٠

ويعرف أبو طالب المكى ، الخلة ، فيرى أن الخلة مأخـوذة من تخلل الأسرار ، ومعها تكون حقيقة الحب ، والايثار ؛ فكل خليل حبيب ، وليس كل حبيب خليل ؛ لأن الخلة تحتاج الى فضل عقل ، ومزيد علم ، وقـــوة تمكين ، وقد لا يوجد ذلك فى كل محبوب(٥٥) ٠

ويورد المكى دليلا نقليا يثبت به صحة ما ذهب اليـــه ، وهو حـــديث الرسول ﷺ ، والذى يقول فيه : (ألا ان الله تبارك وتعالى قد اتخذنى خليلا ، كما اتخذ ابراهيم خليلا ، فأنا حبيب الله عز وجل ، وأنا خليل الله)(٥٦) ٠

ويذهب المكى الى أن الله تعالى رفع الأخ ، وقدمه على الصـــديق ، ويورد دليلا نقليا لاثبات هذا المعنى ، وهو قوله عز وجل : (أو ما ملكتم مفاتحه)(٥٧) ؛ وذلك لأن الأخ كان يدفع مفاتح خزائنه الى أخيه ، ويتصرف فى الحضر ، ويتقلب فى السفر ، ويقول لأخيه : حكمك فيما أملك كحكمى ، وملكى له كملكك فكان أخوه يتضـــايق ويتحرج ، فيقتر على نفسه ؛ لأجل غيبة أخيه ، ويقول : لو كان (أخى) حاضرا ، لا اتسعت وأكلت رغدا ؛ للورع الذى فيه ، والنصح والايثار لأخيه(٥٨) ٠

ويوجد وجه شبه بين الغزالى والمكى فى هذا الرأى ؛ فان الغزالى

---

(٥٣) قوت القلوب ، حـ ٢ ، ص ٢٣١ ٠
(٥٤) قوت القلوب ، حـ ٢ ، ص ٢٣١ ٠
(٥٥) قوت القلوب ، حـ ٢ ، ص ٢٣١ ٠
(٥٦) قوت القلوب ، حـ ٢ ، ص ٢٣١ ٠
(٥٧) ســـورة النور آية ٦١ ٠
(٥٨) قوت القلوب ، حـ ٢ ،ص ، ٢٣١ ٠

يرى أن الخليل أقرب من الحبيب ؛ فالمحبة ما تتمكن من حبه فى القلب ، والخـلة ، ما تتخلل سر القـلب ، فـكل خليـل حبيب ، وليس كل حبيب خليـــلا(٥٩) ٠

ويرتب الغزالى ، الخلة فوق الأخوة أيضا ، فيقول « أما كون الخلة فوق الأخوة ، فمعناه أن لفظ الخلة عبارة عن حالة هى أتم من الأخـوة ، وتعرفه من قوله ﷺ :

« لوكنت متخذا خليلا ، لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله»(٦٠) ؛ اذ الخليل هو الذى يتخلل الحب جميع أجزاء قلبه ظاهرا وباطنا ويستوعبه(٦١) ٠

ويجعل ابن القيم محبة الأخوة بعضهم بعضا من أنواع محبة الأنس والالف ، فهو يقول حول هذا المعنى : « محبـــة أنس والف ، وهى محبـــة المشتركين فى صناعة ، أو علم ، أو مرافقة ، أو تجارة ، أو سفر ، بعضهم بعضا ، وكمحبة الأخوة بعضهم بعضا »(٦٢) ٠

أما ابن عربى ، فيربط بين الخلة والاحســـان ، فهو يرى أنه ينبغى للانسان الطالب مقام الخلة أن يحســـن عـــامة لجميع خلق الله ، كافرهم ومؤمنهم ، طائعهم وعاصيهم ، وأن يقوم فى العالم — مع قوته — مقام الحق فيهم ، من شمول الرحمة ، وعموم لطائفه ، من حيث لا يشـعرهم أن ذلك الاحسان منه ، ويوصل الاحسان اليهم من حيث لا يعلمون(٦٣) ٠ كما يربط ابن عربى أيضا بين الخلة والرحمة والمودة ، فهو يرى أن من كانت عادته فى خلق الله ، ما عودهم الله من لطائف مننه ، وأسبغ عليهم من جزيل نعمه ،

---

(٥٩) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٧٠ ٠
(٦٠) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٧٠ ٠
(٦١) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٧٠ ٠
(٦٢) ابن القيم ، طريق الهجرتين وباب السعادتين ، المطبعة السلفية ، القاهرة عام ١٤٠٠ هـ ، ص ٢٧٥ ٠
(٦٣) الفتوحات المكية ، حـ ٢ ، ص ٣٦٣ ٠

وأعطف بعضهم على بعض ، فلم يظهر فى العالم غضب لا تشوبه رحمة ، ولا عداوة لا تتخللها مودة ، فذلك يستحق اسم الخلة(٦٤) ٠

ويرى القشيرى أن الأخلاء الذين اصطحبوا على مقتضى الهوى ، بعضهم لبعض عدو ؛ يتبرأ بعضهم من بعض ، فلا ينفع أحد أحدا ، مشيرا الى قول الله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو ، الا المتقين)(٦٥) ، والمتقون فيما يرى القشيرى ، هم الأخلاء فى الله ، فيشفع بعضهم فى بعض ، ويتكلم بعضهم فى شأن بعض ، أولئك هم المتقون ، الذين استثناهم الله بقوله : (الا المتقين) ٠٠٠ »(٦٦) ٠

ويعنى الغزالى بالأخوة ، المساهمة فى السراء والضراء ، وقد قال عليه السلام (اذا أحب أحدكم أخاه ، فليخبره)(٦٧) ٠ ويوضح الغزالى السبب فى أن الرسول ﷺ أمر باخبار الأخ فى حالة حبه له ، فيقول « انما أمر بالاخبار ؛ لأن ذلك يوجب زيادة حب ، فان عرف أنك تحبه ، أحبك بالطبع لا محالة ، فاذا عرفت أنه أيضا يحبك ، زاد حبك لا محالة ، فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف »(٦٨) ٠

(و) أنواع الصحبة أو الأخوة :

يذكر لنا صوفية الاسلام أنواعا كثيرة للصحبة أو الأخوة ، منها : صحبة الأحداث أو الأصاغر أو الصبيان ، وصحبة الشيوخ أو الأكابر ، وتسمى خدمة لا صحبة ، وصحبة السادات ، وهم العباد والزهاد والصالحين ، الذين لم يصلوا بعد الى رتبة الشيخ المربى ، ثم صحبة الاخوان أو الأقران ، وتسمى أخوة ، فصحبة العلماء ، ثم صحبة الحمقى أو الجهال ، وصحبة الفساق ، وصحبة العقلاء ، ثم صحبة الفقراء وهم

---

(٦٤) الفتوحات المكية ، جـ ٢ ، ص ٣٦٣ ٠

(٦٥) سورة الزخرف آية ٦٧ ٠

(٦٦) عبد الكريم بن هوازن القشيرى ، لطائف الاشارات ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة عام ١٩٧٠م ، جـ ٥ ، ص ٣٧٣ ٠

(٦٧) احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ١٥٩ ٠

(٦٨) احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ١٥٩ ٠

المريدين وأصحاب البدايات ، ثم صحبة الأغنياء ، وصحبة الأخيار ، وصحبة الملوك والسلاطين ، ثم الصحبة مع الغرباء أو الضيوف والصحبة مع الأهل والولد ، ثم صحبة الله تعالى ، وفيما يلى نوضح ذلك :

فالصحبة مع الأحداث أو الأصاغر أو الصبيان فيما يرى ضياء الدين السهروردى تكون بالشفقة والارشاد والتأديب ، والحمل على ما يوجبــه حكم المذهب ، ويدلهم على ما فيه صلاحهم ، لا على ما فيه مرادهم ، وعلى ما يفيدهم ، لا على ما يحبونه ، ويزجرهم عما لايعنيهم(٦٩) ٠

ويرى ضياء الدين السهروردى أن صحبة الأحداث أو الأصاغر ، تكره لما فيها من الآفات ، ومن ابتلى بذلك ، صحبهم على شرط السلامة ، وحفظ قلبه وجوارحه منهم ، وحملهم على الرياضات والتأدب(٧٠) ٠

ويرى أحمد الرفاعى أن من جلس مع الصــبيان ، زاده الله اللهـو واللعب(٧١) ٠

أما ابن عجيبة ، فيرى أن الأصاغر ، المراد بهم صغار السن ، الذين لم يبلغوا سن الحداثة والتمكن فيها(٧٢) ٠

ويذهب أبو عبد الرحمن السلمى أن الصحبة مع الأصاغر ، بالشفقة والارشاد والتأديب ، والحمل على ما يوجبــه حكم المذهب ، ويدلهم على مافيه صلاحهم ، لا على مافيه مرادهم ، وعلى مايفيدهم ، لا على مايحبونه، ويزجرهم عما لا يعنيهم(٧٣) ٠

أما صحبة الأحداث فيما يرى ابن عجيبة الحسنى ، فهم أنواع ، فمنهم

---

(٦٩) آداب المريدين ، ص ٦٥ ٠

(٧٠) آداب المريدين ، ص ٦٩ ٠

(٧١) أحمد الرفاعى ، البرهان المؤيد ، مكتبة دار الشــعب ، القــاهرة عام ١٩٧١ ، ص ٦٣ ٠

(٧٢) الفتوحات الالهية ، ص ١٧٠ ٠

(٧٣) الفتوحات الالهية ، ص ١٦٩ ٠

الحدث سنا : وهو الصغير ، الذى لم يميز حقائق الأمور ، فله ولوع بكل مايراه أو يسمعه من مستحسن ، فلا تؤمن غائلته فى الانقلاب ، ثم للنفوس ولوع به من حيث الجمال الصورى ، أو من حيث التعلق الروحانى ، وقد يكون ذلك لا يشعر به الشخص ، وقد يكون من حيث شعوره ، ولصحبتهم آفات حاضرة ، من حيث شغل البـال وحفظه ، ثم من حيث اشتغال النفس بالميل له ، ثم من حيث كون الضرر فى النقص بصحبته ، فلا خير فيهـا ، ولابد من نصحه عند اقباله ، بتعريف الأصول ، وترك الفضول(٧٤) .

أما النوع الثانى من الأحداث ، فهو الحدث عقلا ، وهو الذى لا يلبث على حقيقة ، ولا ينتهج على طريقة ، يتبع كل ناعق ، وينسم كل ناشق ، وهذا أعظم ضررا من الذى قبله ؛ لفقدان الحقيقة فيه ، وانتفاء قابليتها عنه ، ونصحه (يكون) بتعريف الوجه الذى يقصده ، وبيان الحق بوجه واضح ، حتى تقوم الحجة ، وتظهر المحجة(٧٥) .

وأما النوع الثالث ، فهو الحدث عينا ، وهو مع كل قوم بماهم عليه ، ويميل مع كل ريح ، ويسمى (الامعة)(٧٦) .

تعقيب :

يرى الدكتور يوسف مراد أن الامعية (التى تظهر فى الحدث عينا) ، هى القابلية لسرعة التصديق Credulity ، وهى نوع من الاستهواء أو الايحاء ، وأن الطفل أكثر قابلية للاستهواء أو الايحاء من الأشخاص البالغين ، والقابلية لسرعة التصديق أو الامعية ، فيه تزداد قابلية المـرء لتصديق الآراء التى يسمعها ، اذا كانت تناسب ميوله الشخصية ، أو اذا كانت جذابة مغرية ؛ لما فيها من جدة وطرافة ، أو لما فيها من التهويل المثير للاهتمام .

---

(٧٤) الفتوحات الالهية ، ص ١٦٩ .
(٧٥) الفتوحات الالهية ، ص ١٧٠ .
(٧٦) الفتوحات الالهية ، ص ١٧٠ .

ويفزع المرء الى التصدق ؛ لأنه من عوامل خفض التوتر ، الذى يخلقه الشك والتردد ؛ أى لأنه يحقق الاستقرار ، ويمهد السبيل لمواصلة النشاط ، بينما يؤدى الشك الى تعطيل العمل ، وايقاف الحكم(٧٧) ٠

ومن أنواع الصحبة عند الصوفية ، صحبة الشيوخ أو الأكابر ، ويرى ضياء الدين السهروردى أن الصحبة مع المشايخ والكبراء بالاحترام ، أو الخدمة والتوقير ، والقيام بأشغالهم(٧٨) ٠ وينصح أحمد الرفاعى تلميذه بالقيام بخدمة شيخه ، بقوله لتلميذه : « قم بخدمة شيخك بالاخلاص ؛ من غير طلب ولا أرب ، واذهب معه بمسلك الأدب ، واحفظ غيبته ، وتقيد بخدمته ، وأكثر الخدمة فى منزله ، وأقلل الكلام فى حضرته ، وانظر له نظر التعظيم والوقار »(٧٩) ٠

ويرى ابن عربى أن ، من صحب شيخا ممن يقتدى به ، ولم يحترمه ، فعقوبته فقدان وجود الحق فى قلبه ، والغفلة عن الله ، وسوء الأدب يدخل عليه فى كلامه ، ويزاحمه فى رتبته ، فان وجود الحق انما يكون للأدباء ، والباب دون غير الأدباء مغلق ، ولا حرمان أعظم على المريد من عدم احترام الشيوخ(٨٠) ٠

والأصل فى ذلك فيما يرى ابن عربى أنه لا يكون المريد ، بين شيخين ، اذا كان مريد تربية ، ويورد ابن عربى دليلا عقليا يثبت صحة ما ذهب اليه ، فهو يقول : « الأصل أنه ، كما لم يكن وجود العالم بين الهين ، ولا المكلف بين رسولين مختلفى الشرائع ، ولا امرأة بين زوجين ، كذلك لا يكون المريد بين شيخين ، اذا كان مريد تربية ، فان كانت صحبة بلا تربية ، فلا يبالى

---

(٧٧) راجع ، الدكتور يوسف مراد ، مبادىء علم النفس العام ، دار المعارف ، القاهرة عام ١٩٧٨م ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ ٠

(٧٨) آداب المريدين ، ص ٦٤ ٠

(٧٩) أبو الهدى الصيادى ، الفجر المنير ، المطبعة الأميرية ، بولاق ، القاهرة عام ١٣٠٠ هـ ، ص ٢٤ ٠

(٨٠) الفتوحات المكية ، ج ٢ ، ص ٣٦٦ ٠

بصحبة الشيوخ كلهم ؛ لأنه ليس تحت حكمهم وهذه الصحبة تسمى (صحبة البركـــة)(٨١) ٠

ويوصى ابن عجيبة الحسنى تلميذه أن يبادر الى تنفيذ أوامر الشيخ ، فهو يقول له : « كل ما أمر به الشيخ أو أشار اليه ، أو فهمت أنه يحب ذلك ، فلا بد أن تبادر اليهبقدر الامكان ، ولو كان محالا عادة ، لأخذت فى التهيؤ للفعل ، قال شيخ شيوخنا سيدى العربى بن أحمـد بن عبـــد الله الفقير : الصديق هو الذى اذا قال له شيخه : ادخل فى عين المخياط ، لا يتردد ، ويقوم ، يبادر الى امتثال ما أمر ، ولو كان لا يتأتى منه ذلك »(٨٢) ٠

ويذهب ضياء الدين السهروردى الى أن صحبة الشيوخ تسمى خدمة، لا صحبة ، وأن الصحبة مع الأستاذ ، باتباع أمره ونهيه ، وهى من حيث الحقيقة خدمة لا صحبة ، ويورد السهروردى حكاية يثبت بها صحة ما ذهب اليه فى هذا الصدد ، فيقول : « قيل لأبى منصور المغربى : (المتوفى عام ٢٧٣هـ) : كم صحبت أبا عثمان ؟ قال : هى خدمة لاصحبة » ، والقيامبخدمة الأستاذ واجب ، والصبر تحت حكمه ، وترك مخالفته ظاهـــرا ، وباطنا ، وقبول قوله ، والرجوع اليه فى جميع ما يعرض له(٨٣) ٠

أما الصحبة مع الاخوان والأقران ، فتسمى أخوة ، وتكون بكل مايقدر عليه من الموافقة ، وترك المخالفة الا فيما لا يجوز فى الشرع ، ومجانبةالحقد والحسد ، ولزوم ما يسلم به بعضهم من بعض(٨٤) ٠

والآداب مع الاخوان فيما يرى ابن عجيبة الحسنى أربعة :

أولها : حفظ حرمتهم ، غائبين أو حاضرين ، فلا يغتاب أحدا ، ولا ينقص أحدا(٨٥) ٠

---

(٨١) الفتوحات المكية ، حـ ٢ ، ص ٣٦٦ ٠

(٨٢) ابن عجيبة الحسنى ، ايقاظ الهمم ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى، القاهرة عام ١٩٨٣م ، ص ٩٦ ٠

(٨٣) آداب المريدين ، ص ٦٦ ٠

(٨٤) آداب المريدين ، ص ٦٩ ٠

(٨٥) آداب المريدين ، ص ١٣٦ ٠

وثانيها : نصيحتهم ، بتعليم جاهلهم ، وارشـــاد ضالهم ؛ وتقـوية ضعيفهم ولو بالسفر اليه(٨٦) ٠

وثالثها : التواضع لهم ، والاستنصاف من نفسك معهم ، وخدمتهم بقدر الامكان (٨٧) ٠

والصحبة مع الاخوان والأقران فيما يرى بعض الصوفية تكون ببذل المعروف والاحسان ، والبشر ، والخضوع لحكم الوقت ، وحول هذا المعنى يقول أبو عبد الرحمن السلمى : « الصحبة مع الاخوان بالبشر والانبساط والموافقة ، وبذل المعروف والاحسان ،والسكون معهم على حكم الوقت»(٨٨)٠

وهناك نوع من الصحبة ، وهى صحبة الغرباء ، ويذهب ضياء الدين السهروردى الى أن الصحبة مع الغـرباء يجب أن يتحلى فيها الانســـان بالبشاشة ، والبشر ، وطلاقة الوجه ، وحسن الأدب ، ورؤية فضـــلهم ، حيث أكرموه ، وخصوه من بين أقرانه بالنزول عليه ، والالمام به ، ثم ببذل المجهود فى خدمتهم ، واكرامهم ، والكون عنـد مرادهم ، والصـــبر على أحكامهم »(٨٩) ٠

أما أخوة الأسماء الالهية ، فيرى ابن عربى أن المؤمن اسم من أسماء الله ، وقد خلق آدم على صورته ، وله التخلق ٠

كما يرى أن الله تعالى جعل المؤمنون أخوة ، فقال تعالى : (انمـــا المؤمنون اخوة) ، فجعل أباهم الايمان ، فهم أخوة لأب واحد ، وأنه جاء فى الخبر أن المؤمن مرآة أخيه)(٩٠) ٠ فالمؤاخاة بين الأسماء الالهية فيما يرى ابن عربى لا تكون الا بين الأسماء التى لا منافرة بينها لذاتها ؛ فان الله ما آخى الا بين المؤمنين ، ما آخى بين المؤمن والكافر(٩١) ٠

---

(٨٦) اداب المريدين ، ص ١٣٦ ٠
(٨٧) آداب المريدين ، ص ١٣٦ ٠
(٨٨) الفتوحات الالهية ، ص ١٧٣ ٠
(٨٩) آداب المريدين ، ص ٦٧ ٠
(٩٠) الفتوحات المكية ، حـ ٣ ، ص ١٣١ ٠
(٩١) الفتوحات المكية ، حـ ٣ ، ص ١٣٥ ٠

فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، والمؤمن لا يبغض المؤمن، والمؤمن لا يقتل المؤمن ؛ لايمانه »(٩٢) ٠

أما الصحبة مع الأهل والأولاد ، فيذهب ضياء الدين السهروردى الى أن الصحبة مع الأهل والولد ، بحسن الشفقة عليهم ، ومداراتهم ، وتأديبهم، وحثهم على الطاعة(٩٣) ٠

أما صحبة الفقراء ، فهى من أنواع الصحبة عند الصوفية ، ويوصى أحمد الرفاعى مريده بصحبتهم بقوله : « اتخذ الفقراء أصحابا ، وأحبابا، وعظمهم ، وكن مشغولا بخدمتهم ، واذا جاءك واحد منهم ، فانتصب له ، على أقدامك ، وتذلل له ، واذا وقعت خدمتك معهم فى حيز القبول ، فأسألهم الدعاء الصالح(٩٤) ، وهو يقول كذلك فى نفس هذا المعنى : « للخادم فى الخدمة أجر الصيام بالنهار ، والقيام بالليـــل ، وكخادم المجاهـدين فى سبيل الله »(٩٥) ٠

ويقول الرفاعى لمريده أيضا عن خدمة الفقـــراء : « حب الفقراء ، وأكرمهم ، واخدمهم ، وانهض لهم ، واخفض لهم جناحـــك ، واظهر لهم سماحك »(٩٦) ٠

وهناك نوع آخر من الصحبة أو الخدمة ، وهو خدمة الأغنياء ، ويرى أحمد الرفاعى أن خدمة الأغنياء تزيدهم تكبرا ، فهو يوصى مريده بقوله : « اذا خدمت الغنى زدته تكبرا ، وتجبرا ، ونقصت من عين الله ، واذا خدمت الفقير حيرت قلبه ، وزدت فى رغبته ، وعظمت عند الله تعالى ، وخدمتك الملائكة واستغفرت لك »(٩٧) ٠

---

(٩٢) الفتوحات المكية ، حـ ٣ ، ص ١٣٥ ٠
(٩٢) آداب المريدين ، ص ٦٩ ٠
(٩٣) المداراة : الملاطفة والملاينة ، انظر المصباح المنير ، مادة درى ٠
(٩٤) الفجر المنير ، ص ٣٣ ٠
(٩٥) الفجر المنير ، ص ٥٦ ٠
(٩٦) الفجر المنير ، ص ٥٦ ٠
(٩٧) الفجر المنير ، ص ٥٧ ٠

وينصح أبو عثمان الحيرى النيســــابورى (المتوفى عام ٢٩٨ هـ) ، أن يصحب الأغنياء بالتعزز ، لأن التعزز على الأغنياء تواضع ، أما الفقراء، فيصحبهم بالتذلل ؛ لأن التذلل للفقراء شرف ، فهو يقول لمريده : « أصحب الأغنياء بالتعزز ، والفقراء بالتذلل ، فان التعزز على الأغنياء تواضع ، والتذلل للفقراء شرف »(٩٨) ٠

والصحبة مع الجهال أو الحمقى ، نوع من أنواع الصحبة عند صوفية الاسلام ، وهم ينصحون مريديهم من خطورة هذه الصحبة ، فيرى ضياء الدين السهروردى أن الصحبة مع الجهال ، بجميل الصبر وحسن الخلق ، والمداراة والاحتمال ، والنظر اليهم بعين الرحمة »(٩٩) ٠

ويذهب محمد بن الفضل البلخى (المتوفى عام ٣١٩ هـ) أن هناك ست خصال يعرف بها الجاهل ؛ الغضب فى غير شىء ، والكلام فى غير نفع ، والعطية فى غير موضعها ، وافشاء السر ، والثقة بكل أحد ، وألا يعرف صديقه من عدوه »(١٠٠) ٠

وهناك نوع آخر من الصحبة ، وهو صحبة الأخيار والأبرار ، عند صوفية الاسلام ، ويحــذر ابراهيم بن أدهم مريده من أن يغضــــب هؤلاء الأخيار ؛ لأنه اذا أغضبهم ، غضب الله عليه ، فهو يقول لمريده : « اياك اذا صحبت الأخيار ، أو حادثت الأبرار ، أن تغضبهم عليك ، فان الله يغضب لغضبهم ، ويرضى لرضاهم ؛ وذلك أن الحكماء هم العلماء ، وهم الراضون عن الله عز وجل ، اذا سخط الناس ، وهم جلســــاء الله غــدا بعد النبيين والصديقين »(١٠١) ٠

وصحبة أصدقاء السوء والفساق تجلب الندامة والتأسف يوم القيامة ، ولذلك يحذر أحمد الرفاعى مريده منهم ومن مصاحبتهم ، فيقول له : « حذر

---

(٩٨) طبقات الصوفية ، ص ١٧٥ ٠

(٩٩) آداب المريدين ، ص ٦٨ ٠

(١٠٠) طبقات الصوفية ، ص ٢١٤ ٠

(١٠١) طبقات الصوفية ، ص ٣٢ ٠

نفسك من مصاحبة صديق السوء ، فان عاقبة مصاحبتهم الندامة ، والتأسف يوم القيامة ، كما قال الله تعالى : (ليتنى لم أتخذ فلانا خليـــلا)(١٠٢) ، ويقول الله تعالى : (ياليت بينى وبينك بعد المشرقين ، فبئس القرين »(١٠٣)، فاحفظ نفسك من القرين السوء » ·

ويرى أحمد الرفاعى كذلك أن من جالس الفساق ، زاده الله الذنب وتسويف التوبة(١٠٤) ·

أما صحبة العقلاء ، فهى نوع آخر من أنواع الصحبة عند الصوفية ، وينهى الحارث بن أسد المحاسبى تلميذه عن صحبة ومخالطة غير العقلاء ، فهو يقول له : « لا تخالط الا عاقلا تقيا ، ولا تجالس الا عالما بصيرا ، وقد سئل النبى ﷺ : أى جلسائنا خير ؟ قال (من ذكركم بالله رؤيته ، وزادكم فى علمكم منطقه ، وذكركم بالآخرة عمله)(١٠٥) ·

ويذكر المحاسبى السبب فى دعوة مريديه الى صحبة العقلاء ، فهو يرى أن العاقل ؛ لما صح علمه ، وثبت يقينه ، علم أن لا ينجيـــه من ربه الا الصدق ، فسعى فى طلبه ، وبحث عن أخلاق أهله ؛رغبة فى أن يحيى قبل مماته ؛ ليستعد لدار الخلود بعد وفاته »(١٠٦) ·

ويقول أحمد الرفاعى عن صحبة العقلاء ومجالستهم : « الصحبة مع العاقل زيادة فى الدين والدنيا والآخـــرة »(١٠٧) ولابد للعاقل أن يتحلى بالأمانة ، والصدق ، والأخ الصالح ، والسريرة ، فيما يرى أبو على الثقفى (المتوفى عام ٣٢٨ هـ) ، فهو يشير الى هذا المعنى بقوله : « أربعة أشياء لابد للعاقل من حفظهن :الأمانة والصدق، والأخ الصالح ، والسريرة»(١٠٨)·

---

(١٠٢) سورة الفرقان آية ٢٨ ·
(١٠٣) البرهان المؤيد ، ص ٧٣ ، والآية رقم ٣٨ من سورة الزخرف ·
(١٠٤) البرهان المؤيد ، ص ٦٣ ·
(١٠٥) رسالة المسترشدين ، ص ٥٩ ·
(١٠٦) رسالة المسترشدين ، ص ١٠٥ ·
(١٠٧) البرهان المؤيد ، ص ٦٣ ·
(١٠٨) طبقات الصوفية ، ص ٣٦٣ ·

(الصـــحبة)

ويذهب المحاسبى الى أن العالم ، لما كان يتحلى بالتقوى ، وأن العاقل يتخلق بالبصيرة الثاقبة ، فانه ينصح مريده بصحبة ومخالطة العلماء والعقلاء بقوله : « لا تخالل الا تقيا عالما ، ولا تخالط الا عاقلا بصيرا»(١٠٩)٠

ويذهب بعض الصوفية الى أن هناك نوع من الصحبة ، هو صحبة الملوك والسلاطين والأمراء ، فيرى ضياء الدين السهروردى الى أن الصحبة مع السلطان بالسمع والطاعة ، الا فى معصية الله أو مخالفة سنة ، قال الله تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) (١١٠) ٠

أما أبو عبد الله الروذبارى (المتوفى عام ٣٩٦٩ هـ) ، فانه يرى أنه يجب على من يخدم الملوك أو يصاحبهم أن يتعقل الأمور ، والا أسلمه عدم التعقل الى القتل ، فهو يقول : « من خدم الملوك بلا عقل ، أسلمه الجهل الى القتل »(١١١) ٠

والصحبة مع الأمراء عند بعض الصوفية ، تقسى القلب ، وتدعو الى الكبر ، والى هذا المعنى يشير أحمد الرفاعى بقوله : «من جلس مع الأمراء، زاده الله الكبر وقساوة القلب » (١١٢) ٠

أما الصحبة مع الله تعالى ، فهى أفضل أنواع الصحبة عند صوفية الاسلام ، واستمع الى ابن عطاء الله السكندرى ، وهو يقول لمريده فى احدى حكمه : « ما صحبك ، من صحبك الا وهو بعيبك عليم ، وليس ذاك الا مولاك » (١١٣) ٠

ويوضح أحمد زروق معنى هذه الحكمة ، فيرى أن المقصود أن الصحبة

---

(١٠٩) رسالة المسترشدين ، ص ١٥٢ ٠

(١١٠) آداب المريدين ، ص ٦٩ ، والآية رقم ٥٩ من سورة النساء ٠

(١١١) طبقات الصوفية ، ص ٤٩٩ ٠

(١١٢) البرهان المؤيد ، ص ٦٣ ٠

(١١٣) أحمد زروق ، قرة العين ،منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، عام ١٩٧٣ ، حـ ٢ ، ص ١٨ ٠

الحقيقية تكون مع العلم بالعيوب ، دقيقها أو جليلها ، فهو يقول لمريده « من لم يتركك ، مع بيان عيبك ووضوحه ، فهو صاحبك على الحقيقة لا غيره ، ولا يعلم أحد عيوبك على الجملة والتفصيل من المخلوقين ، فبقى معك ؛ لوجود ضعف البشرية وقصورها ، فليس الصاحب على الحقيقة الا الحق سبحانه ؛ لأنه لا يخفى عليه شئ من أمرك ، وهـــو المقابل به ، ويمهلك ولا يهملك ، ويأمرك بطاعته ، ولا يقطع عنك مواد معونته ، وقد قال ﷺ : (اللهم أنت الصاحب فى السفر)(١١٤) .

أما ابن عجيبة الحسنى ، فيوصى مريده بصحبة الله تعالى ، بقوله : « اذا علمت أنه ليس لك صاحب الا مولاك ، فاعرف حقيقة صحبته ، والزم الأدب فى ظاهرك وباطنك ، واستحى منه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك .

وهو يقول كذلك فى نفس المعنى لتلميذه : « الصاحب الذى يدوم لك هو الذى يصحبك وهو عالم بعيبك ؛ لأن ذلك داع للسلامة من التكلف والرياء والتصنع ، وليس ذلك الا مـــولاك ، العـــالم بخفاياك ، المطلع على ســـرك وعلانيتك ، ان عصيته سترك ، وان اعتذرت اليه عذرك »(١١٥) .

وعلى الجمـــلة :

فان خير صاحب للانسان هو الحق تعالى ، فهو الذى يصحب الانسان من غير نفع يعود منه اليه ، وصحبة الحق تعالى للانسان تكون بالاحسان اليه ، يقول ابن عطاء الله السكندرى فى نفس هذا المعنى : « خير من تصحب من يطلبك ، لا لشئ يعود منك اليه »(١١٦) .

واذا كان الصوفية السنيون يثبتون حقيقة الصحبة مع الله تعالى ،

---

(١١٤) قرة العين . ص ١٨ .
(١١٥) ايقاظ الهمم . ص ٢٤٨ .
(١١٦) ايقاظ الهمم . ص ٢٤٨ .

فان الصوفية المتفلسفون ينكرون حقيقة الصحبة مع الله تعالى ، فيقول ابن عربى حول هذا المعنى :

"إن فى الصحبة امراً يتعذر من وجه ، فى الجناب الالهى ، وهو المناسبة والمشاكلة ، اما من كل وجه ، واما من اكثر من الوجوه ، ولا مناسبة (كما يرد فى مقام ترك الصحبة) – فلا صحبة " (١١٧)

ويتضح مما تقدم أن معنى الصحبة عند صوفية الإسلام ، يقترب من معناها فى اللغة العربية والقرآن الكريم ، فقد انتهينا إلى أن الصحبة عند صوفية الإسلام تعنى الملازمة والاتباع والمجالسة والمخالطة والمجاورة .

أما معناها فى اللغة العربية، فهى تعنى الملازمة والاتباع والمجالسة والمعاشرة والمخالطة ، وكذلك يكون معناها فى القرآن الكريم .

وإذا كانت الصحبة أو الصداقة بهذا المعنى فى اللغة العربية وفى القرآن الكريم، وعند صوفية الإسلام ، فإن علم النفس الحديث يعرف الصحبة بأنها علاقة بين شخصين أو أكثر ، تتسم بالجاذبية المتبادلة ، المصحوبة بمشاعر وجدانية ، وأنها علاقة اجتماعية وثيقة ودائمة تقوم على تماثل الاتجاهات.(١١٨)

ولما كانت الصحبة عند صوفية الإسلام تقتضى المناسبة او المشابهة ، فإنه يوجد وجه شبه بين مايقول به الصوفية ، وبين مايذهب إليه علم النفس الحديث الذى يرى أن تشابه الصديقين هو الذى يحفظ الصداقة من الشقاء والخلاف ، وانه عندما لايتشابه الصديقان ، يقوم التناسب مقام التشابه فى صيانه الصداقة من التقطع والخلاف .(١١٩)

---

(١١٧) الفتوحات المكية ، ج٢ ، ص ٢٨٦

(١١٨) اسامة سعد ابو سريع (الدكتور) ، الصداقة من منظور علم النفس ، عالم المعرفة ، العدد ١٧٩ ، نوفمبر ١٩٩٣م ، ص ٣٧ .

(١١٩) راجع الصداقة من منظور علم النفس ، ص ٢١ .

الفصـــل الثـانى

حقوق الصـحبة وشروطها

وآدابها وفــوائدها

الفصـــــل الثــانى

حقوق الصحبة وشروطها وآدابها وفوائدها

تمهيــــــد :

أوضحنا فى الفصل السابق ، معنى الصحبة وأنواعها ، فعرفناها فى اللغة العربية ، وفى القرآن الكريم ، وعند صوفية الاسلام ، ثم أتبعنا ذلك بذكر أنواع الصحبة ، وبينا أن من هذه الأنواع ، صحبة الشيوخ ، والاخوان، والأحداث ، والأخيار ، والأشرار ، ثم صحبة الله تعالى ٠

أما فى هذا الفصل ، فسوف نتحدث عن حقوق الصحبة ، وشروطها وآدابها وفوائدها ، ونبدأ ببيان ، حقوق الصحبة عند صوفية الاسلام :

١ ـ حقــوق الصـــحبة

الصحبة أو الأخوة رابطة بين شخصين فيما يرى بعض الصوفية ، ويرى الغزالى أن هذه الرابطة بين الشخصين ، عقد ، ويقتضى عقد الأخوة (أو الصحبة) حقوقا يجب الوفاء بها(١) ٠

ويجمل بعض الصوفية حقوق الأخوة أو الصحبة فى ثمانية حقوق ، الحق الأول فى المال ، والثانى فى النفس ، والثالث فى اللسان ، بالسكوت عن ذكر عيوب الصاحب ، والرابع على اللسان ، بالنطق بما يحبه الصاحب، أما الحق الخامس فهو العفو عن الزلات والهفوات التى يقترفها الصاحب ، والحق السادس هو الدعاء للصاحب أو الأخ بكل ما يحبه لنفسه وأهله ، والحق السادس هو الوفاء والاخلاص للصاحب ، وأما الحق وثامن ، فهو التخفيف وترك التكلف والتكليف للصاحب أو الأخ ، وفيما يلى بيان ذلك :

(أ) فالايثار ، والمواساة بالمال مع الصاحب أو الأخ أو الصديق .

---

(١) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٢ ٠

تكون بأن تنزله منزلة نفسك ، وترضى بمشاركته اياك مالك ، وتنزله منزلتك ، حتى تسمح له بأن يشاطرك فى مالك ، وتقوم بحاجته مما زاد على حاجتك ، ولا تحوجه الى السؤال ، ويرى الغزالى أن من حق الصاحب على صاحبه ، أو الأخ على أخيه ، أن يؤثره على نفسه ، فهو يقول لمريده عن حق الصاحب

أن تؤثره على نفسك ، وتقدم حاجته على حاجتك ، وهذه رتبة الصديقين ، ومنتهى درجات المتحابين(٢) .

والايثار بالنفس ، كان من أخلاق الصوفية ، فقد أمر أحد الخلفاء بضرب رقاب بعض الخلفاء ، ومنهم أبو الحسن النورى (المتوفى عام ٢٩٥ هـ) ، فبادر (النورى) الى السيف ؛ ليكون هو أول مقتول ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أحببت أن أؤثر اخوانى بالحياة فى هذه اللحظة ، فكان ذلك سبب نجاة جميعهم(٣) .

ويورد ابن عربى حكاية عن مراعاة حقوق الصحبة أيضا ، فهو يقول فى هذا الشأن : « أحسن ما بلغنى عن الحجاج رحمه الله ، أنه أمر بضرب عنق شخص ، فقال (الشخص) : لى أمر ، نحب أن نذكره للأمير قبل أن يقتلنى ، فقال له الحجاج ، قل ، قال : أيها الأمير ، لا أحب أن أقوله لك ، الا حتى تتركى مكتوفا ، بحالى ، أمشى معك فى ايوانك هذا ، من أوله الى آخره ، وما على الأمير فى ذلك من بأس ، ولا يحول ذلك بينه وبين ما يريده منى ، ويقضى لى بهذا حاجة ، فقال لحاجبه : اصعد به الى ، وقام الحجاج يسايره فى الايوان ويصغى اليه ؛ ليرى ماذا يقول له ، فلما بلغ معه الى آخر الايوان ، وعاد الى مكانه ، قال : أيها الأمير : ان الكريم يراعى حق صحبة ساعة ، وقد صحبنى الأمير وصحبته فى هذه المشية ، والأمير أولى من يرعى حق الصحبة ، فقال الحجاج : خلوا سبيله »(٤) .

وعن الايثار والمواساة بالمال للصاحب أو الأخ، ما روى أن عتبةالغلام،

---

(٢) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٢ .
(٣) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٣ .
(٤) الفتوحات المكية ، حـ ٢ ، ص ٢٨٦ .

صاحب الحسن البصرى ، جاء الى منزل رجل كان قد آخاه ، فقال : احتاج من مالك الى أربعة آلاف ، فقال : خذ ألفين ، فأعرض عنه ، وقال : آثرت الدنيا على الله ، أما استحييت أن تدعى الأخوة فى الله ؟ »(٥) ٠

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصحبة أو الأخوة : (مثل الأخوين مثل اليدين ، تغسل احداهما الأخرى)(٦) ، فكذلك الاخوان (أو الأصحاب) ، انما تتم أخوتهما اذا توافقا فى مقصد واحد ، فهما من وجه ، كالشخص الواحد ، وهذا يقتضى المساهمة فى السراء والضراء ، والمشاركة فى المآل والحال ، وارتفاع الاختصاص ، فيما يرى أبو حامد الغزالى(٧)٠

واذا كان بين الصاحب وصاحبه من المودة والصداقة ، فلا يجب عليه أن يضيع حق أخيه بسبب ما بينهما من هذه المودة ، والى هذا المعنى يشير أبو عبد الله بن الجلاء ناصحا مريده بقوله : « لا تضيعن حق أخيك ، اتكالا ، على ما بينك وبينه من المودة والصداقة ، فان الله تعالى ، فرض لكل مؤمن حقوقا ، لا يضيعها الا من لم يراع حقوق الله عليه »(٨) ٠

ويتأسف بعض الصوفية ؛ لأنه أدرك الناس ، وأحـــدهم يمكث الأيام المتوالية ، لا يلقى أخاه ، ثم اذا تلاقيا ، لا يزيد أحدهم الآخر على قوله : كيف أنت ، كيف حالك ، ولو أنه سأله درهما ، لم يعطه اياه(٩) ٠

وجاء رجل الى أبى هريرة ، رضى الله عنه وقال : انى أريد أن أؤاخيك فى الله ، فقال : أتدرى ما حق الاخاء ، قال : عرفنى ، قال : أن لا تكون أحق بدينارك ودرهمـــك منى ، قال : لم أبلغ هـــذه المنـــزلة بعد ، قال : فاذهب عنى(١٠) ٠

---

(٥) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٣ ٠
(٦) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٢ ٠
(٧) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٢ ٠
(٨) طبقات الصوفية ، ص ١٧٧ ٠
(٩) عبد الوهاب الشعرانى ، تنبيه المغترين ، مكتبـــة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، عام ١٣٩٠ هـ ، ص ١٤٣ ، وهذا الكلام للصوفى ، سليمان بن مهران الأعمش ٠
(١٠) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٣ ٠

ويقول أبو سليمان الدارانى (المتوفى عام ٢١٥ هـ) فى نفس المعنى « لو أن الدنيا كلها لى، فجعلتها فى فم أخ من اخوانى ، لاستقللتها له(١١) ٠

تعقيب :

وفى كل الأمور ، ينبغى على الاخــوان ، **الاقتداء بالرســـول ﷺ** وصحابته ، فى الايثار ، وهو القيام بحق الله فى الصحبة ، فقد دخل الرسول ﷺ غيضة مع بعض أصحابه ، فاجتنى منها سواكين : أحــدهما معوج ، والآخر مستقيم ، فرفع المستقيم الى صاحبه ، فقال له : يارسول الله ، كنت والله أحق بالمستقيم منى ، فقال : (ما من صاحب يصحب صاحبا - ولو ساعة ، من النهار - الا ســئل عن صــحبته ، هــل أقام فيها حق الله أم أضاعه)(١٢) ٠

(ب) والاعانة بالنفس فى قضاء الحاجات ، والقيام بها قبل السؤال ، وتقديمها على الحاجات الخاصة ، تكون بأن يقدم الصاحب أو الأخ حاجة صاحبه على حاجته ، وأن يغنيه عن السؤال واظهار الحاجة الى العون ، وأن لا يقتصر الصاحب على قضاء حاجة صاحبه ، بل يجتهد بالكرام فى الزيادة ، وبهذا تظهر الشفقة فى الصحبة والأخوة ٠

ومن الاعانة بالنفس فى قضاء الحاجات ، القيام بالحاجة عند السؤال، ولكن مع البشاشة والاستبشار واظهار الفرح(١٣) ٠

والى هذا المعنى يشير جعفر بن محمد بقوله : « انى لأســارع الى قضاء حوائج أعدائى ، مخافة أن أردهم ؛ فيستغنوا عنى(١٤) ٠ وكان جعفر ابن محمد يصنع ذلك فى الأعداء ، فكيف كان يســارع الى قضــاء حاجة أصحابه وأصدقائه واخوانه ؟

---

(١١) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٣ ٠
(١٢) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٤ ٠
(١٣) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٤ ٠
(١٤) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٤ ٠

ومما يؤكد مراعاة حق الصحبة والأخوة ، الشفقة على الصاحب وأهله ،وقد كان فى السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة ، يقوم بحاجتهم ، ويتردد كل يوم اليهم ، ويمونهم من ماله ، فكانوا لا يفقدون من أبيهم الا عينه ، بل كانوا يرون منه مالم يروا من أبيهم فى حياته ، وكان الواحد منهم يتردد الى باب دار أخوه ، ويسأل ويقول : هل لكم زيت ، هل لكم ملح ، هل لكم حاجة ، وكان يقوم بها ، من حيث لا يعرفى أخوه(١٥) .

ويوجد وجه شبه بين ما يقول به الصوفية فى الشفقة ، وبين ما يذهب اليه الفيلسوف شوبنهور ، فهو يقول عن الشفقة : « حينما يقع الآخرون صرعى لهجمات الشر ،والمرض ، والألم ، والشقاء ، هنالك تتفتح لهم قلوبنا، وتزول ما بيننا وبينهم من حواجز ، اذ نشعر أن آلامهم هى الامنا ، وأن شقاءهم هو شقاؤنا ، وتبعا لذلك ، فان الأنانية لا تتوقف الا حيث تبدأ الشفقة ، لأن مشاركتى لآلام الآخرين هى التى تجىء ، فتسد كل هوة تفصلنى عن الآخرين ، وتسقط كل حجاب يتوسط بينى وبينهم(١٦) .

ويرى الدكتور زكريا ابراهيم أن المهم فى مذهب شوبنهور ، أنه يحاول استخلاص المحبة من الشفقة ، فتراه يقرر أننا لا نحب الآخرين الا بقدر ما نراهم يتألمون ، وبالتالى بقدر ما نتعاطف معهم ، ونحنو عليهم تحت تأثير تلك الآلام نفسها ، ومعنى هذا أن للحب طابع الشفقة والرحمة والاحسان ، بدليل أن مايولده أو يستثيره ، انما هو الألم ، الذى يعانيه الآخرون ، وكثيرا ما يكون تأثرنا بآلام الآخرين ، سببا فى اقبالنا عليهم ، وتجاوبنا معهم ، وعنايتنا بهم ، واحساننا اليهم ، فالمشاركة المباشرة فى آلام الآخرين ، هى الأصل فى كل محبة ، وهى السبيل الوحيد للقضاء على الأنانية(١٧) .

---

(١٥) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٤ .

(١٦) مشكلة الحب ، ص ٦٠ .

(١٧) مشكلة الحب ، ص ٦١ . نقلا عن :
Schopenhauer : "Le fondement métaphysique de la Morale",, trad. franç., pp. 248-249.

والحياة الانسانية ، لا يمكن أن تكون مجرد أنانية محضة ، أو تمركز ذاتى مطلق ، وهذا ما عبر عنه الفيلسوف الفرنسى (جيو Quyau) حينما كتب يقول : « ان الحياة هى الخصوبة ، والخصوبة - بدورها هى الحياة الفائضة الطافحة ، أو هى الوجود الحقيقى بكل معنى الكلمة ... وكلما كانت الحياة أغنى وأخصب ، كانت فى الوقت نفسه أشد ميلا الى البذل ، وأقوى نزوعا نحو السخاء ، وأكثر اندفاعا نحو التضحية ، وأعظم رغبة فى المشاركة مع الآخرين »(١٨) ٠

(حـ) ومن حقوق الصحبة فيما يرى الصوفية ، السكوت عن ذكر عيوب الصاحب ، وعن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلا ، أما اذا أوجب الشرع على الصاحب النطق فى أمر بمعروف أو نهى عن منكر ، وجب عليه النطق ، فان ذلك احسان الى الصاحب ، وان ظن أنها اساءة فى الظاهر ٠

وكان السكوت عن ذكر عيوب الصاحب من أخلاق الرسول ﷺ ، فانه كان لا يواجه أحدا بشىء يكرهه ، على حد قول أنس بن مالك(١٩) ٠

ويجب علي الصاحب أيضا ، فيما يرى بعض الصوفية ، السكوت عن أسرار صاحبه التى بثها اليه ، ولا يبثها الى غيره البتة ، ولا الى أخص أصدقائه ، ولا يكشف شيئا منها ، ولو بعد القطيعة والوحشة ، فان ذلك من لؤم الطبع ، وخبث الباطن(٢٠) ٠

ومما يجب على الصاحب كذلك ، السكوت عن حكاية قدح غيره فيه ، ولا يبال بمن يبلغه ذلك ؛ لأن الذى بلغه هو الذى سبه وقدح فيه وفى أحبابه وأهله وولده(٢١) ٠

---

(١٨) مشكلة الحب ، ص ٦٧ ، نقلا عن :
J.M. Guyau : "Esquise d'une Morale sans obligation ni sanction'," Paris, Alcan, p. 194.

(١٩) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٥ ٠

(٢٠) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٥ ٠

(٢١) راجع احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٥ ٠

ولا يجب على الصاحب فيما يرى صوفية الاســـلام ان يتجسس عن أحوال صاحبه ، فكما ان الصاحب ينبغى عليه أن يكست بلسانه عن مساوىء صاحبه ، فانه يجب عليه ايضا تجنب التجسس عليه وذلك يكون عن طريق السكوت بالقلب(٢٢) ٠ وقد نهى الرسول ﷺ عن التجسس ، فقال :

« لا تجسسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تقاطعوا ، ولا تدابروا ، وكونوا ـ عباد الله ـ اخوانا »(٢٣) ٠ والتجسس يكون فى تطلع الأخبار ، والتجسس بالمراقبة بالعين ٠

ويرى الغزالى أن ذكر مساوىء وعيوب الصاحب ومساوىء أهله . يكون من الغيبة ، وذلك حــــرام ، وينبغى الكف عن ذلك ، ويورد الغزالى السبب فى الكف عن ذكر مساوىء الناس والأصحاب ، بالبراهين العقلية . فهو ينصح مريده بعدم ذكر مساوىء الصاحب ، بقوله : « أما ذكر مساوئه وعيوبه (أى : الصاحب) ، ومساوىء أهله ، فهو من الغيبة ، وذلك حرام فى حق كل مسلم ، ونزجرك عنه أمران :

أحدهما : أن تطالع أحوال نفسك ، فان وجدت فيها شيئا واحـــدا مذموما ، فهون على نفسك ما تراه من أخيك ، وقدر أنه عاجز عن قهر نفسه فى تلك الخصلة الواحدة ، كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به ، ولا تستثقله بخصلة واحدة مذمومة ، فأى الرجال المهذب ؟ »(٢٤) ٠

أما الأمر الثانى فى أسباب الكف عن مساوىء الأصــحاب ، فهو أنك تعلم ، أنك لو طلبت (شـــخصا) منزها عن كل عيب ، اعتزلت عن الخلق كافة ، ولن تجد من تصاحبه أصلا ، فما من أحد من الناس الا وله محاسن ومساوىء ، فاذا غلبت المحاسن المساوىء فهو الغاية والمنتهى »(٢٥) ٠

---

(٢٢) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٥ ٠
(٢٣) راجع احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٦ ٠
(٢٤) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٥ ٠
(٢٥) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٥ ٠

ويورد أبو القاسم عبد الله بن محمد الدمشقى (المتوفى عام ٣٢٠ هـ)، هذه الحكاية ، ليثبت بها صحة ما سبق ، بقوله : « كنت واقفا يوما ، على حلقة الشبلى ، فجعل يبكى ولا يتكلم ، فقال رجل : يا أبا بكر ، ما هذا البكاء كله ؟ فأنشأ يقول :

أيا من دهره غضب وسخط شكا فعلى وعدد سيئاتى(٢٦)
اذا عاتبته أو عاتبوه أما أحسنت يوما فى حياتى ؟

وقال ذو النون المصرى (المتوفى عام ٢٤٥ هـ) : « لا خير فى صحبة من لا يحب أن يراك الا معصوما »(٢٧) • ويقول الفضيل بن عياض فى نفس المعنى : « من طلب أخا ، بلا عيب ، صار بلا أخ »(٢٨) • وقيل لأبى يزيد البسطامى ، (المتوفى عام ٢٦١ هـ) : من تصحب ؟ من الناس ؟ ، قال : من يعلم منك ما يعلم الله ، ثم يستر عليك كما يستر الله »(٢٩) •

والعفو عن زلات الاخوان فيما يرى بعض الصوفية من الفتوة والمروءة، والى هذا المعنى يشير الفضيل بن عياض : « الفتوة ، العفو عن زلات الاخوان)(٣٠) • ويقول رويم بن أحمد البغدادى فى نفس المعنى ، حينما سئل عن الفتوة : « أن تعذر اخوانك فى زلاتهم ، ولا تعاملهم بما تحتاج أن تعتذر منه)(٣١) • وسئل عمر بن عثمان المكى عن المروءة ، فقال « المروءة: التغافل عن زلل الاخوان »(٣٢) •

وكان من أخلاق السلف الصالح ، رؤية محاسن الناس ، والتعامى عن

---

(٢٦) طبقات الصوفية ، ص ٢٤١ ، وكانت وفاة أبى بكر الشبلى (عام ٣٣٤هـ)•

(٢٧) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٨ •

(٢٨) عبد الوهاب الشعرانى ، الطبقات الكبرى ، مكتبة محمد على صبيح ، القاهرة ، بدون تاريخ ، خاص ٥٩ •

(٢٩) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٨ •

(٣٠) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٦ •

(٣١) طبقات الصوفية ، ص ١٨٣ ، وكانت وفاة رويم بن أحمد البغدادى عام ٣٠٣ هـ ، أوائل القرن الرابع الهجرى •

(٣٢) طبقات الصوفية ، ص ٢٠٢ •

مساوئهم ، حتى أن أحـــدهم لا يكاد يرى فى أخيـــه المسـلم عيبـــا ، يهجوه به أبد »(٣٣) ٠

والعفو عن هفوات الصاحب، اما أن تكون فى دينه ، بأن يرتكب الذنوب والسيئات ، أو بتقصيره فى الصحبة أو الأخوة ، ويرى أبو مدين المغـربى (المتوفى عام ٥٨٩ هـ) أن على الصاحب أن يتطلف فى نصح صاحبه بما يعيد اليه الصلاح ويستحى من ا لاصرار على ارتكاب المعاصى ، والتقصير فى حق الصاحب ، يقول أبو مدين المغربى حول هذا المعنى : « مروءتك : اغضاؤك عن تقصير غيرك »(٣٤) ٠

والتغاضى عن عيوب الغير من الفتوة فيما يرى أبو مدين ، وذلك ايمانا منه بأنه لا يوجد الشخص المنزه عن كل عيب ، والأدب اذن أن يتغاضى الفتى عن ذكر عيوب صاحبه ، والنطق بمحاسن أخلاقه ، والدفاع عنه فى غيبته لمن يقصده بالسوء ، وأن يحميه من المكروه ، فيقول أبو مدين حول هذا المعنى : « الفتوة : رؤية محاسن العبيد ، والتغاضى عن مساوئهم »(٣٥) ٠

ويقول أبو على الدقاق أستاذ القشيرى فى هذا الصدد : « ان من الفتوة ، الستر على عيوب الأصـــدقاء ، لاسيما اذا كان لهم فيه شـــماتة الأعـداء »(٣٦) ٠

١ ــ التغافل عن زلات الصاحب : فانه اذا رأى الصـــاحب زلة من صاحبه ، أظهر أنه لم يرها ؛ ليريح صاحبه من تحمل الاعتذار ٠

وقد وضع الصوفية لهذا المعنى للفتوة ، شروط ، يجب على الصاحب الالتزام بها نحو صاحبه ، وهى :

---

(٣٣) تنبيه المغترين ، ص ٥٦ ٠

(٣٤) ابن قنفذ القسنطينى ، أنس الفقير ، نسخة خطية بدار الكتب بالقاهرة ، رقم ٣٠٣ مجاميع ٠

(٣٥) ابن علان (أحمد ابراهيم) شرح حكم أبى مدين ، نسخة خطية بدار الكتب بالقاهرة ، رقم ١٤٠٥ تصوف طلعت ، ص ٣٥ ٠

(٣٦) عبد الكريم بن هوازن القشيرى ، الرسالة القشيرية ، مكتبة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١١٤ ٠

٢ - المروءة : وهى أن يتصف الصاحب بموافقة صـــاحبه ، فيمـا لا يخالف الشريعة ، وأن يتعامى عن عيوب صاحبه ويسترها ٠

٣ - تجنب سوء الظن بالصاحب ؛ لأن ذلك يدعو الى التجسس عليه٠

٤ - ترك الخصومة : فالفتوة لا تصح الا بسقوط الخصومة مع الاخوان والأصحاب والخلق كلهم ، فـــلا يخاصم ولا يغاتب الا فيمـــا يتعلق بحق الله تعـــالى ٠

٥ - الاحسان الى المسىء : وهو أن يقابل الصاحب اساءة صاحبه اليه ، بالاحسان ، فيحسن اليه كلما أساء اليه ٠

وما أحوجنا اليوم فى مجتمعنا الى تطبيق هـــذه القاعدة الأخلاقية ، فينبغى على الانسان أن لا يشـغل قلبه وســـره بما ناله من الأذى وطلب الوصول الى الانتقام ، وأن يفرغ قلبه من ذلك ، ويرى أن سلامته وخلوه من ذلك ، أنفع له ، وأعون على قضاء مصالحه ، فاذا ترك الانتقام ، أمن ممن هو أشر من ذلك ، واذا انتقم ، زيله الخوف ؛ لأن الانتقام يثمر العداوة ، فاذا غفر الانسان ولم ينتقم ، أمن من تولد العداوة ، وأدى به ذلك الى الثبات والاستقرار النفسى ، كما أن هذه المعاملة لها وظيفة سيكولوجية أيضا ، فمتى علم الصاحب أنك متألم منه ، من جهة ما نالك من الأذى ، احتاج الى أن يعتذر اليك ؛ ليزيل ما فى قلبك منه ، والفتوة أن لا تحوجه الى الاعتذار ؛ بأن لا يظهر له منك عتاب أو تغير ، عما كان منك قبلُ ذلك(٣٧)٠

(د) والنطق بالمحاسن ، ربما يحبه الصاحب أو الصديق ، من حقوق الصحبة فيما يرى الصوفية ، فعلى الصاحب أن يتودد الى صاحبه ، ويتفقده فى أحواله التى يجب أن يتفقده فيها ، كالسؤال عن عارض ، ان عرض ، واظهار شغل القلب بسببه ، واستبطاء العافية عنه ٠ وكذا جملة أحواله التى يكرهها ، ينبغى أن يظهر بلسانه وأفعـاله كراهتها ، وجمـــلة أحواله التى

---

(٣٧) راجع حول هذا الموضوع ، محيى الدين عبد الحميد طاهر (الدكتور) : أبو مدين المغربى ، حياته وتصوفه ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب جامعة القاهرة ، ص ١٨٧ - ١٩٢ ٠

يسر بها ، فمعنى الأخوة ، المساهمة فى السراء والضراء ، وذلك على حد قول أبو حامد الغزالى(٣٨) ٠

تعقيب :

المساهمة أو المشاركة فى السراء والضراء هى المشاركة الوجدانية أو التعاطف ، والواقع أن التعاطف أو المشـــاركة الوجدانية مع الآخـــرين ، كالأصحاب والاخوان والأصدقاء ، لا يعنى أن سرورهم قد أصبح سرورى ، أو أن ألمهم قد أصبح ألمى ، بل هو يعنى أننى أشارك فى مسرات الآخرين ، بوصفها مسراتهم ، وأننى أشارك فى آلامهم ، بوصفها آلامهم ، فليس فى التعاطف الحقيقى أى تقمص وجدانى ، أو اندماج ، عاطفى(٣٩) ٠

وهذا ما يؤكده (ماكس شلر) ، حينما يرى أن مشاركتنا لآلام الآخرين أو مسراتهم ، لا تتضمن حالة مماثلة لتلك التى نشارك فيها ، كما يرى أيضا أن جوهر التعاطف (أو المشاركة الوجدانية) ، انما هو هذه المقدرة النفسية الموجودة لدنيا على التجاوب مع حالات الآخرين الوجدانية ، بحيث نستشعر سروهم ، دون أن نصبح نحن أنفسنا مسرورين ، ونستشعر ألمهم ، دون أن نصبح نحن أنفسنا متألمين(٤٠) ٠

وثمة روابط وثيقة بين الحب والتعاطف ، ولكن هذه الروابط - فى رأى شلر - تنحصر فى حقيقة واحدة رئيســـية ، ألا وهى أن الحـــب هو الدعامة القوية ، التى ترسى قواعد التعاطف ، بحيث أنه اذا انعدم الحب ، انعدم بالتالى معه كل تعاطف(٤١) ٠

والمحبة والتعاطف والتودد بين الأصحاب أو الاخوان أو الأصـدقاء ،

---

(٣٨) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٩ ٠

(٣٩) مشكلة الحب ، ص ٧٦ ٠

(٤٠) مشكلة الحب ، ص ٧٧ ، نقلا عن :

Max Scheler : Nature of Formes de la Sympathie". Payot, 1950, pp. 69.

(٤١) مشكلة الحب ، ص ٨٨ ٠

(الصـحبة)

مطلوب فى الشرع والدين ، ويستند الى قول الرسول صلى الله عليه وسلم (توادوا ، تحابوا)(٤٢) ٠

ومن التعاطف والتودد والمحبة بين الأصحاب فيما يرى الصوفية ، أن يثنى الصاحب على صاحبه بما يعرف من محاســـن أحواله ؛ فان ذلك من أعظم الأسباب فى جلب المحبة ، ويرى أبو حامد الغزالى أن أعظم الأسباب أيضا التى تدعوا الى جلب المحبة بين الأصحاب ، الدفاع عن الصحاب فى غيبته ، مهما قصد بسوء ، ويرى كذلك أن حق الصحبة والأخوة فى الحماية والنصرة ، وأن السكوت عن ذلك موغر للصدر ، ومنفر للقلب ، وتقصير فى حق الأخوة(٤٣) ٠

(هـ) والتعليم والنصيحة ، من حقوق الصحبة أو الاخوة ، ويرى بعض الصوفية أن حاجة الصاحب أو الأخ الى العلم ، ليست بأقل من حاجته الى المال ، واستمع الى أبى حامد الغزالى وهو يقول لتلاميذه ، مشيرا الى هذا المعنى : « التعليم والنصيحة (من حقوق الأخوة أو الصحبة) ، فليس حاجة أخيك الى العلم بأقل من حاجته الى المال ، فان كنت غنيا بالعــــلم ، فعليك مواساته من فضلك ، وارشاده الى كل ما ينفعه فى الدين والدنيا ؛ فان علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم ، فعليك النصيحة ، وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل ، وفوائد تركه(٤٤) ٠

وينبغى عند نصح الصاحب ، أن يكون ذلك فى سر ، لا يطلع عليه أحد، فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة ، وما كان فى الســــر فهو شـــفقة ونصيحة ٠ والى هذا المعنى يشير الشافعى بقوله : « من وعظ أخاه سرا ، فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشـــانه »(٤٥) ٠ وقيــل لمسعر بن كدام ، أتحب من يخبرك بعيوبك ؟ فقال : ان نصحنى فيما بينى

---

(٤٢) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٩ ٠
(٤٣) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٩ ٠
(٤٤) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٠ ٠
(٤٥) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٠ ٠

وبينه ، فنعم ، وان قرعنى بين الملأ ، فلا »(٤٦) . ويقول ذو النون المصرى فى نفس هذا المعنى : « لا تصحب مع الله الا بالموافقة ، ولا مع الخلق الا بالمناصحة ، ولا مع النفس الا بالمخالفة »(٤٧) .

وما أحوجنا فى مجتمعنا الى هذا الخلق الكريم ، وهو نصح الاخوان والأصحاب فى السر ، بين الصاحب وصاحبه ، فان علم الصاحب أن النصح لصاحبه غير مؤثر فيه ، وأنه مضطر الى الاصرار عليه ، فالسكوت عنه أفضل .

ويذهب بعض الصوفية الى أن الأخوة أو الصحبة ، مواجهة ، فمتى أضمر أحدهما للآخر سوء ، أو كره منه شيئا ولم ينبهه اليه ؛ حتى يزيله ، أو يتسبب فى ازالته منه ، فما واجهه ، بل استدبره(٤٨) .

(و) والأصل فى الصحبة والأخوة ، الصفاء والموافقة ، وعدم المخالفة ، فيما يرى بعض الصوفية ، والى هذا المعنى يشير أبو سعيد الخراز (المتوفى عام ٢٧٩ هـ) بقوله : « صحبت الصوفية خمسين سنة ، ما وقع بينى وبينهم خلاف ، فقيل له وكيف ذلك ؟ قال : لأنى كنت معهم على نفسى »(٤٩) .

ويذهب بعض الصوفية الى أنه اذا وقع خلاف بين الأصحاب أو الاخوان ، هل يوجب هذا الخلاف أو التقاطع ، البغض والكراهية ، أم المودة والوصال ؟ وقد أجاب السهروردى على هذا التساؤل ، بقوله : « اختلف القول فى ذلك : فكان أبو ذر (الغفارى) ، يقول : اذا انقلب (الصاحب أو الأخ) عما كان عليه ، أبغضه من حيث أحببته » ، وقال غيره : لا يبغض ولكن يبغض عمله ، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (فان عصوك ، فقل : انى برىء مما تعملون)(٥٠) ، ولم يقل : انى برىء منكم(٥١) .

---

(٤٦) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٠ .
(٤٧) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦١ .
(٤٨) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١٤٨ .
(٤٩) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١٤٩ .
(٥٠) سورة يونس آية ٤١ .
(٥١) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١٥١ .

وأما أبو الدرداء فيقول فى هذا الشأن : « اذا تغير أخوك ، وحال عما كان عليه ، فلا تدعه لأجل ذلك ، فان أخاك يعــوج مرة ، ويســتقيم أخرى »(٥٢) . أما ابراهيم النخعى فى هذا الصــدد : « لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب ، بذنبه ، فانه يرتكبه اليوم ، ويتركه غدا »(٥٣) .

ويقول أبو الدرداء كذلك فى هذا الشأن ، لما قيل له : ألا تبغض أخاك ، وقد فعل كذا ؟ فقال : انما أبغض عمله ، والا فهو أخى »(٥٤) .

وعلى الجملة : فان من الناس (الأصحاب أو الاخوان) ، من كان تغيره ، رجوعا عن الله ، وظهور حكم السابقة ، فيجب بغضــه ، وموافقة الحق فيه ، ومن الناس من كان تغيره ، عثرة حدثت ، وفترة وقعت ، يرجى عوده ، فلا ينبغى أن يبغض ، ولكن يبغض عمله فى الحالة الحاضرة ، ويلحظ بعين الود ، انتظارا للفرج والعودة الى أوطان الصلح(٥٥) .

(ز) والوفاء للصاحب والأخ والصديق ، من حقوق الصحبة ، ومعنى الوفاء : الثبات على الحب ، وادامته الى الموت معه (أى : مع الصاحب أو الأخ) ، وبعد الموت ، مع أولاده وأصدقائه(٥٦) .

والوفاء بحق الأخ أو الصاحب ، كان من أخــلاق السلف الصالح ، فانهم كانوا لا يتخذون من الاخــوان الا من علموا من نفوسهم ، الوفــاء بحقــه(٥٧) .

والمودة الدائمة ، هى التى تكون فى الله ، أما ما يكون لغرض ، فانه يزول بزوال ذلك الغرض ، ومن مراعاة حق الصحبة أو الأخوة ، المودة ، ويذهب بعض الصــوفية الى أن المودة الحقيقية هى التى لا تزداد بالبر ،

---

(٥٢) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦١ .
(٥٣) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦١ .
(٥٤) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٢ .
(٥٥) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١٥٣ .
(٥٦) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٤ .
(٥٧) تنبيه المغترين ، ص ١٥٠ .

ولا تنقص بالجفاء ، واستمع الى يحيى بن معاذ الرازى ، حينما سئل عن حقيقة المودة ، وهو يقول:«هى التى لا تزداد بالبر ، ولا تنقص بالجفا»(٥٨)٠

ويرى بعض الصوفية أن كل مودة تزداد باللقاء ، فليست من المودة فى شىء ، فكل مودة يزداد فيها باللقاء ، فهى مدخولة فى المودات(٥٩) ٠

ومن المودة للصاحب أو الأخ ، مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به ؛ فان مراعاتهم أوقع فى قلب الصديق من مراعاة الأخ فى نفسه ؛ وان فرحه بتفقد من يتعلق به ، أكثر(٦٠) ٠

والمودة فى الله ، كانت من أخلاق السلف الصالح ، فانهم كانوا يقومون بمعاتبة من انقطع عن زيارتهم من اخوانهم ، منحيث حرمانه من الثواب العائد نفعه عليه ، لا من حيث الخلل بحقوقهم(٦١) ٠

ومما يضاد المودة ، الصدود والفراق ، وهو من الأخلاق المذمومة ، وينصح الصوفية بتجنب ذلك ، واستمع الى هذه الحكاية حول هذا الموضوع: دخل عمرو بن عثمان المكى أصفهان ، فصحبه حدث ، وكان والده يمنعه من صحبته ، فمرض الصبى ، فدخل عليه عمرو ، مع قوال ، فنظر الحدث الى عمرو ، وقال له : قل له يقول شيئا ، فقال القوال :

مالى مرضت فلم يعدنى عائد
منكم ، ويمرض عبدكم فأعود

فتمطى الحدث على فراشه وقعد ، فقال القوال : زدنى بحقك ، فقال القوال :

وأشد من مرضى على صدودكم
وصدود عبدكم على شديد

(٥٨) أبو نصر السراج الطوسى ، اللمع فى التصوف ، عام ١٩ هـ ، ص ٢٧٩ ٠
(٥٩) راجع ، اللمع فى التصوف ، ص ٢٧٩ ٠
(٦٠) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٥ ٠
(٦١) تنبيه المغترين ، ص ١٠٨ ٠

فزاد به (بالحدث) البرء ، حتى قام وخرج معهم(٦٢) ٠

ومن شروط المودة بين الأصحاب والاخوان ، أن لا تكون مع حسد فى دين أو دنيا ؛ اذ كيف يحسد الصاحب صاحبه ، وكل ماله لصاحبه ؟ فاليه ترجع فائدته ، وبه وصف الله تعالى الأصحاب والاخوان على الحقيقة بقوله : (ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم) ، ووجود الحاجة هو (الحسد)(٦٣) ٠

ومن الوفاء للصاحب أو الأخ ، أن يتواضع الصاحب لصاحبه ، لأن التكبر على الأصحاب ، من الأخلاق الذميمة فيما يرى بعض الصـــوفية ، فيرى الغزالى أنه من الوفاء (للصاحب أو الأخ) ، أن لا يتغير حاله فى التواضع مع أخيه ، وان ارتفع شأنه ، واتســـعت ولايته ، وعظم جاهه ؛ فالترفع على الاخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم(٦٤) ٠

ويذهب بعض الصوفية الى أنه ليس من الوفاء للصاحب أو الأخ ، أن يوافق الصاحب صاحبه فيما يخالف الحق ، فى أمر يتعلق بالدين ٠ والى هذا المعنى يشير أبو حامد الغزالى قائلا ، لمريده : « اعلم أنه ليس من الوفاء، موافقة الأخ فيما يخالف الحق ، فى أمر يتعلق بالدين ، بل من الوفاء له ، المخالفة ، فقد كان الشافعى رضى الله عنه آخى محمد بن عبد الحكم ، وكان يقربه ، ويقبل عليه ، ويقول : ما يقيمنى بمصر غيره ، فاعتل محمد ، فعاده الشافعى رحمه الله ، فقال :

مـــرض الحبيـــب فعـــدته	فمرضـــت من حـذرى عليه
وأتـــى الحبيـــب يعـــودنى	فبرئـــت مـــن نظرى اليـــه

وظن الناس ؛ لصدق مودتهما ، أنه يفوض أمر حلقته اليه بعد وفاته ، فقيل للشافعى ، فى علته التى مات فيها ، رضى الله عنـــه — الى من تجلس بعدك يا أبا عبد الله (الشافعى) ، فاستشرف له محمد بن عبد الحكم ، وهو

---

(٦٢) طبقات الصوفية ، ص ٢٠٤ ٠

(٦٣) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٥ ٠

(٦٤) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٥ ٠

عند رأسه ؛ ليومىء اليه ، فقال الشافعى : سبحان الله ، أيشك فى هذا ؟ أبو يعقوب البويطى ، فانكسر لها محمد ، ومال أصحابه الى البويطى ، مع أن محمدا كان قد حمل عنه مذهبه كله ، لكن كان البويطى أفضل وأقرب الى الزهد والورع »(٦٥) .

ومن الوفاء للصاحب أو الأخ أو الصديق ، أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه ، وأن لا يصادق عدو صديقه ، والى هذا المعنى يقول الشافعى لأحد تلاميذه : « اذا أطاع صديقك عدوك ، فقد اشتركا فى عدواتك »(٦٦) .

(ح) ومن حقوق الصاحب على صاحبه ، فيما يرى بعض الصوفية ، أن لا يكلف أخاه مالا طاقة له به ، بل يروح سره ، ويخفف عنه ، بأن لا يحمله شيئا من أعبائه ، والى هذا المعنى يشير الفضيل بن عياض ، بقوله : « انما تقاطع الناس بالتكلف، يزور أحدهم أخاه فيتكلف له، فيقطعه ذلكعنه »(٦٧).

ولا يتم التخفيف ، وعدم التكلف للصاحب ، الا بأن يرى الصاحب نفسه دون أصحابه أو اخوانه ، وأن يحسن الظن بهم ، فاذا رآهم خيرا من نفسه ، فعند ذلك يكون هو خيرا منهم(٦٨) .

وينبغى للصاحب أن يرى الفضل لصاحبه ، فلا خير فى صحبة الصاحب الذى ينظر الى صاحبه بعين المساواة ، أو الذى يرى الفضل لنفسه ، فمهما رأى الفضل لنفسه فقد احتقر أخاه ، وهذا فى عموم المسلمين مذموم ، قال ﷺ : (بحسب المؤمن من الشره أن يحقر أخاه المسلم)(٦٩) .

(ط) ومن حقوق الصاحب على صاحبه ، أن ينزل نفسه منزلة الخادم لهم ، وأن يراعى حقوقهم بكل جوارحه ، فينظر اليهم ببصره ، نظرة مودة ،

---

(٦٥) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٥ .
(٦٦) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٥ .
(٦٧) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٦ .
(٦٨) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٧ .
(٦٩) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٧ .

وينظر الى محاسنهم ، ويتعامى عن عيوبهم ، ولا يصرف بصره عنهم فى وقت اقبالهم عليه وكلامهم معه(٧٠) ٠

أما عن مراعاة حقوق الصاحب أو الأخ بالسمع ، فبأن يسمع كلام أصحابه ، متلذذا بسماعه ، ومصدقا به ، وينصح الغزالى تلميذه بعدم المنازعة للاصحاب والاخوان ، وعدم الاعتراض على حديثهم ، وأن لا يسمع ما يكره الأصحاب ، فهو يقول لتلميذه :

« أما السمع ، فبأن تسمع كلامهم (الاخوان أو الأصحاب) ، متلذذا بسماعه ، ومصدقا به ، ومظهرا الاستبشار به ، ولا تقطع حديثهم عليهم بمرادة ولا منازعة ومداخلة واعتراض ، فان أرهقك عارض ، اعتذرت اليهم، وتخرس سمعك عن سماع ما يكرهون »(٧١) ٠

وينبغى للصاحب أن لا يرفع صوته عليهم (على أصحابه أو اخوانه)، ولا يخاطبهم الا بما يفقهون(٧٢) ٠

ولا يجب على الصاحب أن يقبض يد المساعدة والعون عن صحابه أو اخوانه ، وأن يمشى وراء أصحابه أو اخوانه مشى الأتباع ، لا مشى المتبوعين(٧٣) ٠

٢ - شروط الصحبة

(أ) ينبغى عند اختيار الصاحب أو الصديق ، عدم التسرع ، أو عدم المبادرة الى ذلك ، بل على الصاحب أن يتروى فى اختيار صاحبه ، ويلتزم بالكتاب والسنة ، ولذلك فان عبد الوهاب الشعرانى يوصى تلاميذه بعدم مبادرتهم الى المؤاخاة فى الله تعالى ، وأن يتربص كل منهم فى ذلك بالسنة(٧٤) ٠

---

(٧٠) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٨ ٠
(٧١) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٨ ٠
(٧٢) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٨ ٠
(٧٣) راجع ، احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٨ ٠
(٧٤) تنبيه المغترين ، ص ١٤٢ ٠

واختيار الصحبة أو الأخوة ، اتفاقا ، من غيرنية فى ذلك ، وتثبت فى أول الأمر ، شأن أرباب الغفلة ، الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار(٧٥) .

فالفساد بالصحبة متوقع ، والصلاح متوقع ، لذلك يرى الصوفية ، الحذر عنى اختيار الأصحاب أو الاخوان ، وأن يحكم الأمر فى ذلك ، بكثرة اللجأ الى الله تعالى ، وصدق الاختيار(٧٦) .

وعلى الجملة : فينبغى أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال : أن يكون عاقلا ، حسن الخلق ، غير فاسق ، ولا مبتدع ، ولا حريص على الدنيا(٧٧) .

(ب) فيجب على الصاحب عند اختيار أصحابه ، أن يكون من يختاره للصحبة عاقلا ، فلا خير فى صحبة الأحمق ، الجاهل ، فان عاقبة صحبته ، الفشل والوحشة والقطيعة ، والى هذا المعنى يقول على بن أبى طالب رض الله عنه :

فلا تصحب أخا الجهل واياك واياه
فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه(٧٨)

ويقول سفيان الثورى (المتوفى عام ١٦١ هـ) : « النظر الى وجه الأحمق ، خطيئة مكتوبة »(٧٩) ؛ وذلك لأن الأحمق قد يضرك ، وهو يريد نفعك واعانتك من حيث لا يدرى(٨٠) .

فالعاقل فيما يرى بعض الصوفية ، هو الذى يتجنب معاشرة أو مخالطة

---

(٧٥) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١٤٦ .
(٧٦) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١٤٧ .
(٧٧) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٠ .
(٧٨) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٠ .
(٧٩) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٠ .
(٨٠) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٠ .

المخالفين للشريعة والدين ، وهو الذى يترك مجالسة أبناء الدنيا ، والى هذا المعنى يشير أبو عبد الله بن سالم ، (المتوفى عام ٢٧٣ هـ) ، بقوله : « العاقل من تبرم بعشرة المخالفين ، وزهد فى صحبة أبناء الدنيا ؛ فانهم ان لم يشغلوه بها ، شغلوه عما هو فيه »(٨١) ٠

ولما كانت هذه هى صفات العاقل ؛ فان الصوفية يدعون الى الاقتداء بالعقلاء ومصاحبتهم ، والتأسى بهم ، فيقول أبو بكر الوراق (المتوفى عام ٢٧٩ هـ) ، ناصحا مريده : « صاحب العقلاء بالاقتداء ، والزهاد بحسن المداراة ، والحمقى بجميل الصبر »(٨٢) ٠

(حـ) ويشترط بعض الصوفية فيمن يختار للصحبة ، أن يكون حسن الخلق ، ولذلك يوصى أبو يزيد البسطامى أحد تلاميذه بحسن الأخلاق فى الصحبة ؛ حتى ان أساء اليه صاحبه ، قائلا : « اذا صحبك انسان ، وأساء عشرتك ، فادخل عليه بحسن أخلاقك ، يطيب عيشك »(٨٣) ٠

ومن حسن الخلق فيما يرى بعض الصوفية ، انتزاع الجسد على شيء من الدنيا ، من قلب الصاحب ، وايثار الصاحب أو الأخ بكل ما يقدر عليه صاحبه من أمر الدين والدنيا(٨٤) ٠

(د) وعلامة الصاحب أو الصديق على الحقيقة فيما يرى احمد الرفاعى ، أن يحب صاحبه لله ، وليس لمنفعة تجلب من ورائه ؛ وأستمع اليه وهو ينصح مريده بقوله حول هذا المعنى : « علامة الصديق ، أن يحبك لله ، فالصق به ، فان أهل المحبة قليل »(٨٥) ٠ فمن صحبك لغرض ، انقضت صحبته بانقضائه ، وصحبة العبد ، لربه ، ينبغى أن تكون ذاتية ، وذلك على

---

(٨١) طبقات الصوفية ، ص ٤١٦ ٠

(٨٢) طبقات الصوفية ، ص ٢٢٣ ٠

(٨٣) طبقات الصوفية ، ص ٧٣ ٠

(٨٤) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١٥٦ ٠

(٨٥) أحمد الرفاعى، الحكم، مطبعة شرف موسى،القاهرة، عام١٣٠١هـ ، ص١٥ ٠

حد قول محيى الدين بن عربى(٨٦) ، والى هذا المعنى يشير ابن عطاء الله السكندرى فى احدى حكمه ، بقوله لمريده : « خير من يصحبك ، من يطلبك ، لا لشئ يعود منك اليه »(٨٧) ٠

ويوضح أحمد زروق الفاسى هذه الحكمة ، فيرى أن الصحبة ان كانت لشئ يعود منه اليك فأحرى ، والصحبة بمعنى الملازمة ، على ثلاثة أنواع : أولها صحبة من يصحبك ؛ لما يعود منك اليه ، وهم عوام الخلق ، ولا خير فيها ؛ لتوقفها على غرض ، هو عين المقصود »(٨٨) ٠

(هـ) ومن شروط الصحبة أو الأخوة فيما يرى بعض الصوفية ، أن تكون بين النظراء فى الحال ، والمتقاربين فى السن والمعانى ، بأن يوجد فى أحدهما من القلب والهمة والعلم والخلق ، ما يوجد فى الآخر(٨٩) ٠ وذلك على حد قول أبى طالب المكى(٨٩) ٠

تعقيب :

أثناء بحثنا عن الدراسات التى أجريت فى علم النفس الحديث والمعاصر ، فى الصداقة والصحبة ، وشروط اختيار الصديق ، وجدنا وجه شبه بين ما يذهب اليه الصوفية من أنه ينبغى أن يختار الصديق أو الصاحب على أساسى المشابهة أو المجانسة ، وبين ما يذهب اليه علم النفس الحديث ، فى اختيار الصديق على أساس المشابهة ، فيرى (ريتشارد كوهو ، ومادى ميدو) ، أن الطيور على أشكالها تقع ، وأنك تستطيع أن تعرف الكثير عن شخص ما ، بمعرفة أصدقائه ؛ فالصداقة حب بين شخصين متكافئين ، يشتركان فى رؤية متشابهة ، وان كل صداقة تشتمل على درجة معينة من المخالطة ، ويجب أن تكون هذه الصداقة على درجة معينة من المشابهة بينها

---

(٨٦) الفتوحات المكية ، السفر العاشر ، ص ١٩٦ ٠

(٨٧) قرة العين ، حـ ٢ ، ص ١٨ ٠

(٨٨) قرة العين ، حـ ٢ ، ص ١٩ ٠

(٨٩) قوت القلوب ، حـ ٢ ، ص ٢٣٠ ٠

(أى بين الصديقين)(٩٠) ٠

كما يذهب علماء الاجتماع أيضا الى أن هناك قاعـــدتين لاختيـــــار الأصدقاء ، يختار أحدهم الآخر ، على أساس المشابهة ، وأنه يهم كل منهم أن يكون شبيه بالآخر ٠ أما القاعدة الأخرى فى اختيار الأصدقاء عندهم ، فهى أن الأصدقاء يختارون بعضهم على أســـــاس اكمال احتياجات كل منهما للآخر ٠ ويرى علماء الاجتماع أيضا أن هناك دراسات اجتماعية عن اختيار الأصدقاء ، كانت نتائجها كالآتى : الشخص يميل لصداقة أولئك الذين لهم قدرة على التفاعل الاجتماعى ، وأوائك الذين يتمتعون بقيم ومثـــل عليـــا متشابهة فى الجماعة ، وأن الشخص يختار فى صداقته من يملكون صفات محببة له ، كما يختار أيضا ، من يراهم كما لو أنه رأى نفسه ، ويختار أيضا أولئك الذين تكمل صحبتهم احتياجاته(٩١) ٠

(و) وينبغى كذلك فيمن يختار للصحبة ، أن يكون غير فاسق ، فيما يرى بعض الصوفية ، فالفاسق ، المصر على الفسق ، لا فائدة فى صحبته ؛ لأنه يصر على ارتكاب المعاصى والسيئات ، ويتغير بتغير الأغراض والأهواء، يقول الله تعالى فى حق هؤلاء الفاسقين : (ولا تطع من أغفلنـــا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه)(٩٢)٠

ويذهب أحمد الرفاعى الى أن صحبة الفساق تؤدى الى زيادة الذنب ، وتؤدى كذلك الى تسويف التوبة ، واستمع اليه وهو يوصى تلاميذه بتجنب صحبة الفاسـق : « من جلس مع الفســـاق ، زاده الله الذنب وتســـويف التـوبة »(٩٣) ٠

---

90) Kahoe, Richard, D. and Meadow, Mary Jo.; Psychology of Religion Boston, 1969, p. 236.

91) David L. Sills; International 6ncyclopedia of the Social Science; Volume 586; Macmillan Publishers; London, 1972, p. 16.

(٩٢) ســورة الكهف آية ٢٨ ٠

(٩٣) البرهان المؤيد ، ص ٦٣ ٠

(ز) ولا يجب على الصاحب أن يختار لصحبته ، المبتدع ، الذى يحدث فى الدين ما يخالف الشريعة ، سواء بالنقص أو الزيادة ؛ ففى صحبته خطر سريان الدرعة، وتعدى شؤمها اليه، فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة»(٩٤)٠

ويظهر لنا ، بندار بن الحسينى الشيرازى (المتوفى عام ٣٥٣ هـ) ، السبب فى هجر المبتدع ومقاطعته وعدم مصاحبته ، فيقول : « صحبة أهل البدع تورث الاعراض عن الحق »(٩٥) ٠

(ح) ويدعو الصوفية الى تجنب صحبة الحريص على الدنيا ؛ فان الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدرى صاحبه ، فمجالسة الحريص على الدنيا ، تحرك الحرص ، ومجالسة الزاهد ، تزهد فى الدنيا »(٩٦) ٠

ويبين لنا سفيان الثورى أن صحبة أهل الدنيا ، تفسد على الصاحب قلبه ، فهو يقول لمريده فى هذا الشأن : « اياك وما يفسد عليك قلبك ، فانما يفسد عليك قلبك ، مجالسة أهل الدنيا »(٩٧) ٠

وينصح ابراهيم بن أدهم ، مريده ، بعدم تقديم نفسه فى الدنيا على أصحابه واخوانه ، فهو يقول لمريده : « لا يكمل مقام الفقير الا برفض الدنيا، وعدم تقديم نفسه فيها على اخوانه »(٩٨) ٠

وعلى الجملة ، فانه يجب على الانسان أن يترك صحبة من همه شىء من فضول الدنيا ، يقول الله تعالى فى هذا الشأن : (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ، ولم يرد الا الحياة الدنيا)(٩٩) ٠

---

(٩٤) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٠ ٠

(٩٥) طبقات الصوفية ، ص ٤٦٩ ٠

(٩٦) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٢ ٠

(٩٧) أبو نعيم الأصفهانى ، حلية الأولياء ، دار الكتاب الوعربى ، القاهرة ، عام ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م ، المجلد السابع ، ص ٤٧ ٠

(٩٨) تنبيه المغترين ، ص ٦١ ٠

(٩٩) ســورة النجم آية ٢٩ ٠

٣ ـ آداب الصحبة

(أ) من آداب الصوفية ، فى الصحبة ، أن لا يرون لأنفسهم ملكا يختصون به ، والى هذا المعنى يشير ضياء الدين السهروردى بقوله عن الصوفية وآدابهم : « ومن آدابهم ، ألا يجرى فى حديثهم (هذا لى ، وهذا لك) ، و (لو كان كذا ، لم يكن كذا) ، ولعل ، وعسى ، ولم فعلت ، ولم لا تفعل ، وما يجرى مجراها ؛ فانها من أخلاق العوام »(١٠٠) ٠

ويقول ابراهيم بن شيبان القرميسينى : « كنا لا نصحب من يقول . نعلى » (١٠١) ٠

(ب) ويرى بعض الصوفية أن من آداب الصحبة ، تقديم صاحب الفضل ، والتوسعة له فى المجلس ؛ ليكون مرجعهم اليه ، واعتمادهم عليه(١٠٢) ٠

ويرى ضياء الدين السهروردى أن صاحب الفضل هذا ، يكون أرجحهم عقلا ، ثم أعلاهم همة ، ثم أعلمهم بالمذاهب ، ثم أسنهم ، ثم أحسنهم خلقا ، ثم أقدمهم هجرة ، ثم أتمهم أدبا ، ثم أسبقهم بلقاء المشايخ(١٠٣) ٠

ومما يحكى فى هذا الشأن ، أن على بن بندار الصوفى، ورد على أبى عبد الله ابن خفيف ، زائرا ، فتماشيا ، فقال له أبو عبد الله ، تقدم ، فقال : بأى عذر ؟ فقال : بأنك لقيت الجنيد ، وما لقيته »(١٠٤) ٠

(حـ) ومن آداب الصحبة والعشرة والمجالسة عند الصوفية ، أن يلقى

---

(١٠٠) آداب المريدين ، ص ٧٦ ٠

(١٠١) راجع ، آداب المريدين ، ص ٧٦ ، واللمع فى التصوف ، ص ٢٣٤ ، وعوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١٥٩ ٠

(١٠٢) راجع ، آداب المريدين ، ص ٧٧ ، وعوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١٦٢ ٠

(١٠٣) آداب المريدين ، ص ٧٧ ٠

(١٠٤) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١٦٢ ٠

الصديق صديقه وعدوه بوجه الرضا ، من غير ذلة لهم ، ولا هيبة منهم ، والى هذا المعنى يشير أبو حامد الغزالى ناصحا مريده ، بقوله : « ان أردت حسن العشرة ، فالق صديقك وعدوك بوجه الرضـــا ، من غير ذلة لهم ، ولا هيبة منهم »(١٠٥) ٠

ويوصى بعض الصوفية مريديهم ، اذا أرادوا حسن الصحبة والمجالسة والمعاشرة ، ببعض الآداب العامة ، والأخلاق الكريمة ، والعادات الحسنة ، فيقول الغزالى لأحد مريديه : « ليكن مجلسك هاديا ، وحديثك منظوما ، مرتبا، واصغ الى الكلام الحسن ممن حدثك ، من غير اظهار تعجب مفرط ، ولا تسأله اعادته ، واسكت عن المضاحك والحكايات ، ولا تحدث عن اعجابك بولودك ولا جاريتك ، ولا شعرك ، ولا تصنيفك ، وسائر ما يخصك »(١٠٦) ٠

(د) ولما كانت الصحبة تعنى الملازمة ، فان بعض الصوفية يحذرون من مفارقة الأصـحاب ، وينصحونهم بالحــــرص على المـــلازمة ، ويورد السهروردى البغدادى هذه الحكاية للدلالة على هذا المعنى : « صحب رجل رجلا ، ثم أراد المفارقة ، فاستأذن صاحبه ، فقال : بشرط أن لا تصحب أحدا الا اذا كان فوقنا ، وان كان فوقنا أيضا ، فلا تصحبه ؛ لأنك صحبتنا أولا ، فقال الرجل : زال عن قلبى نية المفارقة »(١٠٧) ٠

(و) ومن آداب الأصحاب فى صحبتهم ، القيام بخـــدمة الاخوان ، واحتمال الأذى منهم ، ويجب أن يخدم الاخوان ، أصـــدقهم نية وشـــفقة ، وأخلصهم ، وأقواهم قلبا ، وأكثرهم ديانة وأمانة ، وأقلهم اهتماما بنفسه وذوقه ؛ فالخدمة فى الدرجة الثانية من الشيخوخة ، كما ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال : (سيد القوم خادمهم)(١٠٨) ٠

(ز) ومن آداب الصحبة عند الصوفية ، أن يصحب الانســان ، من

---

(١٠٥) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٩ ٠
(١٠٦) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٩ ٠
(١٠٧) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١٦٤ ٠
(١٠٨) آداب المريدين ، ص ٧٨ ٠

يجانسه أو يشاكله ، ومن يستفيد منه خيرا ، ولا يصحب من يخالفه فى مذهبه ، حتى وان كان قريبا منه ، وأن يصـــحب من يثق فى دينــه وأمانته ومذهبه وورعه ، فى ظاهره وباطنه(١٠٩) .

(ح) ومن الآداب التى يجب على المريد أن يلتزم بها فى صحبته أو مجالسته ، عدم مجالسة أو مصاحبة العامة من الناس ، ويرى الغزالى أنه اذا كان لابد من ذلك ، فالأدب ، ترك الخوض فى حديثهم ، وقلة الاصغاء الى أراجيفهم(١١٠) ، والتغافل عما يجرى من سوء ألفاظهم ، وقلة اللقاء لهم ؛ مع الحاجة اليهم(١١١) .

(ط) ومن آداب الصحبة ، التى يوصى الصوفية مريديهم باتباعها ، والالتزام بها ، تجنب المزاح ، واستمع الى أبى حامد الغزالى ، يوصى مريده بقوله فى هذا المعنى : « اياك أن تمازح لبيبا أو غير لبيب ، فان اللبيب يحقد عليك ، والسفيه يجترىء عليك ؛ لأن المزاح يخرق الهيبة ، ويسقط ماء الوجه،

ويعقب الحقد ، ويذهب بحلاوة الود ، ويشين فقه الفقيه ، ويجرىء السفيه ، ويسقط المنزلة عند الحكيم ، ويمقته المتقون ، وهو يميت القلب ، ويباعد عن الرب تعالى ، ويكسب الغفلة ، ويورث الذلة ، وبه تظلم السرائر ، وتموت الخواطر ، وبه تكثر العيوب »(١١٢) .

٤ - فوائد الصحبة والمخالطة

لما كانت الصحبة تعنى المخالطة ، فان الصوفية يرتبون على المخالطة فوائد ، ومن هذه الفوائد :

(أ) التعليم والتعلم ، فلا يتصور ذلك الا بالمخالطة وصحبة العلماء ؛

---

(١٠٩) راجع ، آداب المريدين ، ص ٦٣ .

(١١٠) الأراجيف : الاكثار من الأخبار السيئة ، واختلاق الاقوال الكاذبة ، حتى يضطرب الناس منها ، أنظر المصباح المنير ، مادة (رجف) .

(١١١) احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ١٦٩ .

(١١٢) احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ١٦٩ .

لأن اعتزال العلماء وعدم مخالطتهم قبل التعلم يؤدى ذلك الى تضييع الأوقات فى الباطل ، والى هذا المعنى يشير الغزالى بقوله : « من اعتزل قبل التعلم ، فهو فى الأكثر مضيع أوقاته ، بنوم ، أو فكر فى هوس ، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها ، ولا ينفك فى أعماله بالبدن والقلب ، عن أنواع من الغرور ، يخيب سعيه ، ويبطل عمله ، بحيث لا يدرى ، ولا ينفعك اعتقاده فى الله وصفاته عن أوهام يتوهمها ويأنس بها ، وعن خواطر فاسدة تعتريه فيها ، فيكون فى أكثر أحواله ضحكة لشيطان ، وهو يرى نفسه من العباد »(١١٣) ٠

ويرى بعض الصوفية أن المحتاج الى التعليم ، ان تعلم العبادات وأنواع الطاعات ، وكان لا يتأتى منه الخوض فى العلوم الأخرى ، فليعتزل ، وان كان يقدر على التبرز فى العلوم الشرعية والعقلية ، ويستطيع الجمع بينهما ، فالعزلة فى حقه غاية الخسران(١١٤) ٠ ويشير النخعى الى هذا المعنى ، فيقول لمريده : « تفقه ثم اعتزل »(١١٥) ٠

وعلى الجملة ، فالعلم هو أصل الدين ، ولا خير فى عزلة العوام والجهال ؛ فان مصاحبتهم ومخالطتهم للعلماء ، تجعلهم من العلماء ٠

ويذهب بعض الصوفية الى أن كل عالم خاض فى الدنيا ، فلا ينبغى أن يصغى الى قوله ، بل ينبغى أن يهتم فى كل ما يقول ؛ لأن كل انسان يخوض فيما أحب ، ويدفع مالا يوافق محبوبه ، ولذلك قال الله عز وجل : (لا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ، وكان أمره فرطا)(١١٦) ٠

فالعوام من الناس ، العصاه ، أسعد حالا من الجهال بطرق الدين ، المعتقدين أنهم من العلماء ؛ لأن العامى العاصى ، معترف بتقصيره ، فيستغفر ويتوب ، وهذا الجاهل ، الظان أنه عالم ، فان ماهو مشتغل به من العلوم

---

(١١٣) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢١٠ ٠
(١١٤) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢١٠ ٠
(١١٥) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢١٠ ٠
(١١٦) احياء علوم الدين ، حـ١ ، ص٧٢ ، ٧٣ ٠والآية رقم ٢٨ من سورة الكهف٠

التى هى وسائله الى الدنيا عن سلوك طريق الدين ، فلا يتوب ولا يستغفر ، بل لا يزال مستمرا عليه الى الموت ، واذا غلب هذا على اكثر الناس – الا من عصمه الله تعالى – وانقطع الطمع من اصلاحهم ، فالأســلم لذى الدين ، العزلة والانفراد عنهم »(١١٧) ٠

ويرى بعض الصوفية أن طلاب العلم ، لا يطلبون على الحقيقة الا كلام مزخرف ؛ يستميل به العوام فى معرض الوعظ أو الجدل ، أو كــلام معقد ، يتوصل به الى افحام الأقران ، ويتقرب به الى الســلطان ، ويستعمل فى معرض المنافسة والمباهاة(١١٨) ٠ ولذلك يرى الغــزالى أن حكم العالم فى هذا الزمان أن يعتــزل ؛ ان أراد ســلامة دينه ؛ فانه لا يرى مســتفيدا يطلب فائدة(١١٩) ٠

وعلى الجملة ، فان هؤلاء الطــلاب كلهم ، يقتضى الدين والحزم ، الاعتزال عنهم ؛ فان صــودف طالب لله ، ومتقرب بالعــلم الى الله ، فأكبر الكبائر ، الاعتزال عنه ، وكتمان العلم منه »(١٢٠) ٠

(ب) الانتفاع والنفع : فالانتفاع بالناس عن طريق مخالطتهم وصحبتهم يكون بالكسب والمعاملة ؛ وذلك لا يتأتى الا بالمخالطة(١٢١) ٠

أما اذا كان الغرض من الكسب ، القيام بالمعاص والسيئات ، فان العزلة فى هذه الحالة أفضل من الماخلطة ، وأما اذا كان الغــرض من الكسب ، الصدقة ، فيرى بعض الصوفية أن المخالطة هنا تكون أفضــل من العزلة ، وحول هذا المعنى يقول أبو حامد الغزالى : « اذا اكتسب من جهة ، وتصدق به ، فهو أفضل من العزلة ؛ للاشتغال بالنافلة »(١٢٢) ٠

---

(١١٧) احياء علوم الدين ، حـ ١ ، ص ٧٣ ٠
(١١٨) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢١٠ ٠
(١١٩) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢١٠ ٠
(١٢٠) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢١٠ ٠
(١٢١) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢١٢ ٠
(١٢٢) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢١٢ ٠

والأفضل للعزلة ، فيما يرى الصوفية ، الاشتغال بالتحقق فى معرفة الله ، ومعـرفة عـلوم الشرع ، والاقبـال بكنـه الهمة على الله تعـالى ، والتجرد بها لذكر الله(١٢٣) ٠

أما النفع فهو أن ينفع (الشخص الذى يخالط الناس ويصـاحبهم) ، الناس ، أما بماله ، أو ببدنه ؛ فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة ، ففى النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب ، وذلك لا ينال الا بالمخالطة(١٢٤) ٠

(حـ) التأدب والتأديب : ويعنى الصوفية بالتأدب ان يروض المريد نفسه ويجاهدها فى تحمل أذى الناس ، وفى كسر شهواتها ، وهذه الفائدة تستفاد بالمخالطة ٠ ويورد أبو حامد الغزالى دليلا من المشاهدة والملاحظة، يثبت به صحة ما ذهب اليه فى هذا الشأن ، فهو يقول : « لهذا انتدب خدام الصوفية فى الرباطات ، فيخالطون الناس ، بخدمتهم ، (ويخالطون) أهل السوق ؛ للسؤال منهم ، كسرا لرعونة النفس(١٢٥) ٠

وأما التأديب فيما يرى الصوفية ، فيعنون به أن يروض الصوفى غيره، وهو حال شيخ الصوفية معهم، فهو لا يقدر على تهذيبهم الا بمخالطتهم»(١٢٦)٠

(د) الاستئناس والايناس : ويرى صوفية الاسلام أن ذلك هو غرض من يحضر الولائم والدعوات ، ومواضع المعاشرة والأنس وهذا يرجع الى حظ النفس فى الحال(١٢٧) ٠

ويرى الغزالى أنه قد يكون الاستئناس والايناس ، على وجه حرام ؛ بمؤانسة من لا يجوز مؤانسته ، أو على وجه مباح ، وقد يستحب ذلك لأمر الدين ؛ وذلك فيمن يستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله فى الدين ، كالأنس بالمشايخ ، الملازمين لسمت التقوى(١٢٨) ٠

---

(١٢٣) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢١٢ ٠
(١٢٤) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢١٢ ٠
(١٢٥) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢١٢ ٠
(١٢٦) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢١٢ ٠
(١٢٧) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢١٢ ٠
(١٢٨) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢١٣ ٠

ويستحب الايناس اذا كان الغرض منه ترويح القلب ؛ لتهيج دواعى النشاط فى العبادة ؛ فان القلوب اذا أكرهت عميت ، ومهما كان فى الوحدة وحشة ، وفى المجالسة أنس يروح القلب ، فهى أولى ؛ اذ الرفق فى العبادة من حزم العبادة(١٢٩) ٠

وعلى الجملة : فان المعتـــزل لا يســـتغنى اذا ، عن رفيق يستأنس بمشاهدته وبمحادثته فى اليوم والليلة ساعة ، فينبغى عليه أن يجتهد فى طلب من لا يفسد عليه فى ساعته تلك ، سائر ساعاته ، فقد قال الرســول ﷺ : (المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل) ، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء ، فى أمور الدين ، وحكاية أحوال القلب وشكواه ، وقصوره عن الثبات على الحق والاهتداء الى الرشـــد ، ففى ذلك متنفس ومتروح النفس ، وفيه مجال رحب ، لكل مشغول باصلاح نفسه(١٣٠) ٠

وهذا النوع من الاستئناس فى بعض أوقات النهار ، ربما يكون أفضل من العـــزلة ٠

(هـ) نيل الثواب وانالته : فنيل الثواب يكون بعيادة المرضى ، وحضور الدعوات ؛ من حيث أنه ادخال السرور على قلب من تزوره ، أما انالة الثواب، فهو أن يكون بفتح الباب لتعوده الناس ، للتعزية فى المصائب ، أو التهنئة على النعم ، فانهم بذلك ينالون ثوابا ، والى هذا المعنى يشير الغزالى بقوله. « أما النيل ، فبحضور الجنائز ، وعيادة المرضى، وحضور العيدين،٠٠٠وكذلك فى حضور الاملاكات والدعوات ثواب ، من حيث ادخال السرور على قلب مســـلم »(١٣١) ٠

(و) التواضع : وهو عدم التكبر والترفع على الناس ، وقد يكون الكبر سببا فى اختيار العزلة فيما يرى بعض الصوفية ، فكم من معتزل فى بيته ، وباعثه الكبر ، ومانعه عن المحافل ، أن لا يوقر أو لا يقدم ، أو يرى

---

(١٢٩) احياء علوم الدين . جـ ٢ . ص ٢١٣ ٠

(١٣٠) احياء علوم الدين . جـ ٢ . ص ٢١٣ ٠

(١٣١) احياء علوم الدين . جـ ٢ . ص ٢١٣ ٠

الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله ، وأبقى لطراوة ذكره بين الناس ، وقد يعتزل خوفا من أن تظهر مقابحه لو خالط الناس ، فلا يعتقدون فيه الزهد والاشتغال بالعبادة ، فيتخذ البيت سترا »(١٣٢) ٠

ويرى الغزالى أن علامة هؤلاء (المتكبرين) أنهم يحبون أن يزاروا ، ولا يحبون أن يزوروا ، ويفرحون بتقرب العوام والسلاطين اليهم ، واجتماعهم على بابه وطرقهم ، وتقبيلهم أيديهم على سبيل التبرك(١٣٣) ٠

والعزلة لهذا السبب ، جهل ، فيما يرى أبو حامد الغزالى : فان التواضع والمخالطة ، لا تنقص من منصب من هو متكبر بعلمه أو دينه(١٣٤) واستمع الى هذه الحكاية لسهل التسترى (المتوفى عام ٢٨٣ هـ) : نظر سهل الى رجل من أصحابه فقال له : اعمل كذا ، وكذا ، لشىء أمره به ، فقال : يا أستاذ ، لا أقدر عليه لأجل الناس ، فالتفت الى أصحابه وقال : لا ينال عبد ، حقيقة من هذا الأمر ، حتى يكون بأحد وصفين : عبد تسقط الناس من عينه ، فلا يرى فى الدنيا الا خالقه ، وان أحدا لا يقدر على أن ضره ولا ينفعه ، وعبد سقطت نفسه عن قلبه ، فلا يبالى بأى حال برونه »(١٣٥)٠

(ز) التجارب : فيرى بعض الصوفية أن التجارب تستفاد من المخالطة ، للخلق ومجارى أحوالهم ، وأن العقل الغريزى ليس كافيا فى تفهم مصالح الدين والدنيا ، وانما تفيدها التجربة والممارسة ، ولا خير فى عزلة من لم تحكمه التجارب ، فالطفل اذا اعتزل ، بقى عمرا ، جاهلا ، بل ينبغى فيما يرى أبو حامد الغزالى ، أن يشتغل بالتعلم ، ويحصل له فى مدة التعلم ما يحتاج اليه فى مدة ، التجارب ، ويكفيه ذلك ، ويحصل بقية التجارب بسماع الأحوال ، ولا يحتاج الى المخالطة(١٣٦) ٠

---

(١٣٢) احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ٢١٣ ٠
(١٣٣) احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ٢١٣ ٠
(١٣٤) احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ٢١٤ ٠
(١٣٥) احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ٢١٤ ٠
(١٣٦) احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ٢١٤ ٠

وعلى الجملة :

فاذا عرفنا فوائد العزلة وغوائلها ، تحققنا أن الحكم عليها مطلقا بالتفضيل ، نفيا أو اثباتا ، خطأ ، بل ينبغى أن ينظر الى الشخص وحاله، والى الباعث على المخالطة ، فعند ذلك يتبين الحق ، ويتضح الأفضل ، وكلام الشافعى هو فصل الخطاب ، فهو يقول حول هذا المعنى : " الانقباض عن الناس مكسبه للعداوة ، والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء ، فكن بين المنقبض والمنبسط" (١٣٧).

ولذلك يجب الاعتدال فى المخالطة والعزلة .

ويذهب علم النفس الحديث إلى أن وظيفة الصحبة أو الصداقة وأهميتها تتضح فى الشعور بالحب والمشاركة الوجدانية ، والافصاح عن الذات ،وتلقى المساعدة والتعاون ، والاكتساب والتنمية ، والتقويم والتوجيه ، والمرح والترفيه وإدخال السعادة والبهجة على الصديق .

كما يرى علم النفس الحديث أيضا ان من الخصال المرغوب فيها فى الصديق او الصاحب هى الصدق والامانة وحسن الخلق والتدعيم والاهتمام والوفاء والإخلاص والتدين والتماثل وقوة الشخصية وتوكيد الذات .(١٣٨)

---

(١٣٧) احياء علوم الدين ، جـ٢ ، ص ٢١٥.
(١٣٨) راجع ، الصداقة من منظورعلم النفس ص ١٨١ الى ص ١٨٣

الفصـــل الثـالث

الصحبة ورياضة النفس أخلاقيـا



الفصـــل الثــالث

الصحبة ورياضة النفس أخلاقيــا

١ ـ تمهيــــد :

وضحنا فى الفصل الســـابق عن الشروط التى تتوافر فيمن يختــار للصحبة والأخوة والصداقة ، وهى : أن يكون عاقلا ، حسن الخلق ، غير فاسق ، ولا مبتدع ، ولا حريص على الدنيا ٠

ثم أوضحنا بعد ذلك فوائد المخالطة ، والتى هى أحد معانى الصحبة ، وبينا أن هذه الفوائد هى : التعليم والتعلم ، والنفع والانتفاع ، والتأديب والتأدب ، والاستئناس والايناس ، ونيل الثواب ، والتجارب ٠

وفى هذا الفصل سنبين ارتباط الصحبة ولواحقها من المخالطةوالمعاشرة والمجالسة والأخوة والصداقة ، برياضة النفس من الناحيــــة الأخلاقية ، باحلال الصفات الحميدة محل الصفات الذميمة ٠

٢ ـ الصحبة والنفس الانسانية :

من القواطع التى تقطع المريد عن الوصول الى الله تعالى ومعرفته ، النفس الانسانية ، والدنيا ، والخلق ، ويرى عبد الكريم بن هوازن القشيرى:

أن من كانت صحبته مع هذه الأشياء على حــد الاضطرار ، بمقدار القوام ومالابد منه ، نجا وسلم ، ومن جاوز حد الاضـــطرار ، وانبسط فى صحبته مع شىء منذلك بموجبالشهوة والاختيار ، فليس من الله فى شىء(١) ٠

وينهى بعض الصوفية عن صحبة الراضى عن نفســه حتى وان كان

---

(١) عبد الكريم بن هوازن القشيرى ، لطائف الاشارات ، تفسير صوفى للقرآن الكريم ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة عام ١٩٧٠ م ، ط ، ص ٢٠٥ ٠

عالما ، فصحبة الجاهل الذى لايرضى عن نفسه ، خير من صحبة العالم الذى يرضى عن نفسه ، وحول هذا المعنى يوصى ابن عطاء الله السكندرى تلميذه بقوله :

(لأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه ، خير من أن تصـــحب عالما يرضى عن نفسه)(٢) ٠

ويحلل أحمد زروق كلام ابن عطاء الله السكندرى فلســـفيا ، وبأدلة عقلية ، فيرى أن السكندرى ينهى عن صحبة الراضى عن نفسه ؛ لثلاثة أوجه:

أحدها : أن الراضى عن نفسه يرى لها من الحق مالا نهاية له ، فلا يبلغ رضاه أبدا ، واذا رضى فانه يرى معاملتك معه بعض حقه ، فصحبته لعب عاجل دون فائدة ، ولا خير فى صحبة من لا يرى لك مثل الذى ترى له ٠

الثانى : أن صحبته آيلة الى الانقطاع ؛ لأنه يحب الوفاء بالحقوق ، والقيام بالكلف أبدا ، فلا يقر زلة ، ولا يقبل عثرة ، والمــرء محــل الزلل والسقوط ٠ ثم ان فعل ، رأى لنفسه بذلك أعظم مزية ، فمعاملته عبودية لا يرضاها حر لنفسه ٠

الثالث : ان الطبع يسرق من الطابع ، والمرء على دين خليله ، فصحبة الراضى عن نفسه ، يزيد فى رضاك عن نفســـك ، وصحبة الساخط عليها ، يزيد فى ذلك ، ومن لم ينصح نفسه ، لا عبرة فى صحبته(٣) ٠

ويرى ابن عطاء الله السكندرى أن (أصل كل معصية وغفلة وشهوة ، الرضا عن النفس ، وأصل كلطاعة ويقظة وعفة ، عدم الرضا منك عنها)(٤)٠

ويورد ابن عباد الرندى الأدلة العقلية على كلام ابن عطاء الله ، فيذهب الى أن الرضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة ، وعدم الرضا عنها ،

---

(٢) أحمد زروق ، قرة العين ، المكتبة العصرية ، بيروت عام ١٩٧٣ ، ص١٦٠ ٠

(٣) قرة العين ، ص ١٦٠ ، ١٦١ ٠

(٤) ابن عباد الرندى ، شرح الحــــكم العطائية ، القـــاهرة ، بدون تاريخ ، جـ ١ ، ص ٢٨ ٠

أصل الصفات المحمودة ، والرضا عن النفس يوجب تغطية عيوبها ، ويصير قبيحها حسنا ؛ وعدم الرضا عن النفس على عكس هذا ؛ لأن العبد اذ ذاك يتهم نفسه ويتطلب عيوبها ، ولا يغتر بما يظهر من الطاعة والانقياد ٠

فمن رضى عن نفسه ، استحسن حالها وسكن اليها ، ومن استحسن حال نفسه وسكن اليها ، استولت عليه الغفلة ، وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره ، فتثور حينئذ دواعى الشهوة على العبد ، وليس عنده من المراقبة والتذكر ما يدفعها به ويقهرها ، فتصير الشهوة غالبة له بسبب ذلك ، ومن غلبته شهوته وقع فى المعاصى لا محالة ، على حد قول ابن عباد الرندى(٥) ٠

وبالجملة ، من لم يرض عن نفسه ، لم يستحسن حاله ، ولم يسكن الى نفسه ، ومن كان بهذا الوصف كان متنبها للطوارق والعوارض ، وبالتيقظ والتنبه يتمكن من تفقد خواطره ومراعاتها ، وعند ذلك تخمد نيران الشهوة، فلا يكون لها عليه غلبة ولا قوة ، فيتصف العبد حينئذ بصفة العفة ، فاذا صار عفيفا ، كان مجتنبا لكل ما نهاه الله عنه ، محافظا على جميع ما أمره به ، وهذا هو معنى الطاعة لله عز وجل ٠

واذا كان ذلك كذلك ، فلا شىء أوجب على العبد من المعرفة بنفسه ، ويلزم من ذلك عدم الرضا عنها ، وبقدر تحقق العبد فى معرفة نفسه ، يصلح له حاله ، ويعلو مقامه ، فيما يرى ابن عباد الرندى(٦) ٠

وبمعرفة المريد نفسه ، يستطيع أن يعـرف عيوبها ، ويرى أبو حامد الغزالى (المتوفى عام ٥٠٥ هـ) ، أن من أراد أن يعرف عيوب نفسه ، فله أربعة طرق :

الأول : أن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس ، مطلع على خفايا الآفات ، ويحكمه فى نفسه ، ويتبع اشاراته فى مجاهدته ، وهذا شأن

---

(٥) شرح الحكم العطائية للرندى ، حـ ١ ، ص ٢٨ ٠

(٦) شرح الحكم العطائية ، للرندى ، حـ ١ ، ص ٢٨ ٠

المريد مع شيخه ، والتلميذ مع أستاذه ، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه، ويعرفه طريق علاجه(٧) ٠

أما الطريق الثانى من طرق معرفة عيوب النفس ، فهو أن يطلب الانسان صديقا ، صدوقا ، بصيرا ، متدينا ، فينصبه رقيبا على نفسه ؛ ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كره منأخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرةينبهه عليه(٨) ٠

والطريق الثالث فى معرفة عيوب النفس فيما يرى الغزالى ، هو أن يستفيد (الانسان) معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه ، فان عين السخط تبدى المساوئا ، ولعل انتفاع الانسان بعدو مشاحن ، يذكره عيوبه ، اكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ، ويخفى عنه عيوبه ، الا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو ، وحمل ما يقوله على الحسد ، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه ، فان مساوئه لابد وأن تنتشر على ألسنتهم(٩) ٠

والطريق الرابع من طرق معرفة عيوب نفس الانسان ، مخالطة الناس، فكل ما يراه مذموما بين الناس ، ينسبه لنفسه ، ويرى من عيوب غيره ، عيوب نفسه ، ويعلم أن الطباع متقاربة فى اتباع الهوى ، فما يتصف به واحد من الأقران ، لا ينفك القرين الآخر عن أصله ، أو عن أعظم منه ، أو عن شىء منه ٠ فليتفقد (الانسان) نفسه ، ويطهرها من كل ما يذمه من غيره ، وذلك فيما يرى الغزالى(١٠) ٠

وعلى العكس من ذلك ، نجد القائمين بخطوط أنفسهم ، وهم أعداء الله وأعداء أنفسهم ، فاذا أراد الله تعالى أن يصلحهم ، فانه يؤلف بين قلوبهم ، بالخلاص من أسر المكونات ، ودفع الأخطار عن أسرارهم ، واستمع الى القشيرى يصف هؤلاء الناس بعد تطهير نفوسهم وتزكيتها :

---

(٧) أبو حامد الغزالى ، احياء علوم الدين ، القاهرة عام ١٩٥٦م ، حـ ٣،ص٥٥٠
(٨) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٥٥ ٠
(٩) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٥٥ ٠
(١٠) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٥٥ ٠

(صار مقصودهم جميعا واحدا ، فأصبحوا بنعمته اخوانا ، فنعمته التى هى عصمته اياهم ، واخوانا ، أى متفقى القصد والهمة ، متفانين عن حظوظ النفس ، وقضايا البخل والشح(١١) .

وخلاصة القول : أن العبد ينبغى أن يكون لمولاه ، لا لنفسه واذا صاحب شخصا ، تكون صحبته اياه لله تعالى ، يجتهد له فى كل شىء يزيده عند الله زلفى ، وكل من قام بحقوق الله تعالى ، يرزقه الله تعالى ، علما بمعـــرفة النفس وعيوبها ، وذلك فيما يرى السهروردى البغدادى(١٢) .

واذا كان الانسان يختار الصاحب أو الصديق بارادته ، فان التوفيق فى هذا الاختيار مردود فى النهاية الى الفضل الالهى ، واستمع الى القشيرى وهو يقول حول هذا المعنى :

(من لم يســاعده التوفيق فى الصحبة ، وعاشر أناســا متمرســـين بالظواهر ، فانهم يمنعون هؤلاء من السلوك ، ولا يزالون يخاطبونهم بلسان النصح والتخويف بالعجز ، والتهديد بالفقر ؛ حتى ينقلوهم الى سبيل الغفلة، ويقطعوا عليهم طريق الارادة ، أولئك أعداء الله حقا)(١٣) .

ولما كان العدو يطلب القهر والانتقام ، والظفر ، والغلبة ، ولا يمنعه الا هلاك عدوه ، أو ما قرب من الهلاك ، كان حتما على الانسان العاقل زوال عداوته ؛ اذ العداوة توجب فوت الراحة ، وتؤدى الى الهلاك ، وذلك لا يرضى عليه الشرع ولا العقل ، فلا بد من ازالتها شرعا وعقلا .

وازالة العداوة فيما يرى تلميذ ابن سبعين(١٤) ، شارح رسالة العهد ،

---

(١١) لطائف الاشارات ، حـ ١ ، ص ٢٧٩ .

(١٢) السهروردى البغدادى ، عوارف المعارف ، مفصل على هامش احياء علوم الدين ، مكتبة محمد على صبيح ، القاهرة ، ١٩٥٦ م ، حـ ٤ ، ص ١٥٨ .

(١٣) لطائف الاشارات ، حـ ١ ، ص ١٢٥ .

(١٤) راجع عن حياة هذا الصوفى الفيلسوف ، لأســـتاذنا الدكتور أبو الوفا التفتازانى ، ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٧٢ .

تكون بالتخلق ، والاحتمال ، والاحسان ، وذلك الاحسان يؤدى الى انقلاب عداوته صحبة ، ومنافرته ألفة ، وهذا هو الصلـح فى قوله (يقصد قول ابن سبعين) ، والسلم للعدو سلامة) ؛ فانه قد سلم من أن يهلك أو تهلك ، وسلم من الاشتغال فى ملاحظة الأغيار ، وسلم من نقص الانتصار ، وشؤم الحظ النفسانى ، فقد سلم دينه وطريقه ، وثبت كماله ، وتخلقه بالرحمانية المختصة بالسعداء ، والموجودة فى الأولياء ، فقد سلم طريق سعادته ، وزالت العداوة والضدية من عدوه ، بالاحسان ، وأمن من مكره ، وسلم من خوفه فى الدنيا ، وقد ثبتت سلامته فى الدنيا والآخرة ، ونقل عـدوه من المهالك وطريق الأشقياء ، وسلم المتخلق بالاحسان نفسه وعدوه من آفات الدنيـــا والآخرة ؛ بصلحه واحسانه ، وهذا تصريف عظيم ، وفضل عميم ، وحكمة بالغة ، وهى المراد من قوله تعالى :

(ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم)(١٥) ٠

ومما يفسد على الانسان قلبه ، صحبة اخوان الشياطين ، وأهل الدنيا، فانهم ينفقون أموالهم فى ارتكاب المعاصى والذنوب التى تقطعه عن الوصول الى الله ، وحول هذا المعنى يحذر سفيان الثورى (المتوفى عام ١٦١ هـ) ، مريده على بن الحسن السليمى بقوله :

(اياك وما يفسد عليك قلبك ، فانما يفسد عليك قلبك مجالســة أهــل الدنيا ، وأهل الحرص ، واخوان الشياطين ، الذين ينفقون أموالهم فى غير طاعة الله)(١٦) ٠

ويعرف القشيرى (أخ الشيطان) بأنه الشخص الذى كلما دعته هواتف

---

(١٥) سورة فصلت آية ٣٤ ، وراجع عبد الحق بن سبعين ، الرسائل ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة عام ١٩٦٥م ، ص٩٨ ٠

(١٦) راجع أبو نعيم الأصفهانى ، حلية الأولياء ، دار الكتاب العربى ، القاهرة علم ١٩٧م ، المجلد السابع ، ص ٤٧ ٠

الحظوظ ، يسارع الى الاجابة طوعا ، واذا قادته دواعى الحق سبحانه ، يتكلف شيئا فشيئا(١٧) ٠

وبالجملة ، فاخوان الشياطين هم المبـــذرين ، وانهم كانوا اخـــوان الشياطين ؛ لأنهم أنفقوا على هواهم ، وجـــروا فى طـــريقهم على دواعى الشياطين ووساوسهم ، ولما أفضى بهم ذلك الى المعـــاصى ، فقـــد دعاهم الله تعالى باخوان الشياطين(١٨) ٠

ودواعى الشياطين ووساوسهم ، هى الخواطر الباعثة على الشر ، المذمومة ، ويرى الغزالى أن أكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها، فامتلأت بالوساوس ، والداعية الى ايثار العاجلة ، واطراح الآخرة ، وأن مبدأ استيلائها ، اتباع الشـــهوات والهوى ، ولا يمكـــن فتحها بعـــد ذلك الا بتخلية القلب عن قوت الشيطان ، وهو الهوى والشهوات ، وعمارته (أى القلب) بذكر الله تعالى ، الذى هو مطرح أثر الملائكة(١٩) ٠

ويذهب صوفينا أبو حامد الغزالى الى أن الخواطر من أخص الآثار الحاصلة فى القلب ؛ فان الانسان اذا أدرك بالحواس شيئا ، حصل منه أثر فى القلب ، وكذلك اذا هاجت الشهوة مثلا ؛ بسبب كثرة الأكل ، وبسبب قوة فى المزاج ، حصل منها فى القلب أثر – وان كف عن الاحســـاس – ؛ فالخيالات الحاصـــلة فى النفس تبقى ، وينتقل الخيـــال من حال الى حال آخر(٢٠) ٠

وهذه الخواطر ، سميت بذلك ؛ من حيث أنها تخطر ، بعد أن كان القلب غافلا عنها ، والخواطر هى المحركات للارادات ، فان النية والعزم والارادة انما تكون بعد خطور المنوى بالبال لا محالة ، فمبدأ الأفعال الخواطر ، ثم

---

(١٧) لطائف الاشارات ، حـ ١ ، ص ١١٣ ٠

(١٨) لطائف الاشارات ، حـ ٤ ، ص ١٧ ، ويقول تعالى : (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا) ، سورة الاسراء آية ٢٦ ، ٢٧ ٠

(١٩) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٤ ٠

(٢٠) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٣ ٠

الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء (أعضاء وجسم الانسان)(٢٠) .

وما يقوله الغزالى هنا ، يشبه موقف علم النفس الحديث من الفعل الارادى وخطواته ، فعندما يستأثر أمر ما ، باهتمام شخص ، بأن يكون لهذا الأمر صلة برغبة ؛ لداع من الدواعى ، يعقد العزم على تنفيذ هـذا الأمر ، والعزم هو عقد النية على تنفيذ الرأى النهائى ، بعد توطين النفس على القيام بالأمر على ما قد يكون فيه من تضحية(٢٢) .

ويرى الغزالى أن مصادمة الخواطر الباعثة على الشر ، قد علمت ؛ ودل ذلك على أنه عن سبب لا محالة ، وعلم أن الداعى الى الشر المحذور فى المستقبل (عدو) ، فقد عرف العدو لا محالة ، فينبغى أن يشتغل (الانسان) بمجاهدته(٢٣) .

وقد عرف الله عداوة الشيطان فى مواضع كثيرة من كتابه ؛ ليؤمن به ، ويحترز عنه ، فقال تعالى : (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، انما يدعو حزبه ، ليكونوا من أصحاب السعير) (٢٤) .

(ألم أعهــد اليكم يا بنى آدم ألا تعبــدوا الشـيطان ، انه لكم عدو مبين)(٢٥) .

ويوضح لنا بعض الصوفية طريق الخلاص من الشيطان ، وحول هذا المعنى يوصى الغزالى مريده بقوله :

(ان أردت الخلاص من الشيطان ، فقدم الاحتماء بالتقوى ، ثم أردفه بدوام الذكر ، يفر الشيطان منك)(٢٦) .

---

(٢١) راجع احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٣ .

(٢٢) راجع ، الدكتور يوسف مراد ، مبادىء علم النفس العام ، دار المعارف القاهرة ، عام ١٩٧٨ م ، ص ٣٦٠ .

(٢٣) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٥ .

(٢٤) سـورة فاطر آية ٦ .

(٢٥) سورة يس آية ٦١ .

(٢٦) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٣٣ .

ويرى بعض الصوفية أن التقوى ، ترك معاصى الله ، على نور من الله ؛ مخافة عقاب الله عز وجل ، وحقيقتها ، فى الجوارح ، القيام بالحق وترك المعاصى ، وفى الضمير ، ارادة الديان (أى الله تعالى) فى الفرض ، واخلاص العمل له فى النفل(٢٧) ٠

وهكذا كان يربى شيوخ الصوفية مريديهم على أن يرى كل مريد صاحبه فى مقام التقوى ، ومما يؤكد ذلك ، هذه الحكاية التى يوردها أبى الهدى الصـيادى :

(سأل أحمد الرفاعى أحد تلاميذه ، واسمه صالح بن بكران ، وكان لصالح صاحب له يسمى بدر ، كيف رأيت بدرا الآن ؟ فقال : ياسيدى ، رأيته فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ببركتك ، فقال له : أى صالح ، جزاك الله خيرا ، عن ربك وعن نبيك وعن شيخك وعن أخيـك ، فمثلك من ترجى صحبته ، وتصفو مودته ، وتصلح أخوته فى الدنيا والآخرة ، أى صالح ، أنت عملت بقول الله سبحانه وتعالى : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو ، الا المتقين)(٢٨) ٠

والألفة من أهم خصائص الصحبة ، ويرى حمدون القصار (المتوفى عام ٢٧١ هـ) ، أن « أصل رفع الألفة من بين الاخوان حب الدنيا »(٢٩) ، ولذلك ينصح السهروردى البغدادى (المتوفى عام ٦٣٢ هـ) تلميذه بترك صحبة من همه شىء من فضول الدنيا ، قال الله تعالى : (فأعـــرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا)(٣٠) ٠

والسبب فى ترك صحبة أبناء الدنيا ، أن الدنيـــا عدوة لله ، وعدوة

---

(٢٧) الحارث المحاسبى ، الرعاية لحقوق الله ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٣١ ٠

(٢٨) ســورة الزخرف آية ٦٧ ٠

(٢٩) أبو عبد الرحمن السلمى ، طبقات الصوفية ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٩٨٦ م ، ص ١٢٥ ٠

(٣٠) عوارف المعارف ، جـ ٤ ، ص ١٥٨ ، والآية ٢٩ من سورة النجم ٠

لأولياء الله ، وعدوة لأعداء الله ، أما عداوتها لله ؛ فانها قطعت الطريق على عباد الله ؛ ولذلك لم ينظر الله اليها منذ خلقها ، وأما عداوتها لأولياء الله ، عز وجل ؛ فانها تزينت لهم بزينتها ، وعمتهم بزهوتها ونضـــارتها ، حتى تجرعوا مرارة الصـــبر فى مقاطعتها ، وأما عداوتها لأعـــداء الله ؛ فانها استدرجتهم بمكرها وكيدها ؛ فاقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها وعولوا عليها ، فخذلتهم أحوج ما كانوا اليها ؛ فاجتنبوا منها حسرة تنقطع دونها الأكباد ، ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد ؛ فهم على فراقها يتحسرون ، ومن مكايدها يستغيثون(٣١) ٠

٣ ـ الصحبة ومجاهدة النفس :

يرى صوفية الاسلام أن على المريد ، اذا أراد أن يمتنع عن المعاصى والشهوات ، أن يجاهد نفسه فى قمع هذه الشهوات ؛ ولذلك سئل أبو العباس وقاسم السيارى (المتوفى عام ٣٤٢ هـ) : بم يروض المريد نفسه ؟ وكيف يروضها ؟ فقال :

بالصبر على الأوامر ، واجتناب النواهى ، وصحبة الصالحين ، وخدمة الرفقاء ، ومجالسة الفقراء »(٣٢) ٠

ولما كان من أهم خصائص الصحبة ، المشابهة ، فان أحمد الرفاعى (المتوفى عام ٥٧٨ هـ) ، يوصى مريده بمجاهدة نفسه ؛ ليكون من الفقراء (أى الصوفية) ، ويكون شبيها بهم ، واستمع اليه وهو يقول له : « جاهد نفسك لكى تكون من الفقراء ، وكبير شبيها بهم وفى صورتهم ، فقد ورد فى الحديث الشريف ، قال رسول الله ﷺ (من تشبه بقوم فهو منهم ، ومن أحب قوما ، حشر معهم)(٣٣) ٠

---

(٣١) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ ٠

(٣٢) طبقات الصوفية ، ص ٤٤٤ ٠

(٣٣) أبو الهدى الصيادى ، قلادة الجواهر ، دار الكتب العلمية ، بيروت عام ١٩٨٠ ، ص ١٥٦ ٠

ولمجاهدة المريد لنفسه وسائل متعددة ، منها :

(أ) رياضة النفس من الناحية الأخلاقية ، باحلال الصفات الحميدة محل الصفات الذميمة ٠

(ب) الرياضات النفسية العملية ، كالذكر ، والسماع ، والصمت والسهر ، وغير ذلك ٠

(حـ) الترقى فى المقامات والأحوال ، وهو يرتبط بالصحبة ٠

وفى كل الأمور ، يجب على المريد اختيار مايعود عليه من صحبته بالخير ، من التمسك بالأخلاق الفاضلة ، والتخلى عن المعاصى والشهوات ، وحول هذا المعنى يقول أبو يزيد البسطامى (المتوفى عام ٢٦١ هـ) : « لا يعرف نفسه من صحبته شهوة »(٣٤) ٠

ولما كان من أخص معانى الصحبة ، الملازمة والاتباع ، فان حمدون القصار (المتوفى عام ٢٧١ هـ) يوصى مريده بملازمة صاحب الخصال الحميدة وعدم مفارقته ، فيقول له : (من رأيت فيه خصلة من الخير فلا تفارقه ؛ فانه يصيبك من بركاته)(٣٥) ٠

أما صحبة المبطلين والتقرب منهم ، فهى من أهم علامات الركون الى الباطل من الأقوال والأفعال ، وحول هذا المعنى يقول شاه الكرمانى (صاحب النخشبى) : « علامة الركون الى الباطل ، التقرب من المبطلين »(٣٦) ٠

ويذهب بعض الصوفية الى أن الصاحب ، أو الصديق ، أو الأخ فى الله ، هو من تسلم معه ، أما من لا تسلم معه ، فهو عدوك ؛ لأنك تتعرض بمصاحبة من لا تسلم معه لغضب الله تعالى ، واستمع الى الحارث بن أسد المحاسبى وهو يوصى مريده باختيار الصاحب على الحقيقة بقوله :

---

(٣٤) طبقات الصوفية ، ص ٧ ٠
(٣٥) طبقات الصوفية ، ص ١٢٨ ٠
(٣٦) طبقات الصوفية ، ص ١٩٣ ٠

« ان أدنى ما يستحق الأخوة فى الله عز وجل ، من تسلم معه دون أن تغنم معه ، ومن لا تسلم معه فهو عدو لك فى دينك - وان سميته صديقا ، أو صاحبا ، وأخا فى الله عز وجل - فكيف يكون صاحبا ، وأخا فى الله عز وجل ، من تتعرض بمجالسته ومحادثته لغضب الله عز وجل ؟ ؛ لأنك لا تسلم معه أن تتكلم بما يكره الله عز وجل »(٣٧) ·

ويورد المحاسبى دليلا نقليا يثبت به ما ذهب اليه ، فهو يقول لتلميذه « ألم تسمع الى حديث محمد بن النصر الحارثى ان الله عز وجل أوحى الى موسى عليه السلام : يا موسى ، كن يقظانا ، مرتادا لنفسك أخدانا ، فكل خدن لا يواتيك على مسرتى ، فلا تصحبه ، فانه لك عدو ، وهو يقسى عليك قلبك ، فمن كان هكذا ، فهو لك عدو - وان سميته أخا فى الله وصاحبا - فوضعت عليه اسما لا يستحقه ، ويستحق ضده ، وهى العداوة ، وكيف يكون أخا فى الله عز وجل أو صاحبا فى الله عز وجل ، من يعصى الله عز وجل به ومن أجله ؟(٣٨) ·

والصاحب أو الصديق الذى هو أكثر ضررا فى الدين ، من كان السبب فى معصية الله تعالى ، ويورد المحاسبى دليلا نقليا يؤكد هذا المعنى ، حيث يقول لتلميذه ناصحا :

(مثل صاحب السوء كمثل صاحب الكير ، ان لم يحرقك بشرره ، يعبق بك من ريحه)(٣٩) ·

وصاحب السوء هذا ، يدعى أنه مثلك وشكلك ، فيستريح قلبك اليه ، ويغفل قلبك معه ، حتى يعصى الله عز وجل ، وأنت غافل لا تذكر الله عز وجل، أو تذكره ولا تبالى ؛ لغلبة الهوى فيه وفى محادثته ، وهو من مكائد ابليس وحبائله ، يحبلك به ؛ حتى يوقعك فى حبائله ؛ لأنه شكلك وأنيسك ومثلك(٤٠) ·

---

(٣٧) الرعاية لحقوق الله ، ص ٢٦٤ ·

(٣٨) الرعاية لحقوق الله ، ص ٢٦٥ · والأخدان : جمع خدن ، وهو الصديق ، انظر المصباح المنير ، مادة خدن ·

(٣٩) الرعاية لحقوق الله ، ص ٢٦٦ ·

(٤٠) الرعاية لحقوق الله ، ص ٢٦٥ ·

ولكى يبرهن المحاسبى على صحة قوله هذا ، أورد هذا الدليل الذى أستقاه من المشاهدة ، ومن ملاحظة الطبيعة ، واستمع اليه وهو يخاطب تلميذه بقوله :

« ألا ترى أن الصياد لا يحتال للغربان ؛ فيضع شباكا ؛ ليصيدها به (يقصد بالشباك) ، من العصافير ، ولا يحتال للعصافير بالغربان ، فانما يحتال فينصب لكل طير من صنفه وشكله ؛ لأن الشكل بالشكل يألف ، فعليه يقع ، وبه يصطاد(٤١) ٠

ومما يؤكد قول المحاسبى ، كتاب أبى الدرداء الى سليمان الفارسى ، الذى يتضمن نفس ما ذهب اليه المحاسبى ، حيث يقول أبو الدرداء : « أما بعد : فان يكن البدن من البدن بعيدا ، فان الروح من الروح قريب ، وطير السماء على شكله من الأرض يقع(٤٢) ٠

ويذهب الحارث المحاسبى الى أن ابليس هو الذى يحرك قلب العبـــد بالدعاء الى لقاء رفاق السوء ، فهو يقول لمريده « وكذلك عدوك ابليس ، لما علم أنك نافر من أهل البدع ، ومن الفساق ، ومن مؤانسة العوام ، حرك قلبك بالدعاء الى لقى الأشكال والالف بهم ، وحب محادثتهم ، فلما التقيتما على الحب والمؤانسة ، زال عن قلبك الحذر ، كما يحذر من المبتدع والفاسق، وأنس قلبك به ، واستراح اليه »(٤٣) ٠

(أ) ويوصى المحاسبى تلميذه بصحبة الأمين ، وهو يرى أنه لا أمين الا العبد الذى يخشى الله تعالى ، واذا غفل المريد عن الله لحظة ، نبهه الى ذلك ، وحثه على ذكر الله ، والندم والتوبة على ما بدر منـــه من اللغو ، فيقول المحاسبى :

« احذر صديقك ، الا الأمين من الأقوام ، ولا أمين الا من خشى الله عز وجل ؛ اذا اغفلت نبهك ، فاذا لقيته ازددت سلامة ، فان كنت فى لغو ،

---

(٤١) الرعاية لحقوق الله ، ص ٢٦٦ ٠

(٤٢) الرعاية لحقوق الله ، ص ٢٦٦ ٠

(٤٣) راجع ، الرعاية لحقوق الله ، ص ٢٦٦ ٠

صرفك الى ذكر ، وأن كنت متكلما بما يكره الله عز وجل ، نبهك عن ذلك ، ونبهك له ، فاذا نبهك لما تعلم أنه لا يحل لك ، ندمت عليه وتبت منه(٤٤) .

واذا كان المحاسبى يوصى مريده بصحبة الأمين ، فانه يأسف على فقد هذه الصحبة فى أيامنا هذه ، فهو يقول حول هـــذا المعنى : « فقدنا ثلاثة أشياء لا نكاد نجدها الى الممات ؛ حسن الصيانة ، وحسن القول مع الديانة ، وحسن الاخاء مع الأمانة »(٤٥) .

ويرى بعض الصوفية أن الأمانة من الأخلاق الفاضلة ، وأن صحبة الأمين ، تحمل العبد على الصدق فى القول والعمل ، والى هذا المعنى يشير أبو عثمان سعيد بن سلام المغربى (المتوفى عام ٣٧٣ هـ) ، ناصحا مريده بقوله : « لا تصحب الا أمينا أو معينا ، فان الأمين يحملك على الصـــدق ، والمعين يعينك على الطاعة »(٤٦) .

والأمناء يؤتمنون على الأســـرار ، ولما كان من لوازم الصـــحبة ، المجالسة ، فان أبو عبد الله الروذبارى يذهب الى أنه ليس كل من يصلح للمجالسة يصلح للمؤانسة ، وليس كـــل من يصلح للمؤانســة يؤتمن على ا لأسرار ، ولا يؤتمن على الأسرار الا الأمناء(٤٧) .

(ب) ويدعو الصوفية أصحابهم من المريدين والسالكين الى أن يزنوا حركاتهم وأقوالهم بميزان الشريعة ، ويذهب السهروردى البغدادى (المتوفى عام ٥٦٣ هـ) الى أن الذى يحمل الصاحب على أن يزن حركته وقوله بميزان الشرع ، التقوى ، واستمع اليه وهو يقول فى هذا المعنى : « تقواه (أى الصاحب) ، تحمله على أن يزن حركته وقوله بميزان الشرع والعدل(٤٨) . ويقتضى الأمر من المريد — اذا أراد أن يزن أخلاقه بميزان الشريعة ، أن تكون

---

(٤٤) الرعاية لحقوق الله ، ص ٢٦٧ .
(٤٥) حلية الأولياء ، المجلد العاشر ، ص ٧٥ .
(٤٦) طبقات الصوفية ، ص ٤٨٢ .
(٤٧) طبقات الصوفية ، ص ٤٩٩ .
(٤٨) عوارف المعارف ، حـ ٣ ، ص ٨١ .

أخلاقه موافقة للكتاب والسنة ، ويلزمه أول ما يلزم ، العلم بأحكام الشريعة، وهو العلم الذى به تعرف العبادات ، والحلال والحرام ، وهو علم الأحكام ، حتى يتخلص من الأخلاق الذميمة ، ومن الباطل من الأعمال ، ولا يتم ذلك فيما يرى الصوفية ، الا بمتابعة الرسول ﷺ ، فيما جاء به من الأفعال والأقوال والأخلاق ، وصحبته ، وصحبة الأولياء ، واسمع الى أحمد الرفاعى، وهو يقول فى نفس هذا المعنى : « من صحت صحبته مع النبى ﷺ ، اتبع آدابه وأخلاقه وشريعته وسنته ، ومن صحت صحبته مع الأولياء ، اتبع سيرتهم وطريقتهم ، وتأدب بآداب طريقهم ، ومن سقط من هذه الوجوه ، فقد سلك سبيل الهالكين »(٤٩) ٠

وملازمة الكتاب والسنة ، واتباع ما جاء فيهما من الأخلاق الحميدة ، وحسن صحبة الرفقاء ، هو أصل من أصول الطريق الصوفى ، يقول أبو القاسم بن محمد النصراباذى (المتوفى عام ٣٦٧ هـ) ، « أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع ، وتعظيم حرمات المشايخ ، ورؤية أعذار الخلق ، وحسن صحبة الرفقاء ، والقيام بخدمتهم »(٥٠) ٠

ويذهب عبد الوهاب الشعرانى (صاحب الطبقات الكبرى) ، الى القول بأن السلف الصالح كانوا يحثون الناس ، لا سيما أصحابهم — على التقيد بالكتاب والسنة ، واجتناب البدع ، ويشددون فى ذلك »(٥١) ٠

(حـ) ويدعو الصوفية مريديهم الى التحلى بالأخلاق الفاضلة ، والتخلى عن الأخلاق الرذيلة ، فالاخلاص من الأخلاق الحميدة ، وله علامة تدل عليه . ولذلك سئل ذو النون المصرى (المتوفى عام ٢٤٥ هـ) ، ما علامة الاخلاص ، فقال : اذا لم يكن فى عملك صحبة المخلوقين ، ولا مخافة ذمهم ، فأنت مخلص(٥٢) ٠وهذا يعنى أن علامة الاخلاص صحبة الله تعالى دون المخلوقين٠

---

(٤٩) راجع قلادة الجواهر ، ص ١٩٤ ٠

(٥٠) طبقات الصوفية ، ص ٤٩١ ٠

(٥١) عبد الوهاب الشعرانى ، تنبيه المغترين ، مكتبة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة عام ١٣٩٠ هـ ، ص ١١ ٠

(٥٢) حلية الأولياء ، حـ ٩ ، ص ٣٧٨ ٠

ويرسى بعض الصوفية قاعدة هامة بالنسبة للاخلاص ، وهى أن من تكلم فى الاخلاص ، ولم يطالب نفسه بذلك ، ابتلاه الله بهتك ستره عند اخوانه وأقـــرانه(٥٣) ٠

والاخلاص عند الصوفية هو استواء الغيب والشـــهادة ، واللســـان والقلب ، والسر والعلانية ، والجماعة والخلوة ، ويرى الغزالى أن الاختلاف والتفاوت فى شىء من ذلك ، ممازقة فى المودة ، وهو دخل فى الدين،ووليجة فى طريق المؤمنين ، ومن لا يقدر من نفسه على هذا ، فالانقطاع والعـزلة أولى به من المؤاخاة والمصاحبة(٥٤) ٠

ومما يضاد الاخلاص ، الرياء ، وهـو من الأخـلاق الذميمة ، ويعنى الصوفية بالرياء ، طلب بذل الجاه والمنزلة فى قلوب العباد ٠

ومن أنواع الرياء فيما يرى الغزالى ، المراءاة بالأصحاب ، والزائرين والمخالطين ، ويضرب الغزالى أمثلة لهذا النوع من الرياء ، بقوله : « كالذى يتكلف أن يستزير عالما من العلماء ؛ ليقال : ان فلانا قد زار فلانا ، أو عابدا من العباد ؛ ليقال : ان أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون اليه ، أو ملكا من الملوك ، أو عاملا من عمال السلطان ؛ ليقال : انهم يتبركون به ؛ لعظم رتبته فى الدين ، وكالذى يكثر ذكر الشيوخ ؛ ليرى أنه لقى شيوخا كثيرة ، واستفاد منهم ، ويباهى بشـــيوخه ، ومباهاته ومراءاته تترشح منه عنـــد مخاصمته ، فيقول لغيره ومن لقى من الشيوخ : وأنا قد لقيت فلانا وفلانا ، وزرت البلاد ، وخدمت الشيوخ ، وما يجرى مجراه ٠ فهذه مجامع ما يرائى به المراءون ، وكلهم يطلبون بذلك ، الجاه والمنزلة فى قلوب العباد(٥٥) ٠

والمباهاة بالدنيا من الرياء ، ومنه المباهاة بالبناء ، فينفق ، (الانسان) ما لو كان اليه وحده ، ما أنفقه ، ولكن لمن قارب من الجيران أو من الأقارب والأصحاب والأشكال منأهلعمله ومثله ، فأنفق من النفقة أكثر مما لو كان

---

(٥٣) طبقات الصوفية ، ص ٢٠٥ ٠

(٥٤) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٦٠ ٠

(٥٥) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٥٨ ٠

يريد بالبناء نفسه ، فأنفق ؛ لمباهاة أضعاف ذلك ؛ لئلا يعلوه غيره ؛ ليكون هو العالى عليه(٥٦) ·

والرياء يبعث على المباهاة بالعلم ، فالمرائى بالعلم ، يعرف غيره أنه أعلم منه ، واستمع الى الحارث بن أسد المحاسبى ، وهو يشير الى هذا المعنى بقوله : « الرياء يبعث على المباهاة بالعلم ؛ وذلك بكثرة الحفظ له ، والمواظبة عليه ، وكثرة عدد من لقى من المحدثين ، والمبادرة الى الجواب حين يسأل هو أو غيره ، يحب بذلك أن يصيب الحق ؛ ليعلو ، أو ليعلم أنه فوقه ، ويعلم غيره أنه أعلم منه ، ويبادر الى ذكر الحديث ؛ ليعلم صاحبه انه أعلم منه ، وان ذكر صاحبه حديثا ، يخبر أنه يعرفه ؛ مباهاة ؛ ليفوقه »(٥٧) ·

ويذهب بعض الصوفية الى أنه اذا عمل الانسان عملا يحمده الناس فيه ، فان ذلك يعتبر رياء ، فان العمل لأجل الناس رياء ، وترك العمل لأجل الناس شرك ، وهو أن لا يحب العبد أن يعمل عملا الا فى محل يحمده الناس فيه ، فاذا عمل عملا لم يعلم به غير الله ، لم يقنع نفسه به ، حتى يغلب على قلبه الطلب لعلم غيره من الناس والأصحاب ، ويطلعوا عليه ؛ فيرتاح قلبه لذلك، وحول هذا المعنى يقول الفضيل بن عياض (المتوفى عام ١٣٧ هـ) لمريده ناصحا : « العمل لأجل الناس رياء ، وترك العمل لأجل الناس شرك ، والاخلاص أن يعافيك الله منهما »(٥٨) ·

ويحذر بعض الصوفية من صحبة من يمدح انسان بخلاف ماهو عليه ، أو بغير ما فيه ؛ فانه اذا غضب عليه ، ذمه بما ليس فيه ، واستمع الى أبى بكر الوراق ، وهو ينصح مريده قائلا : « لا تصحب من يمدحك بخلاف ما أنت عليه ، أو بغير ما فيك ، فانه اذاغضب عليك ، ذمك بما ليس فيك »(٥٩) ·

---

(٥٦) الرعاية لحقوق الله ، ص ١٨٥ ·
(٥٧) الرعاية لحقوق الله ، ص ١٨٥ ·
(٥٨) تنبيه المغترين ، ص ١٧ ·
(٥٩) طبقات الصوفية ، ص ٢٢٧ ·

وتشبه عملية ذم الصاحب بما ليس فيه من العيوب ؛ نتيجة لانفعال الغضب ، ما يسمى فى علم النفس الحديث ، « بالاسقاط » ، والاسقاط من العمليات العقلية اللاشـــعورية ، الناتجة عن كبت الانفعالات ، وبها يحمى الانسان نفسه ؛ بالصاق عيوبه بالغير ، وبصورة مكبرة(٦٠) ٠

وعلامة المرائى ، فيما يرى بعض الصوفية ، حب المدح والحمد والثناء ، على طاعة الله عز وجل ، والى هذا المعنى يشير عبد الوهاب الشعرانى بقوله: « كان اياس بن معاوية أخا ، لابراهيم التميمى ، وكان كل منهما لا يثنى على الآخر من ورائه ، ويقول : الثناء معدود من الجزاء ، وأنا لا أحب نقص ثواب أخى ، بالثناء عليه بين الناس »(٦١) ٠

وليس من الرياء فيما يرى بعض الصوفية ، أن يحدث الرجل اخوانه ببعض ما يقوى عليه من العمل ؛ ليحثهم على حسن أدائه ، فيرى الحارث المحاسبى أنه قد تقدم فى ذلك رجال صالحون ، منهم سعد بن معاذ ، حيث قال : « ما صليت صلاة منذ أسلمت ، فحدثت نفسى بغيرها »(٦٢) ٠

وعلاج الرياء فيما يرى بعض الصوفية ، الاخفاء ، فعلى المريد أن يعود نفسه اخفاء العبادات والطاعات ؛ حتى لا تنازعه نفسه الى طلب علم غير الله بهذه العبادات والطاعات ، ويشير عبد الوهاب الشعرانى الى هذا المعنى بقوله : « لا تسأل أخاك عن صيامه ؛ فانه ان قال : أنا صائم ، فرحت نفسه بذلك ، وان قال : أنا غير صائم ، حزنت نفســـه ، وكلاهما من عـــلامات الرياء »(٦٣) ٠

وقد كان الاخلاص من أخلاق الرسول ﷺ ، والسلف الصالح ، فمن أخلاقهم : كثرة اخلاصهم فى علمهم وعملهم ، وخوفهم من دخول الرياء فى ذلك ، والى هذا المعنى يشير محمد بن المنكدر بقوله : « أحب الاخوان أن

---

(٦٠) راجع فيما يختص بالاسقاط ، من العمليات العقلية اللاشعورية ، سعد جلال (الدكتور) ، المرجع فى علم النفس ، دار المعارف ، القاهرة عام ١٩٦٦ ،ص٠٣٨٣

(٦١) تنبيه المغترين ، ص ١٣ ٠

(٦٢) الرعاية لحقوق الله ، ص ٢١٩ ٠

(٦٣) تنبيه المغترين ، ص ١٣ ٠

يظهر أحدهم السمت الحسن بالليل ، فانه أشرف من سمت النهار ؛ لأنه فى النهار يراه الناس ، وفى الليل يكون لرب العالمين »(٦٤) ٠

(د) ومن الأخـــلاق المذمومة كذلك ، الكبر ، وهو رؤية النفس على الاخوان ، ويحذر بعض الصوفية من ذلك ، والى هذا المعنى يشير أحمـــد الرفاعى ناصحا مريده بقوله : « اياك ورؤية نفسك على الفقراء والاخوان ، فمن رأى نفسه على الاخوان ، لا تقال له عثرة ، ولا يساعده أحد »(٦٥)٠

ويورد أحمد الرفاعى دليلا من المشـــاهدة والتجربة ، يثبت به صحة ماذهب اليه ، فيقول : « أنظر الى النملة لما رفعت رأســـها ، وأشرفت على الجيران ؛ جعل الله ثقل حملها عليها ، ولو حملت مهما حملت ، لا يساعدها أحد ، وانظر الى شجرة اليقطين ، لما اتضعت وألقت خدها على الأرض ، كيف جعل ثقل حملها على غيـــرها ، ولو حملت ، مهما حملت ، لا تحس به »(٦٦) ٠ فالانسان المتكبر ، مهما عظم عنده قدره ، بالاضافة الى غيره ، حقر من دونه وازدراه ، وأقصاه عن نفسه ، وأبعده ، وترفع عن مجالسته ومؤاكلته ، ورأى أن حقه أن يقوم ماثلا بين يديه ـ ان اشتد كبره ، فان كان أشد من ذلك ، استنكف عن استخدامه ، ولم يجعله أهلا للقيام بين يديه ، ولا بخدمة عتبته »(٦٧) ٠

ومن أنواع التكبر ، التكبر على الاخوان والفقراء ، وذلك بأن يستعظم المتكبر نفسه ويستحقر غيره من الاخوان والفقراء والعباد ، يقول الغزالى حول هذا المعنى : « التكبر على الفقراء والاخوان والعباد ، وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره ، فتأبى نفسه الانقياد لهم ، وتدعوه الى الترفع عليهم ، فيزدريهم ويستصغرهم ، ويأنف مساواتهم »(٦٨) ٠

---

(٦٤) تنبيه المغترين ، ص ١٢ ، ١٣ ، والسمت لغة : القصد والسكينة والوقار ، انظر المصباح المنير ، ماد سمت ٠

(٦٥) قلادة الجواهر ، ص ١٥٩ ٠

(٦٦) قلادة الجواهر ، ص ١٥٩ ٠

(٦٧) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٩٦ ٠

(٦٨) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٩٧ ٠

ويذكر الغزالى دليلا نقليا ، يثبت به صـــحة ما ذهب اليه ، فيقول : « قالت قريش لرسول الله ﷺ : كيف نجلس اليك ، وعندك هؤلاء ؟ ـ واشاروا الى فقراء المسلمين ـ فازدروهم بأعينهم ؛ لفقرهم ، وتكبروا عن مجالستهم ، فأنزل الله تعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا)(٦٩) ٠

ورؤية العبد نفسه على اخوانه ، من كيد ابليس ، فان المتكبر اذا مات على كبره هذا ، لم ينفعه شيء من أعماله فى الدنيا ، ويموت والله تعالى ساخط عليه ، يقول محمد بن سيرين فى هذا الشأن : « ليس لابليس كيد أعظم من رؤية العبد نفسه على اخوانه ، فانه اذا مات على ذلك ، مات وربه ساخط عليه ، لم ينفعه شيء من أعماله »(٧٠) ٠

وقد يكون التكبر ، بالأصحاب والأتباع والاخوان ، فيقول الغزالى أنه قد يكون التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان ، وبالعشيرة والأقارب والنبـــين »(٧١) ٠

والتكبر بالمال أيضا ، من أنواع التكبر ، وذلك يجرى بين التجار ، فى بضائعهم ، فيقول التاجر لصاحبه مثلا : أنت مكد مسكين ، وأنا لو أردت لاشتريت مثلك ، واستخدمت من هو فوقك ، ومن أنت ؟ وما معك ؟ وأثاث بيتى يساوى أكثر من جميع مالك ، وأنا انفق فى اليوم مالا تأكله فى سنة ؛ وذلك لاستعظامه للغنى ، واستحقاره للفقر ٠

ويرى الغزالى أن كل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى ، ويورد دليلا نقليا من القرآن عن قصـــة قارون ، فيقول تعـــالى عن قارون (فقال لصاحبه وهو يحاوره ، أنا أكثر منك مالا ، وأعز نفرا)(٧٢) ٠

---

(٦٩) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٩٧ ، والآية رقم ٥٢ من سورة الأنعام ٠

(٧٠) تنبيه المغترين ، ص ١٠٣ ٠

(٧١) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٣٠٣ ٠

(٧٢) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٣٠٢ ، والآية رقم ٣٤ من سورة الكهف ٠

وينصح احمد الرفاعى اثنين من مريديه بعدم مصاحبة ومخالطة أهل الكبر ، بقوله : « لا تخالطا أهل الكبر »(٧٣) ٠ ويرجع السبب فى تحذير الصوفية لمريديهم من صحبة ومخالطة المتكبرين الى أن المتكبر ينظر الى من هو أقل منه فى العلم أو النسب أو المـــال باستحضار وازدراء ، ويستعظم نفسه ، ويعتقد أن ذلك من صفات الكمال(٧٤) ٠

وكذلك الفاسق والفاجر ، قد يتعزز كل منهما ، ويفتخر بكثرة الشرب ، وكثرة الفجور بالنساء ، والغلماء ، ويتكبر به ؛ لظنه أن ذلك كمال(٧٥) ، ولذلك يحذر سفيان الثورى مريده من صحبة الفاجر بقوله : « لا تصحب الفاجر ، ولا تجالسه ، ولا تجالس من يجالسه ، ولا تؤاكله ، ولا تؤاكل من يؤاكله ، ولا تحب من يحبه ، ولا تفش اليه سرك ، ولا تبتســـم فى وجهه ، ولا توسع له فى مجلسك ؛ فان فعلت شيئا من ذلك فقـــد قطعت عـــــرى الاسلام »(٧٦) ٠ كما يحذر أبو على الكاتب (المتوفى عام ٣٤٩ هـ) مريديه من صحبة الفساق ؛ فان صحبة الفساق داء ، ودواؤها مفارقتهم(٧٧) ٠

ومن أنواع الكبر كذلك ، التكبر بالحسب والنسـب ، فالذى له نسب شريف ، يستحقر من ليس له ذلك النسب ، وان كان أرفع منه عملا وعلما ، وقد يتكبر بعضهم ، فيرى أن الناس له موالى وعبيد ، ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم(٧٨) ٠

والتكبر بالعلم ، من أشد أنواع الكبر فيما يرى بعض الصوفية ، فيرى الغزالى أن العالم لا يلبث أن يتعزز بعزة العلم ، ويستشعر فى نفسه جمال العلم وكماله ، ويستعظم نفسه ويستحقر الناس ، وينظـــر اليهم نظره الى

---

(٧٣) احمد الرفاعى ، الفجر المنير ، المطبعة الأميرية – بولاق ، القاهرة عام ١٣٠٠ هـ ، ص ٥٧ ٠

(٧٤) راجع احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٩٨ ٠

(٧٥) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٩٨ ٠

(٧٦) حلية الأولياء ، حـ ٧ ، ص ٤٧ ٠

(٧٧) طبقات الصوفية ، ص ٣٨٠ ٠

(٧٨) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٣٠٢ ٠

البهائم ، ويستجهلهم ، ويتوقع أن يبدأوه بالسلام ؛ فان بداه واحـد منهم بالسلام ، أو رد عليه ببشر ، أو قام له ، أو أجاب له دعـوة ، رأى ذلك صنيعته عنده ، وبدأ عليه يلزمه شكرها ، واعتقد أنه أكرمهم ، وفعل بهم مالا يستحقون من مثله ، وأنه ينبغى أن يرقوا له ويخدموه ؛ شكرا له على صنيعته ، بل الغالب أنهم يبرونه ، فلا يبرهم ، ويزورونه ، فلا يزورهم ، ويعودونه فلا يعودهم ، ويستخدم من خالطـه منهـم ، ويستسخره ، فى حوائجه ، فان قصر فيه ، استنكره ، كأنهم عبيده .

واذا لم ير العبد نفسه على اخوانه ، فهو عبد الله تعالى على الحقيقة ، فاذا نأى بنفسه عن الكبر والرفعة ، فانه يسمى عبدا ، وسمى ذلك (عبدية)، والى هذا المعنى يشير أحمد الرفاعى بقوله : « العبدية : عدم رؤية العبد نفسه على اخوانه رفعة أو فوقية »(٨٠) .

ومما يضاد الكبر ، التواضع ، وهو من الأخلاق الفاضلة ، ويرى ابن عجيبة الحسنى أن من الأخلاق مع الاخوان ، التواضع لهم ، والاستنصاف من نفسك معهم ، وخدمتهم بقدر الامكان ؛ فخديم القوم سيدهم(٨١) .

فاذا تكبر المريد عن خدمة اخوانه ؛ فان الله يورثه الذل ، فلا يستطيع أن يخرج عنه ، والى هذا المعنى يشير أبو عبد الله محمد بن أحمد المقرئى (المتوفى عام ٣٦٦ هـ) ، بقوله « من تعزز عن خدمة اخوانه ، أورثه الله ذلا ، لا انفكاك له منه »(٨٢) .

والتواضع فى أحد معانيه عند بعض الصوفية ، هو أن يرضى المريد بأخوة من ارتضاه الله أن يكون عبدا له ؛ فالعبدية كما سبق أن أوضحنا

---

(٧٩) راجع احياء علوم الدين . جـ ٣ ، ص ٢٩٩ .

(٨٠) أحمد الرفاعى ، البرهان المؤيد ، مكتبة دار الشـعب ، القاهرة ، عام ١٩٧١ م ، ص ٥٢ .

(٨١) ابن عجيبة الحسنى ، ايقاظ الهمم فى شرح الحكم ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة عام ١٩٨٣ م ، ص ١٢٦ .

(٩٢) راجع ، طبقات الصوفية ، ص ٥١٢ .

هى عدم الكبر ورؤية النفس على الاخوان ، فاذا تواضع العبد واختاره الله عبدا له ؛ فان من الواجب على المريد أن يؤاخيه ويرتضيه أخا ، وحول هذا المعنى يقول الهروى لتلميذه : « التواضع : أن ترضى بما رضى الحق بهلنفسه عبدا ـ من المسلمين ـ أخا »(٨٣) ٠

ويحلل ابن القيم هذا المعنى لتواضع عند الهروى ، فيقول لمريده : اذا كان الله تعالى قد رضى بأخاك المسلم لنفسه عبدا ، أفلا ترضى أنت به أخا ؟

فعدم رضاك به أخا ـ وقد رضيه سيدك الذى أنت عبده ـ عبدا لنفسه، عين الكبر ٠ وأى قبيح أقبح من تكبر العبد على مثله ، لا يرضى بأخوته وسيده راض بعبوديته ؟ فيجيء من هذا : أن المتكبر غيـــر راض بعبودية سيده ، اذ عبوديته توجب رضاه بأخوة عبده(٨٤) ٠

ويربط بعض الصوفية بين الصحبة والفناء ، فالتواضع معناه عند الهروى ، الفناء عن ارادة العبد ، فيترك السالك مراده لمراد الله ، وذلك أثناء خدمته لله تعالى ، وأن يفنى كذلك عن رؤية حقه ، فلا يرى له حقـا ، ولا يشاهد الا الله تعالى ، وذلك أثناء صحبته معه ، واستمع الى الهروى وهو يلقى أحد دروسه على مريديه ، فيقول عن معنى التواضع : « أن تتضع للحق ، فتنزل عن رأيك وعوائدك فى الخدمة ، ورؤية حقك فى الصحبة»(٨٥)٠

ويؤكد هذا المعنى للتواضع عند الهروى ، قول محمد بن على الترمذى: من شرائط الخدام ، التواضع والاستسلام »(٨٦) ٠

(هـ) والحسد من الأخلاق المذمومة عند صوفية الاسلام ، وهو يعنى عندهم ، كراهة النعمة ، وحب زوالها عن المنعم عليه ، أما المنافسة ، فهى

---

(٨٣) ابن القيم ، مدارج السالكية ، مطبعة الســـنة المحمـــدية ، القاهرة عام ١٩٥٦م ، حـ ٢ ، ص ٣٢٧ ٠

(٨٤) مدارج السالكين ، حـ ٢ ، ص ٣٢٧ ٠

(٨٥) مدارج السالكين ، حـ ٢ ، ص ٣٢٨ ٠

(٨٦) طبقات الصوفية ، ص ٢١٨ ٠

أن لا تحب زوال النعمة عن المنعم عليه ، ولا تكره وجودها ، ودوامها ، ولكن تشتهى لنفسك مثلها(٨٧) ٠

وبالجملة ، فاذا أنعم الله على أخيك نعمة ، فلك فيها حالتان ، احداهما: أن تكره تلك النعمة ، وتحب زوالها ، وهذه الحالة تسمى حسدا ، فالحسد : حدة كراهة النعمة ، وحب زوالها عن المنعم عليه ، الحالة الثانية : أن لاتحب زوالها ، ولا تكره وجودها ودوامها ، ولكن تشتهى لنفسك مثلها ، وهذه تسمى غبطة ، وقد تختص باسم (المنافسة)(٨٨) ٠

ويرى بعض الصوفية أن من أعظم الناس حسدا ، الأقربون والجيران ، لمشاهدتهم النعمة التى يحســـدون (الأقارب والجيران) عليها ، بخـلاف البعيـــد(٨٩) ٠

ويبين لنا الغزالى الســـبب فى كثرة الحســـد بين الأمثال والأقران والأصحاب والاخوة وبنى العم والأقارب ، فيقول : « يكثر الحسد بين أقوام تجمعهم روابط ، يجتمعون بسببها فى مجالس المخاطبات ، ويتواردون على الأغراض ، فاذا خالف واحد منهم صاحبه فى غرض من الأغراض ، نفر طبعه عنه وأبغضه ، وثبت الحقد فى قلبه ، فعنـــد ذلك يريد أن يستحقره ويتكبر عليه ، ويكافئه على مخالفته لغرضه ، ويكره تمكنه من النعمة التى توصله الى أغراضه ، وتترادف جملة من هذه الأسباب ؛ اذ لا رابطة بين شخصين فى بلدتين متنائيتين ؛ فلا يكون بينهما محاسدة ، وكذلك فى محلتين(٩٠) ٠

ويستطرد الغزالى كلامه حول هذا المعنى ، قائلا :

« نعم ، اذا تجاورا (الشخصين) فى مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد ، تواردا على متاصد تناقض فيها أغراضهما ، فيثور من التناقض (التنافر والتباغض) ، ومنه تثور بقية أسباب الحسد ؛ ولذلك نرى العالم

---

(٨٧) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٦٤ ٠

(٨٨) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٦٤ ٠

(٨٩) تنبيه المغترين ، ص ١٢٧ ٠

(٩٠) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٦٩ ٠

يحسد العالم دون العابد ، والعابد يحسد العابد دون العالم ، والتاجر يحسد التــاجر »(٩١) ٠

وبالجملة ، فأصل هذه المحاسدات ، العداوة ، وأصل العداوة ، التزاحم بينهما (أى الشخصين المتناسبين) على غرض واحد ، والغرض الواحــــد لا يجمع متباعدين ، بل متناسبين ؛ فلذلك يكثر الحسد بينهما(٩٢) ٠

ويرى بعض الصوفية أن الحكمة لا تنزل على قلب عبد يحسد أصحابه واخوانه ، واستمع الى يحيى بن معاذ الرازى (المتوفى عام ٢٥٨ هـ) ، وهو يشير الى هذا المعنى ، بقوله : « تهوى الحكمة من السماء ، فلا تنزل على قلب فيه هذه الأربع خصال : الركون الى الدنيا ، وحمل هم غد ، وحسد الأخ ، وحب الشرف على الناس ، فمن كان فيه خصلة من هذه ، فلا تدخل قلبه حكمة »(٩٣) ٠

وقد كان من أخلاق السلف الصالح فيما يرى عبد الوهاب الشعرانى ، عدم الحسد لأحد من اخوانه المسلمين ، ولذلك ينصح الشعرانى اخوانه بعدم حسد الاخوان على نعم الله ، بقوله : « فتش يا أخى فى نفسك ، وانظر ، هل سلمت من الحسد لاخوانك المسلمين ، على ما اتاهم من الله تعالى من فضله، وهل بذلت لهم النصيحة كما أمرك الله ؟ أم أنت بالضد من ذلك ؟ »(٩٤) ٠

والباعث على الحسد فيما يرى بعض الصوفية ، حب المساواة ، فما من انسان الا وهو يرى فوق نفســـــه جماعة من معـــــارفه وأقرانه ، يحب مساواتهم ، ويكاد ينجر ذلك الى الحسد المحظور ، ان لم يكن قوى الايمان ، رزين القوى ، ومهما كان محركه – خوف التفاوت ، وظهور حصنه عن غيره – جره ذلك الى الحسد المذموم ، والى ميل الطبع الى زوال النعمة عن أخيه ؛ حتى ينزل هو (أى أخوه) الى مساواته ؛ اذ لم يقدر هو أن يرتقى

---

(٩١) راجع احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٦٩ ٠

(٩٢) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٦٩ ٠

(٩٣) تنبيه المغترين ، ص ١٢٤ ٠

(٩٤) تنبيه المغترين ، ص ١٢٤ ٠

الى مساواته بادراك النعمة ؛ وذلك (أى الحسد لا رخصة فيه أصلا ، بل هو حرام ، سواء كان فى مقاصد الدين ، أو مقاصد الدنيا »(٩٥) ٠

ومن أشد أسباب الحسد ، العداوة والبغضاء ، فان من آذاه شخص ، بسبب من الأسباب ، وخالفه فى غرض بوجه من الوجوه ، أبغضه قلبه ، وغضب عليه ، ورسخ فى نفسه الحقد،والحقد يقتضى التشفى والانتقام(٩٦)٠

وبالجملة : فالحسد يلازم البغض والعداوة ، ولا يفارقهما ، فيما يرى أبو حامد الغزالى(٩٧) ٠

والخوف من فوت المقاصـــد ، من أسباب الحســـد فيما يرى بعض الصوفية ، فقد يتزاحم صاحبان على مقصود أو هدف واحد ، فكل واحد منهما يحسد صاحبه على كل نعمة تكون عونا له فى الانفراد ، ونيل هدفه ومقصوده ، ويضرب الغزالى مثلا لذلك بتحاسد الأخوة فى التزاحم على نيل المنزلة فى قلب الأبوين ؛ للتوصل بها الى مقاصد الكرامة والمال(٩٨) ٠

ويوضح بعض الصوفية ، الآثار النفسية التى تترتب على الحسد ، بالنسبة للحاسد ، فالحاسد يتألم بحسده فى الدنيا ، ويتعذب به ، وذلك يؤدى به الى الغم ، فهو يتعذب بكل نعمة يراها ، ويتألم بكل بلية تنصرف عنـه ولذلك ينصح الغزالى الحاسد ، بأن يتجنب هذا الخلق المذموم ، فيقول له: « أما كونه (أى الحسد) ؛ ضررا عليك فى الدنيا ، فهو أنك تتألم بحسدك فى الدنيا ، أو تتعذب به ، ولاتزال فى كمد وغم ؛ اذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها ، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم ، فتبقى مغموما محـــــروما ، متشـــعب القلب ، ضيق الصـــدر »(٩٩) ٠

---

(٩٥) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٦٦ ٠
(٩٦) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٦٧ ٠
(٩٧) احيا ءعلوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٦٧ ٠
(٩٨) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٦٨ ٠
(٩٩) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٧٠ ٠

وخلاصة القول : ان العداوة تثمر الكراهة والبغضاء ، والكراهة تثمر الغضب فى نفس الحاسد ، فاذا كظم الحاسد غيظه وغضبه ؛ لعجزه عن التشفى فى الحال ، رجع غضبه الى الباطن ، فيصير حقدا ، أو غلا ، فالحسد ثمرة من ثمار الحقد (أو الغل) ٠

ويوضح السهروردى البغدادى حركة القلب أثناء الغضب ، فيرى أنه « ان كان الغضب على من يشاكله (أى يشاكل الغاضب) ويماثله ، ممن يتردد فى الانتقام منه ، يتردد القلب بين الانقباض والانبساط ، فيتولد منه الغل والحقد(١٠٠) ٠

وان كان الغضب على من دونه ، ممن يقدر على الانتقام منه ، ثار دم القلب ، والقلب اذا ثار دمه ، يحمر ويقسو ويتصلب ، وتذهب عنه الرقة والبياض ، ومنه تحمر الوجنتان ؛ لأن الدم فى القلب ثار وطلب الاستعلاء ، وانتفخت العروق ، فظهر عكسه وأثره على الخد ، فيتعدى الحدود حينئذ ، بالضرب والشتم(١٠١) ٠

ويوضح لنا علم النفس الحديث أنه اذا كانت المظاهر الانفعالية العنيفة (الغضب مثلا) ، من العوامل التى كانت تساعد الانسان البدائى على مواجهة أعدائه بالضرب والمقاتلة ، فانها قد فقدت فى بيئتنا المتحضرة ميزة التكيف الناجح ، وأصبح ضبط النفس والتريث والروية ، من العوامل الضرورية لمواجهة مشاكل الحياة بنجاح(١٠٢) ٠

وخلاصة القول ، ان الغل أو الحقد يكون نتيجة الغضب ؛ فإن ابن عجيبة الحسنى كان يوصى مريديه بتجنب المنازعة والمخاصمة والملاججة بالغضب ؛ لأن ذلك يؤدى الى الشرور والعداوة والحقد(١٠٣) ٠

---

(١٠٠) عوارف المعارف ، حـ ٣ ، ص ٧٩ ٠

(١٠١) عوارف المعارف ، حـ ٣ ، ص ٨٠ ٠

(١٠٢) مبادىء علم النفس العام ، ص ١٤٣ ٠

(١٠٣) ابن عجيبة الحسنى ، الفتوحات الالهية ، مطبعة عالم الفكر ، القاهرة ، عام ١٩٨٣ ، ص ١٧٦ ٠

ويرى بعض الصوفية أن الحقد أو الغل يؤدى الى كشف عيوب الصاحب ومساوئه ، وعدم التاهل والتغافل عنها ، والى هذا المعنى يشير الغزالى قائلا : « منشأ التقصير فى ستر العورة ، أو السـعى فى كشفها ، الداء الدفين فى الباطن ، وهو الحقد والحسد »(١٠٤) ٠

ويوضح الغزالى أن الحقود يملأ باطنه بالخبث ، ولكن يحبسـه فى باطنه ، واذا وجد فرصة ، انحلت الرابطة ، وارتفع الحياء ، ويترشح الباطن بخبثه الدفين(١٠٥) ٠

وأشد الأسباب لاثارة الحقد بين الاخوان ، المـاراة ، فانها تقطع بالأصحاب والاخوان ، والمارة هى الاعتراض على كلام الآخرين وآرائهم ، والتشكك فيها ، ويكون نتيجة ذلك الاحتقار ، يقول الغزالى مشيرا الى هذا المعنى « أشد الأسباب لاثارة نار الحقد بين الاخوان ، المماراة والمنافسة ، فانها عين التدابر والتقاطع ؛ فان التقاطع يقع أولا بالآراء ، ثم بالأقوال ، ثم بالأبدان ، وقال عليه السلام (لا تدابروا ، ولا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تقاطعوا ، وكونوا عباد الله اخوانا ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولايحرمه ولا يخزله ، بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم)»(١٠٦) ٠

والباعث على أشد الاحتقار ، المماراة أو المراء : فان من رد على غيره كلامه ، فقد نسبه الى الجهل والحمق ، أو الى الغفلة والسهو عن فهم الشىء على ما هو عليه ، وكل ذلك استحقار(١٠٧) ٠

وكثرة المماراة ، فيما يرى بعض الصوفية تبعث على القطيعة ، وتورث العداوة ، ومما يبعث على المماراة ، احتقار المردود عليه ، واظهار جهله وحمقه والتكبر عليه وايذائه ، وهذا يؤدى فى النهاية الى العداوة والبغضاء، يقول الغزالى فى هذا الشأن : « لا باعث على المماراة الا اظهار التمييز

---

(١٠٤) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٧ ٠

(١٠٥) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٧ ٠

(١٠٦) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٨ ٠

(١٠٧) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٨ ٠

بمزيد العقل والفضل ، واحتقار المردود عليه ؛ باظهار جهله ، وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار والايذاء والشتم بالحمق والجهل ، ولا معنى للمعاداة الا هـذا(١٠٨) ٠

وقد نهى بعض الصوفية عن المماراة ، الى حد أن جعل أبو سليمان الدارانى مثلا ، أنك اذا قلت لأخيك : قم ، وسألك فقال لك : الى أين ؟ فلا تصحبه ؛ فانه ينبغى عليه أن يقوم ولا يسأل ، واستمع اليه وهو يقول فى هذا الصدد : « كان لى أخ بالعراق ، فكنت أجيئه فى النوائب ، فأقول : اعطنى من مالك شيئا ، فكان يلقى الى كيسه فأخذ منه ماأريد ، فجئته ذات يوم فقلت : أحتاج الى شىء ، فقـال : كم ترد ؟ فخرجت حـلاوة اخـائه من قلبى »(١٠٩) ٠

وبالجملة : اذا طلبت من أخيك مالا ، فقال : ماذا تصنع به ، فقد ترك حق الاخاء ٠

ومن كل ما تقدم نجد أن الصوفية يدعـون مريديهم الى ترك المراء والمجادلة والغضب ، الا بحق ، ويحثون على الرفق والحلم ؛ وذلك أن النفوس تبث وتظهر فى الممارين ، والصوفى كلما رأى نفس صاحبه ظاهرة ، قابلها بالقلب ، واذا قوبلت النفس بالقلب ، ذهبت الوحشـة ، وانطفأت الفتنة قال الله تعالى تعليما لعباده (ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة ، كأنه ولى حميم)(١١٠) ٠ ولا ينزع المراء الا من نفوس زكية انتزع منها الغل (أو الحقد) ، ووجود الغل فى النفوس ، مراء الباطن ، واذا انتزع المراء من الباطن ، ذهب من الظاهر أيضا(١١١) ٠

ويشبه المراء أو المماراة ما يسمى فى علم النفس الحديث (التبرير الجدلى) ، فان المرء يصطنع التبرير الجدلى الاستدلالى ؛ لترجيح كفة على

---

(١٠٨) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٨ ٠
(١٠٩) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٨ ٠
(١١٠) سورة المؤمنون آية ٩٦ ، وسورة فصلت آية ٣٤ ٠
(١١١) عوارف المعارف ، حـ ٣ ، ص ٧٠ ٠

الأخرى ؛ ولتحقيق اتزان يكون أكثر ثباتا من الاتزان الأول · ويعتبر التبرير من الطرق الملتوية غير الصريحة ؛ لارضاء الميل الذى تسلل الى القلب وتملكه، ولما يتمثل جليا فى الشعور(١١٢) ·

ويقصد بالتبرير الجدلى فى علم النفس الحديث ، تفسير الفرد لسلوكه بأسباب منطقية ، ويرمى من وراء ذلك الى اظهار سلوكه فى صورة معقولة مقبولة ، وهو بذلك يخفى الدوافع الحقيقية لهذا السلوك ، الذى قد يكون فيه تحقير له أو امتهان لذاته ؛ مما قد يشعره بالعار والخجل ، والتبرير محاولة يخدع الفرد فيها نفسه ، تدفعه الى ذلك دوافع لاشعورية(١١٣) ·

ولما كان الحقد يثمر الحسد ، فانه يثمر الشماتة أيضا ، فاذا نزلت بالصاحب أو الأخ مصيبة ، فان الشماتة تعنى الفرح بها وبما أصاب الصاحب من البلايا والمحن · فالشامت مهما أصابت عدوه بلية ، فرح بها ، وظنها مكافأة له ؛ من جهة الله على بغضه ؛ وأنها لأجله ، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك ؛ لأنه ضد مراده(١١٤) ·

ويوضح بعض الصوفية أن الفرح الناتج عن وقوع البلايا والمحن بالصاحب ، أو الكراهة عند اصابة الصاحب بالنعم ، وهو الشماتة ، يستند الى الكتاب والسنة ، والى هذا أشار القرآن بقوله تعالى : (ان تمسسكم حسنة تسؤهم ، وأن تصيبكم مصيبة يفرحوا بها)(١١٥) ، وهذا الفرح شماتة ، والحسد والشماتة يتلازمان ، كما أن الشماتة ، والكراهة الناتجة عنها ، تسخط لقضاء الله فى تفضيل بعض عباده على بعض · وأى معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة ؟ (١١٦) ·

واذا كان ذلك كذلك ، فان بعض الصوفية يحذرون من الشماتة بالصاحب أو الأخ أو الصديق ، وحول هذا المعنى يقول وهب بن منبه :

---

(١١٢) راجع ، مبادىء علم النفس العام ، ص ١٨٠ ·

(١١٣) راجع ، المرجع فى علم النفس ، ص ٣٨٠ ·

(١١٤) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٦٧ ·

(١١٥) سورة آل عمران آية ١٢٠ ·

(١١٦) راجع ، احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٦٥ ·

« اياك أن تشمت بمصيبة أخيك ، فان ذلك عنوان للعداوة »(١١٧) ٠ وكان وهيب بن الورد يقول فى نفس المعنى « من لم يدار الناس ، لم يجد حلاوة الايمان »(١١٨) ٠ وقد قال الرسول ﷺ (لا تظهر الشماتة لأخيك ، فيعافيه الله ويبتليك) ٠ وقد قيل لأيوب عليه السلام ، أى شىء كان أضر عليك أيام بلائك ، فقال : شماتة أعدائى(١١٩) ٠

ومما يضاد الشماتة الناتجة عن الحقد والحسد ، المداراة ، وتعنى الملاطفة والملاينة(١٢٠) ٠ ويرى عبد الوهاب الشعرانى أن المداراة هى أن يرضى الصاحب صاحبه بما لا ينقص دينه ، وقد ينقص دنياه ، فهو يقول فى هذا الصدد : « المداراة هى ارضاء الناس بما ينقص دنياه »(١٢١) ٠

والمداراة محمودة، وكانت من أخلاق الرسول ﷺ ، ويورد السهروردى البغدادى دليلا نقليا يثبت به ذلك ، عن أنس بن مالك ، قال (خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لى أف قط ، وما قال لشىء صنعته ، لم صنعته ، ولا لشىء تركته ، لم تركته ؟)(١٢٢) ٠

وعلى الجملة : فالمداراة مع كل أحد من الأهل والأولاد والأصحاب والاخوان والجيران والخلق كافة ، من أخلاق الصوفية(١٢٣) ٠ فقـــد كان محمد بن الفضل ، يجالس أعداءه ويلاطفهم بالكلام الحلو ، ويعزم عليهم أن يأكلوا عنده ، فقيل له فى ذلك ، فقال ؛ لتخمد نار عداوتهم ٠

وكان الحسن البصرى يقول : « لا تشتر مودة ألف رجل بعداوة رجل واحد » ٠ وكان سفيان الثورى يقول : « اياك ومعاداة الناس ، فانى ما

---

(١١٧) تنبيه المغترين ، ص ١٥١ ٠
(١١٨) تنبيه المغترين ، ص ١٥١ ٠
(١١٩) تنبيه المغترين ، ص ١٥١ ٠
(١٢٠) داريته مداراة : لاطفته ولاينته ، أنظر المصباح المنير ، مادة : درى ٠
(١٢١) تنبيه المغترين ، ص ١٦٤ ٠
(١٢٢) عوارض المعارف ، حـ ٣ ، ص ٢٠ ٠
(١٢٣) عوارف المعارف ، ص ٢٠ ٠

خالفت صديقا فى هواه ، الا وخفت على نفسى منه أن يسعى فى قتلى ، فان لم يسع فى قتلى ، يتمنى ظهور عيوبى للناس »(١٢٣) ٠

وكانت المداراة أيضا من أخـــلاق الســـلف الصالح ، فكان النـاس يعادونهم ، وهم لا يعادون أحدا ، وقد بلغنا أن داود عليه الصلاة والسلام ، قال لابنه : « يابنى لا تستقل بالعدو الواحد ، ولا تستكثر أن يكون لك ألف صديق » ٠ وقد نظم ذلك الامام الشافعى رضى الله عنه ، وهو قوله :

وليس كثيرا ألف خل لواحـد وان عدوا واحـدا لكثير(١٢٤)

حتى أنه كان من أخلاق السلف الصالح ، مخالطتهم لمن كان عدوا لهم فى السر ، ويدعى محبتهم ظاهرا ، وايهامهم أن أحدهم صدقه فى دعواه بالمحبة له (١٢٥) ٠

ويحذر عبد الوهاب الشعرانى المخالط للعدو ، الى حفظ جوارحه من سائر المخالفات ؛ لأن العدو ربما كان قصده من المخالطة ، اطلاعه على عورة أخيه ؛ ليصير يهجوه بذلك فى المجالس أيام ظهور عداوته له ، كما هو واقع كثيرا(١٢٦) ٠

والسخاء من الأخلاق المحمودة ، ويعنى الصوفية به ، بذل ما يحتاج اليه لمحتاج أو لغير محتاج(١٢٧) ٠ كما أن الايثار أرفع أنواع ودرجـــات السخاء ، وهو أن يجود (الانسان) بالمال مع الحاجة اليه(١٢٨) ٠

ومن صفات الانسان صاحب السخاء والايثار ، الذى يبذل الجـــاه والمال للاخوان ، أن يكون وافر العـلم ، بصـــيرا بعيـــوب النفس وآفاتها

---

(١٢٣) تنبيه المغترين ، ص ١٥١ ٠
(١٢٤) تنبيه المغترين ، ص ١٥٠ ٠
(١٢٥) تنبيه المغترين ، ص ٥٦ ٠
(١٢٦) تنبية المغترين ، ص ٥٦ ٠
(١٢٧) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٢٢ ٠
(١٢٨) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٢٢ ٠

وشهواتها ، ولا تكون هذه الصفات الا فى صوفى تام الحال ، عالم ، ربانى ، وعبد اطلع الله على باطنه ، فعلم منه عدم الرغبة فى شىء من المال ، والى هذا المعنى يشير السهروردى البغدادى بقوله : « اذا كان الرجل وافر العلم ، بصيرا بعيـــوب النفس وآفاتها وشهواتها ، فليتوصل الى قضـــاء حوائج المسلمين ؛ ببذل الجاه والمال ، والمعاونة فى اصلاح ذات البين ، ومن هذا المعنى يحتاج الى مزيد علم ؛ لأنها أمور تتعلق بالخلق ومخالطتهم ومعاشرتهم، ولا يصلح ذلك الا لصوفى تام الحال ، عالم ، ربانى(١٢٩) ٠

ويستطرد البغدادى حديثه حول هذا المعنى قائلا :

« ولا يصلح هذا الا لعبد اطلع الله على باطنه ، فعلم منه أنه لارغبة له فى شىء من الجاه والمال ٠٠٠ وهذا لا يصلح الا لآحاد من الخلق ، وأفراد من الصادقين ، يســـلخون عن أرادتهم واختيارهم ، ويكاشفهم الله تعـــالى بمراده منهم »(١٣٠) ٠

ومعنى ذلك أن هؤلاء الصوفية أصحاب السخاء والايثار ، يفنون عن ارادتهم واختيارهم ، ويبقون بارادة الله تعالى ، ويرى البغدادى أن هؤلاء الصوفية حينما يفنون عن ارادتهم ، فانهم يكونون قد أحكموا مقام (الفناء)، ثم يرقون فى نفس الوقت الى مقام (البقاء) ، يقول السهروردى البغدادى مشيرا الى هذا المعنى : « فاذا علموا أن الحق يريد منهم المخالطة وبذل المال والجاه ، يدخلون فى ذلك ؛ بغيبة صفات النفس ، وهذا لأقوام ماتوا ، ثم حشروا ، وأحكموا مقام الفناء ، ثم رقوا الى مقام البقاء »(١٣١) ٠

ويرى بعض الصوفية أن السخاء والجود وبذل المال ومواساة الاخوان فى حال سفرهم ، وفى حال اقامتهم ، كان من أخلاق السلف الصالح ؛ فانه بذلك يقع التعاضد فى نصرة الدين(١٣٢) ٠

---

(١٢٩) عوارف المعارف ، حـ ٣ ، ص ٩٢ ، ٩٣ ٠
(١٣٠) عوارف المعارف ، حـ ٣ ، ص ٩٤ ٠
(١٣١) عوارف المعارف ، حـ ٣ ، ص ٩٤ ٠
(١٣٢) تنبيه المغترين ، ص ١٣٦ ٠

ويورد عبد الوهاب الشعرانى دليلا نقليا يثبت به صحة ما ذهب اليه ، بقوله « كان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، يشترط على من يريد أن يصحبه فى السفر ، أن يكون عبد الله (بن عمر) هو الذى ينفق عليه »(١٣٣) .

والجود بالمال ، والبر بالاخوان ، من السخاء ، فيما يرى بعض الصوفية ، فقد قيل لسفيان بن عيينة : ماالسخاء ؟ قال : « السخاء : البر بالاخوان ، والجود بالمال »(١٣٤) .

ومما يضاد السخاء والجود ، من الأخلاق المذمومة ، البخل ، واستمع الى سفيان بن عيينة وهو يشير الى ذلك بقوله : « ورث أبى خمسين ألف درهم ، فبعث بها صررا الى اخوانه ، وقال : كنت أسأل الله تعالى لاخوانى الجنة فى صلاتى ، أفأبخل عليهم بالمال »(١٣٥) .

والبخل فيما يرى بعض الصوفية ، سببه حب المال ، وللمال آفات ومن هذه الآفات ، أنه يجر صاحبه الى التنعم بالمباح ، فيتنعم بالدنيا ، فتدعوه نفسه الى الالتذاذ بالشهوات والمعاصى ، ويخوض فى الأخلاق المذمومة مثل النفاق والكذب ، ويكثر حاجته للناس ؛ لكثرة أمواله ، واذا احتاج الى الناس فان الصداقة والعداوة تثور من الناس له ، وينشأ عنهما سائر الأخلاق المذمومة ،كالحقدوالحسدوالرياء والكذب ، والى هذا المعنى يشير الغزالى بقوله : « انه (أى المال) يجر الى التنعم فى المباحات .... ، فأحسن أحواله (صاحب المال) أن يتنعم بالدنيا ، ويمرن عليها نفسه ، فيصيرالتنعم مألوفا عنده ومحبوبا ، لا يصبر عنه ، ويجره البعض منه الى البعض ، فاذا اشتد أنسه به ، ربما لايقدر على التوصل اليه بالكسب الحلال ، فيقتحم الشبهات ، ويخوض فى المراءاة والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة ؛ لينتظم له أمر دنياه ، ويتيسر له تنعمه ، فان من كثر ماله كثرت حاجته الى الناس ، ومن احتاج الى الناس فلابد أن ينافقهم ، ويعصى الله فى طلب رضاهم »(١٣٦) .

---

(١٣٣) تنبيه المغترين ، ص ١٣٦ .
(١٣٤) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢١٤ .
(١٣٥) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢١٤ .
(١٣٦) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٠٥ .

ويستطرد الغزالى حديثه حول هذا المعنى قائلا : « ومن الحاجة الى الخلق (أى الناس) تثور العداوة والصداقة ، وينشأ عنه الحسد ، وسائر المعاصى التى تخص القلب واللسان ، ولا يخلو أيضا الى سائر الجوارح ، وكل ذلك يلزم من شؤم المال »(١٣٧) ٠

واذا كان للمال آفات وأضرار ، فان له فوائد ، منها أنه يصرف للأغنياء والأشراف ، فى ضيافة وهدية ، وما يجرى مجراها ، وبذلك يكتسب العبد الاخوان والأصدقاء ، وهذا ما يسمى بالمروءة ، ويوصف صاحبها بالسخاء، يقول الغزالى فى هذا الشأن : « وأما المروءة : فنعنى بها صرف المال الى الأغنياء والأشراف ، فى ضيافة ، وهدية ، واعانة ، وما يجرى مجراها ، فان هذه لا تسمى صدقة ، بل الصدقة : ما يسلم الى المحتاج ، الا ان هذا من الفوائد الدينية ؛ اذ به يكتسب صفة السخاء ، ويلتحق بزمرة الأسخياء »(١٣٨) ٠

والذى يوصف بالجود فيما يرى بعض الصوفية ، هو الذى يصطنع المعروف ، والى هذا المعنى يشير الرسول ﷺ بقوله : « كل معروف صدقة ، وان من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك فى اناء أخيك »(١٣٩) ٠

وقد كان الجود منأخلاق السلف الصالح ، وهو شدة محبتهم لاصطناع المعروف الى الاخوان ، ومحبة الانبساط اليهم ، وادخال السرور على بعضهم بعضا ، وتقديم اخوانهم فى ذلك على أنفسهم ، وكانوا لا يتوقفون على استحقاق اخوانهم لذلك ، ويقولون : ان لم يكن أخونا أهلا للمعروف ، فنحن أهله (١٤٠) ٠

وعلى العكس من ذلك ، فأصحاب الأموال فى عصرنا هذا ، ذهب

---

(١٣٧) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٠٥ ٠
(١٣٨) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٠٤ ٠
(١٣٩) عوارف المعارف ، حـ ٣ ، ص ٤٥ ٠
(١٤٠) تنبيه المغترين ، ص ١٤٠ ٠

المعروف من عندهم ، فيعطى أحدهم لأخيه الشيء ، انتظارا لنظيره أو لمنفعة ، والى هذا المعنى يشير أبو الحسن سرى السقطى (المتوفى عام ٢٥١ هـ) بقوله : « ذهب المعروف وبقيت التجارة ، يعطى أحدهم لأخيه الشيء ؛ لأجل أن يعطيه نظيره »(١٤١) .

ومن الجود فيما يرى بعض الصوفية ، المبادرة الى تلبية سؤال الاخوان دون ابطاء ، وكان الحسن بن على رضى الله عنهما ، اذا سئل فى حاجة ، يبادر اليها ويقول : انى أخاف أن أبطيء ؛ فيستغنى أخى عنها ، فيفوتنى الأجـــر »(١٤٢) .

ولما كان من معانى الجود ، اصطناع المعروف ، فان الفضيل بن عياض (المتوفى عام ١٨٧ هـ) ، يقول « من المعروف أن ترى المنة لأخيك عليك ، اذا أخذ منك شيئا ؛ لأنه لولا أخذه منك ، ما حصل لك الثواب ، وأيضا ، فانه خصك بالسؤال ، ورجا فيك الخير دون غيرك »(١٤٣) .

ومن الجود أيضا ، ادخال السرور والفرح على الأصحاب والاخوان والأصدقاء ، فمن أدخل على اخوانه السرور ، فهو من الآمنين من عذاب الله يوم القيامة ، فيما يرى عبد الله بن عباس رضى الله عنه(١٤) .

ومن اصطناع المعروف بين الأصحاب والاخوان ، أن يدخل الأخ دار صاحبه فى غيبته ، ويأخذ منه ما يحتاج اليه ، فاذا جاء أخوه ، فرح بذلك ، وقد كان بغية بن الوليد رحمه الله ، يدخل دار صديقه فى غيبته ، ويأخذ القدر من على النار ، ويضعه على باب الدار ، فيأكل منه ، ويفرق على الفقراء والمساكين ، فاذا جاء أخوه ، فرح بذلك وقال : جزاك الله من أخ صالح خيرا ، قدمت مالنا ليوم معادنا »(١٤٥) وكان جعفـــر بن محمد ،

---

(١٤١) تنبيه المغترين ، ص ١٤٠ .
(١٤٢) تنبيه المغترين ، ص ١٤٢ .
(١٤٣) تنبيه المغترين ، ص ١٤٢ .
(١٤٤) تنبيه المغترين ، ص ١٤١ .
(١٤٥) تنبيه المغترين ، ص ١٤١ .

رضى الله عنه يقول : « بئس الأخ ، من لا يتجرأ أخوه أن يفتح كيسه فى غيبته ويأخذ منه ما يحتاج اليه بغير اذنه »(١٤٦) ٠

ويعقب الشعرانى على ما سبق بقوله : « قد يترك أحدهم ذلك ؛ لما لا يعلمه من أخيه من البخل ؛ بل قياسا على نفسه »(١٤٧) ٠

ومواساة الأصحاب والاخوان بعضهم بعضا ، من الجود ، فيما يرى بعض الصوفية ، وذلك دون انتظار عوض منه على مواساته ؛ فذلك أدعى الى استمرار صحبته ، والى هذا المعنى يشير أبو حازم رحمه الله تعالى بقوله : « اذا كان لك أخ فى الله ، فلا تعامله فى الدنيا ، وأكثر من مواساته ، من غير طلب عوض منه على ذلك ؛ لتدوم لك صحبته »(١٤٨) ٠

ويأسف الحسن البصرى (المتوفى عام ١١٠ هـ) على ضياع أحد الأخلاق الحميدة فى هذا الزمان ، وهو المواساة ، فقد كان السلف الصالح يواسون أصحابهم بما يحتاجون اليه من الطعام والشراب ، والنقود ، ووفاء الديون ، وتحمل الهموم ، أما اليوم فترى الأصحاب يسألون عن أحوال بعضهم ، ثم لا يسمح أحدهم أن يعطى أخاه درهما(١٤٩) ٠

ويورد عبد الوهاب الشعرانى دليلا عقليا ، يذكر فيه سبب التراخى فى مواساة الأصحاب والاخوان فى هذا الزمان ، فيرى أن الناس اليوم ، على خلاف ذلك ٠ وربما يقول أحدهم لصاحبه (ايش حالكم ؟) ، فيقول (طيب)، ويكتم أمره ؛لعلمه بفراغ قلب صاحبه ، وان قوله (ايش حالكم) ، كلام بحكم العادة ، من غير ثمرة ، كما هو مشاهد ، بل وكثيرا ما يقول المار على أخيه (ايش حالكم) ؟ ، ولا ينتظر الجواب ، فلا السائل يتربص حتى ينتظر الجواب ، ولا المسئول يكلف نفسه النطق بالجواب(١٥٠) ٠

---

(١٤٦) تنبيه المغترين ، ص ١٤١ ٠
(١٤٧) تنبيه المغترين ، ص ١٤١ ٠
(١٤٨) تنبيه المغترين ، ص ١٤٣ ٠
(١٤٩) راجع ، تنبيه المغترين ، ص ١٤٢ ، ص ١٠١ ٠
(١٥٠) تنبيه المغترين ، ص ١٠١ ٠

ويحذر حاتم الأصم (المتوفى عام ٢٣٧ هـ) مريده ، من أن يقـــول لصاحبه (كيف أصبحت) أو يتشاغل عنه ، فان ذلك يكون سخرية به ، فهو يقول لمريده : « اذا قلت لصاحبك ، (كيف أصبحت ، وقال لك : انى محتاج الى شىء ، فتلاهيت عنه ، ولم تعطه حاجته ، فقولك له : (كيف أصبحت) ، سخرية به ، وهذا هو الغالب على اخوان هذا الزمان »(١٥١) .

ويرى بعض الصوفية أن الناس اليوم يسألون عن أحوال بعضهم ، ويبخل أحدهم على أخيه اذا كان محتاجا ، وحول هذا المعنى يقول الحسن البصرى : « لقد أدركنا للناس وهم يواسون بعضهم بعضا ، ولا يسألون عن كون أخيهم محتاجا الى ما يواسونه به أم لا ، وتراهم اليوم يسألون عن أحوال بعضهم ، ثم لا يسمح أحدهم أن يعطى أخاه درهما »(١٥٢) .

وينهى سفيان الثورى تلاميذه من أن يقول لأخيه انى أحبك لله ، الا اذا وجد نفسه أنه لا يمنع حاجة أخيه ، بقوله : « لا ينبغى لأحد أن يقول لأخيه انى أحبك لله ، الا بعد أن يعرض على نفسه أن لا يمنعه شيئا طلب منه»(١٥٣) .

(ز) أما الكرم عند الصوفية ، فهو من الأخلاق الحميدة ، ويعنى به الصوفية ، اصطناع المعروف قبل السؤال ، وينصح محمد بن النضر الحارثى مريده ، أن يصاحب من يتحلى بالمكرم ، فيقول له : « اذا صاحبت ، فاصحب صاحبا ذا حياء وعفاف وكرم »(١٥٤) .

ومن شرط الصدق فى الأخوة أن يكرم الشخص أخاه اذا افتقر ، أكثر مما كان يكرمه حال الغنى ، على حد قول الفضيل بن عياض (١٥٥) .

والايثار فيما يرى بعض الصوفية ، أن يقدم الانسان حقوق الغير على

---

(١٥١) تنبيه المغترين ، ص ١٠١ .
(١٥٢) تنبيه المغترين ، ص ١٤٣ .
(١٥٣) تنبيه المغترين ، ص ١٤٣ .
(١٥٤) حلية الأولياء ، ص ٢٢٢ .
(١٥٥) تنبيه المغترين ، ص ١٤٤ .

حقه ، دون تمييز أو تفضيل بين صاحب أو أخ ، والى هذا المعنى يشـــير السهروردى البغدادى لمريده بقوله : « الايثار لا يكون عن اختيار ، انما الايثار أن تقدم حقوق الخلق أجمع ، على حقك ، ولا تميز فى ذلك بين أخ وصاحب وذى معرفة »(١٥٦) ٠

وكان عمر رضى الله عنه يتحلى بالايثار ، واستمع اليه وهو يحكى فى الايثار بقوله : أهدى الى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، رأس شاه ، فقال : ان أخى كان أحوج منى اليه ، فبعث به اليه ، فلم يزل كل واحد يبعث به الى آخر ، حتى تداوله سبعة أبيات ، ورجع الى الأول »(١٥٣) ٠

واجتمع عند أبى الحسن الأنطاكى نيف وثلاثون نفســا ، وكانوا فى قرية بقرب (الرى) ، ولهم أرغفــة معدودة لم تشبع جميعهم ، فكسروا الرغفان ، وأطلقوا السراج ، وجلسوا للطعام ، فلما رفع ، فاذا الطعام بحاله، ولم يأكل أحد ؛ ايثارا ، لصاحبه على نفسه(١٥٨) ٠

(ح) والغرور من الأخلاق المذمومة عند الصوفية ، وهو سكون النفس الى مايوافق الهوى، ويميل اليه الطبع ؛ عن شبهة وخدعة من الشيطان ؛ ولذلك ينهى بعض الصوفية تلاميذه عن صحبة المغرورين ، فيقول أحمــد الرفاعى ، لمريده ناصحا : « لا صحبة للمغرور »(١٥٩) ٠

ومن أصناف المغرورين فيما يرى بعض الصوفية ، من يريد الســوء للأصحاب والاخوان والأقران والنظراء ، كالكبر ، والحسد ، وطلب الرياسة، وما الى ذلك(١٦٠) ٠ ومن المغرورين أيضا ، فيما يرى الصوفية ، العالم الذى يسهر ليله ونهاره فى جمع العلوم وترتيبها ، وتحسين ألفاظها ، وجمع التصانيف فيها ، وهو يرى أن باعثه ، الحرص على اظهار دين الله ونشر

---

(١٥٦) عوارف المعارف ، حـ ٣ ، ص ٣٢ ٠

(١٥٧) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٢٣ ٠

(١٥٨) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٢٤ ٠

(١٥٩) أحمد الرفاعى ، الحكم ، مطبعة شرف موسى ، القاهرة عام١٣٠١هـ ،ص١٥٠

(١٦٠) راجع ، احياء علوم الدين ،، حـ ٣ ، ص ٣٣٢ ٠

شريعته ؛ ولعل باعثه الخفى هو طلب الذكر ، وانتشار الصيت فى الأطراف، وكثرة الرحلة اليه من الآفاق ، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء والمدح بالزهد والورع والعلم ، والتقديم له فى المهمات ، وايثاره فى الأغراض ، والاجتماع حوله للاستفادة بحسن الاصغاء عند حسن اللفظ والايراد ، والتمتع بتحريك الرأس الى كلامه ، والبكاء عليه ، والتعجب منه ، والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع (١٦١) ٠

ويرى الغزالى أن مثلهذا العالم ، قد يؤثر بعض الأصحاب علىبعض؛ لأنه أطوع له ، وأتبع لمراده ، وأكثر ثناء عليه ، وأشد اصغاء اليه ، وأحرص على خدمته(١٦٢) ٠

---

(١٦١) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٣٣٤ ٠
(١٦٢) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٣٣٤ ٠

الفصـــل الرابع

الصــحبة والرياضات العملية

(الصــحبة)

الفصـــل الرابع

الصــحبة والرياضات العملية

تمهيـــد :

تحدثنا فى الفصل السابق عن الصحبة ورياضة النفس من الناحيـــة النفسية والأخلاقية ، باحلال الصفات والأخلاق الحميدة ، محـــل الصفات والأخلاق المذمومة ، كالحسد ، والكبر والعجب ، والكذب ، وما الى ذلك ، باحلال الصفات المحمودة محلها ، كالتواضع والصدق ، وغيرها ٠

وفيما يلى سوف نتحدث عن الصحبة والرياضات العملية ، فنتحدث عن صحبة الشيوخ ، وعن العزلة والخلوة ، وعن السماع ، وأخيرا نبين ارتباط الصحبة بالذكر ، وفيما يلى بيان ذلك :

١ ـ صحبة الشيوخ

صحبة الشيوخ شيء أعم من مجرد التلمذة أو الاتباع ، وانما هى من قبل الشيخ ، تعهد وارشاد ومراقبة دقيقة للمريد ، وتصحيح أوضاع ، ونقد وتعليم ، وتبصير بأسرار الحياة الروحية ، وهى من جانب المريد طاعة وحب وتفويض ، وفناء فى شخصية الشيخ المرشد المربى ٠

وبهذا يستطيع الشيخ أن يوجه الطاقة الروحية الكامنة عند المريد ، ويخرجها من القوة الى الفعل ، على الوجه الذى يحقق لها ثمرتها(١) ٠

ولا تتهيأ هذه القيادة الروحية ، الا لكبـــار الروحانيين ، أصـــحاب البصيرة النافذة ، والفراسة القوية ، الصادقين فى ارشادهم ، المخلصين لدينهم وأصحابهم(٢) ٠ وحول هذا المعنى يقول محيى الدين بن عربى لمريده :

---

(١) أبو العلا عفيفى (الأستاذ الدكتور) ، التصـــوف ، الثورة الروحية فى الاسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، عام ١٩٦٣م ، ص ٢٦٦ ٠

(٢) راجع ، التصوف الثورة الروحية فى الاسلام ، ص ٢٦٦ ٠

« ومما لابد لك منه ، طلب شيخ مرشد ، والصدق من شعار المريد ، فان المريد اذا صدق مع الله ، قيض الله له من يأخذ بيده »(٣) ٠

وفائدة صحبة الشيوخ فيما يرى الصوفية ، أنها حصن من الانقلاب ، والرجوع ؛ فان رؤية الشيخ ، والجلوس معه ، ترياق مجرب ، فلا تميـــل نفسه الى الفضول أيضا ، مادام مع الشـيخ ، على حـــد قول ابن عجيبة الحسـنى(٤) ٠

ولابد أن تتم رياضة النفس عمليا ، بالصمت ، والجوع ، والسهر ، والذكر ، والسماع والعزلة والخلوة ، وما الى ذلك ، تحت ارشـــاد شيخ ناصح ، مؤدب ، يريه عيوب نفسه ، والى هذا المعنى يشير أبو على الثقفى (المتوفى عام ٣٢٨ هـ) ، بقوله : « لو أن رجلا جمع العلوم كلها ، وصحب طوائف الناس ، لا يبلغ مبلغ الرجال الا بالرياضة من شيخ أو امام أو مؤدب أو ناصح ، ومن لم يأخذ أدبه من آمر له ، وناه ، يريه عيوب نفسه ، لا يجوز الاقتداء به فى تصحيح المعاملات »(٥) ٠

وصحبة الشيوخ فيما يرى بعض الصوفية ، تكمن فيها السعادة واللذة الروحية ، يقول أبو مدين فى هذا الشأن لمريديه شعرا :

ما لـــذة العيش الا صـــحبة الفقرا
هم السلاطين والســادات والأمرا(٦)

وصحبة الشيوخ تقوم أساسا على الحب المتبادل بين المريد والشيخ ؛ ولذلك فقد أوجب بعض الصوفية على المريد أن يلاطفهم ويلاينهم ، ويؤثرهم على نفسه ، ويفديهم بقلبه وروحه ، والى هذا المعنى يشير أبو مدين قائلا :

---

(٣) محيى الدين بن عربى ، كنه مالابد منه للمريد ، القاهرة عام ١٣٢٨ ،ص٤٥ ٠
(٤) الفتوحات الالهية ، ص ٢٤٣ ٠
(٥) طبقات الصوفية ، ص ٣٦٥ ٠
(٦) ابن عطاء الله السكندرى . عنوان التوفيق فى آداب الطريق ، القاهرة ، عام ١٣٥٣ هـ ، ص ٢ ٠

احبـــــهم وادرايهـــــم واوثـــرهم
بمهجـتى ، وخصوصا منهموا نفرا(٧)

وصحبة الشيوخ فيما يرى الصوفية ، هى فى الحقيقة خـــدمة لهم ، ولذلك فان أبا مدين ينصح مريده بخدمة الشيوخ ، وعليـــه أن لا يضيق من خدمتهم ، بل العكس من ذلك ، يجب أن يكون مسرورا بهذه الخدمة ، فيقول أبو مدين لمريده : « كن مع المشايخ بالخدمة والاغتباط »(٨) ٠

واذا كان الأمر كذلك ، فعلى المريد أن ينهض ويجد ويجتهد فى خدمة الشيوخ ، عسى أن ينال رضاهم نتيجة لذلك ، كما يجب عليه أن يكون واسع الصدر ، فلا يضجر من خدمتهم ، ولا يقصر فيها ، فاذا ، قام المريد بهذه الخدمة خير قيام ، ولم يقصر فى طاعتهم ، فانه ينال رضا الله ؛ لأن رضا الله من رضاهم ، واستمع الى أبى مدين ، وهو يقول لمريده ناصحا :

وقدم الجد ، وانهض عنـــد خـدمته
عساه يرضى ، وحاذر أن تكون ضجرا
ففى رضـــاه ، رضـــا البارى وطاعتـــه
يرضى عليك ، وكن من تركها حذرا(٩)

ويذهب آسين بلاسيوس الى أنه كان من المعتاد فى حياة الصوفية فى الاسلام سواء كانت حياة خلوة أو حياة جماعة ، أن يتولى المريد ، القيام على الحاجات الدنيوية للشيخ أو الاخوان ، فيقوم بغسل الملابس ، واعداد الطعام ، الخ – كما كان الشأن كذلك أيضا فى الرهبانية المسيحية ؛ ولهذا كان المريد يسمى خادما »(١٠) ٠

فاذا وفق الله تعالى ، المريد الى شيخ مرشد ، أخذ عليه الشيخ العهد ،

---

(٧) عنوان التوفيق فى آداب الطريق ، ص ٨ ٠
(٨) شرح حكم أبى مدين ، ص ١٠٩ ٠
(٩) عنوان التوفيق فى آداب الطريق ، ص ٨ ٠
(١٠) آسين بلاسيوس ، ابن عربى ، حياته ومذهبه ، نقله عن الأسبانية ، الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وكالة المطبوعات بالكويت ، ١٩٧٩م ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ ٠

وهو عهد الوفاء بشروط الخرقة ، ويعـــرفه حقـــوقها ، يقول السهروردى البغدادى ، مشيرا الى ذلك « ويأخذ الشيخ على المريد عهد الوفاء بشرائط الخرقة ، ويعرفه حقوق الخرقة» (١١) .

ولبس الخرقة يكون علامة التفويض والتسليم من المريد الى الشيخ ، واشارة الى دخوله فى حكم الشيخ ، ودخول المريد فى حكم الشيخ ، يعتبر دخولا فى حكم الله وحكم رسوله ، ولبس الخرقة يكون كذلك ، ارتباط بين الشيخ وبين مريده ، وتحكيم من المريد للشيخ ، فهو يحكمه فى نفســـه ، لمصالح دينه ، يرشده ، ويهديه ، ويعرفه طـــريق المواجيد ، ويبصره بآفات النفوس ، وفساد الأعمال ، ومداخل العدو ، فيسلم نفســـه اليه ويستسلم لرأيه واستصوابه فى جميع تصاريفه ، فيلبسه الخرقة ؛ اظهارا للتصرف فيه ، على حد قول السهروردى البغدادى(١٢) .

والمريد الصادق اذا دخل تحت حكم الشيخ ، وصحبه ، وتأدب بآدابه ، يسرى من باطن الشيخ حال الى باطن المريد ، كسراج يقتبس من سراج(١٣).

وينتقل الحال من الشيخ الى المريد بواسطة الصـــحبة وسماع المقال (مقال الشيخ) ، ولا يكون هذا الا لمريد حصر نفسه مع الشيخ ، وانسلخ من ارادة نفسه ، وفنى فى الشيخ ، بترك اختيار نفسه ؛ فبالتآلف الالهى ، يصير بين الصاحب والمصحوب امتزاج وارتباط بالنسبة الروحية(١٤) .

وصحبة الشيوخ وملازمتهم ، مبدأ الخير كله للمريد ، فلا يزال المريد مع الشيخ ذلك ، فتأدبا ، بترك الاختيار ، حتى يرتقى من ترك الاختيار مع الشيخ ، الى ترك الاختيار مع الله تعـــالى ، ويفهم من الله كمــا يفهم من الشيخ ، ومبدأ هذا الخير كله ، الصحبة والملازمة ، فيما يقول ، السهروردى البغدادى(١٥) .

---

(١١) عوارف المعارف ، حـ ٢ ، ص ٤٥ .
(١٢) راجع ، عوارف المعارف ، حـ ٢ ، ص ٣٦ ٥٠
(١٣) عوارف المعارف ، حـ ٢ ، ص ٣٨ .
(١٤) عوارف المعارف ، حـ ٢ ، ص ٣٨ .
(١٥) عوارف المعارف ، حـ ٢ ، ص ٣٨ .

ويذهب الصوفية الى أن الخرقة ، هى مقدمة الصحبة والملازمة ، فالمريد الحقيقى يلبس خرقة الارادة ، وأن سر الخرقة ؛ أن الطالب الصادق (أى المريد) ، اذا دخل فى صحبة الشيخ وسلم نفسه وصار (كالولد الصغير مع الوالد) ، يربيه الشيخ بعلمه المستمد من الله تعالى(١٦) ٠

والشيخ كما يصوره لنا الصوفية ، هو الطبيب النفسى ، الذى يتعرف على عيوب مريديه ، ويدرك القلب القاسى ؛ نتيجة الذنوب والغفلة ، فيحمله على التوبة ، ويوقظه من الغفلة ، ويأمره بما يلين قلبه ، فيقول ابن عجيبة الحسنى فى هذا الشأن : « يكون حال هذا الشيخ الطبيب ، أن يدرك القلب الصلب ، وهو القاسى ؛ من الذنوب والغفلة ، فيحمله على التوبة ، ويوقظه من الغفلة ، ويأمره بما يلين قلبه ، كالصيام ، وصحبة الفقراء ، وقيام آخر الليل ، وغير ذلك مما يزيل علته وقساوته »(١٧) ٠

واذا ظهرت نفس الصوفى بغضب وخصومة مع بعض الاخوان ، فشرط أخيه أن يقابل نفسه (نفس أخيه) بالقلب ؛ فان النفس اذا قوبلت بالقلب ، انحسمت مادة الشر ، واذا قوبلت بالنفس ، ثارت الفتنة ، وذهبت العصمة(١٨) ٠

واذا شكا أحد الأصحاب من صاحب الى الشيخ فى خصومة أو غضب، ولجأ اليه للحكم فى هذا الشأن ، فان على الشيخ أن يفصل فى هذه الشكوى، ويحكم على المعتدى ، ويعاقبه على فعله ، وفى هذا المعنى يقول السهروردى البغدادى :

« ان الشيخ أو الخادم ، اذا شكا اليه فقير من أخيه ، فله أن يعاتب أيها شاء ، فيقول للمعتدى : لم تعديت ، وللمعتدى عليه ، ما الذى أذنبت حتى تعدى عليك وسلط عليك ، وهلا قابلت نفسه بالقلب ؛ رفقا بأخيك ،

---

(١٦) عوارف المعارف ، جـ ٢ ، ص ٤٥ ٠
(١٧) الفتوحات الالهية ، ص ١٠٤ ٠
(١٨) عوارف المعارف ، جـ ٢ ص ٧١ ٠

واعطاء الفتوة والصحبة حقها ؛ فكـــل منهما جان ، وخـــارج عن دائرة الجمعية »(١٩) ٠

وبعد أخذ العهد من الشيخ للمريد ، ولبس الخرقة ، يدخل المريد فى صحبة الشيخ ، وينعت الصوفية هذه البداية ووقت الدخـــول فيها بأنها (أوان الارتضاع) ، كما يصفون وقت مفارقة الشيخ والانتهاء من تربيته للمريد بأنه (أوان الفطام) ، فيقول السهروردى البغدادى لمريده : « اعلم أن للمريدين مع الشيوخ أوان ارتضـــاع ، وأوان فطـــام ٠٠٠٠٠ ، وأوان الارتضاع : أوان لزوم الصحبة ، والشيخ يعلم وقت ذلك ، فلا ينبغى للمريد أن يفارق الشيخ الا باذنه(٢٠) ٠ ، ولا يأذن الشيخ للمـــريد فى المفـارقة الا بعد علمه بأن ، آن له أوان الفطام ، وأنه يقدر أن يستقل بنفسه(٢١) ٠

ويبين لنا الصوفية ، شروط الشيخ ، فمنها أن يكون له خلوة خاصة ، ووقت خاص ، لا يسعه فيه معـاناة الخلق ؛ حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته ، ولا تدعى نفسه قوة ، ظنا منها أن استدامة المخالطة مع الخلق ، والكلام معهم لا يضره ، ولا يأخذ منه ، وأنه غير محتاج الى الخلوة ، ويؤكد السهروردى البغدادى على هذا المعنى بقوله : ان رســـول ﷺ ، مع كمال حاله ، كان له قيام الليـل ، وصـــلوات يصـــليها ويداوم عليها ، وأوقات يخلو فيها(٢٢) ٠

وكان الجنيد يؤكد هـــذا المعنى لأصحابه ، بقوله : « لو علمت أن صلاة ركعتين لى ، أفضل من جلوسى معكم ، ما جلست عندكم» (٢٣) ٠

وعلى الجملة : فاذا رأى (الشيخ) الفضل فى الخلوة ، يخلو ، واذا رأى الفضل فى الجلوة ، يجلس مع الأصحاب ، فتكـــون جلوته فى حماية خلوته ، وجلوته ٠ مزيدا لخلوته ، وفى هذا سر ؛ وذلك أن الآدمى ذو تركيب

---

(١٩) عوارف المعارف ، حـ ٢ ، ص ٧١ ٠
(٢٠) عوارف المعارف ، حـ ٢ ، ص ٤٣ ٠
(٢١) عوارف المعارف ، حـ ٢ ، ص ٤٤ ٠
(٢٢) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١٠٧ ٠
(٢٣) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١٠٩ ٠

مختلف ، فيه تضاد وتغاير ، من كونه مترددا بين السفلى والعلوى ؛ ولما فيه من التغاير ، له حظ من الفتور عن الصبر عن صرف الحق(٢٤) ٠

ولما كان الشيخ هو الطبيب المعالج للمريد ، وخاصـــة من الناحيـة النفسية ، وجب ليه أن يعتبر أحوال المريد النفسية ، وقدر استعداده النفسى للتصوف ، والى هذا المعنى يشير السهروردى البغدادى ، قائلا : « ينبغى للشيخ أن يعتبر حال المـريد ، ويتفرس فيه بنور الايمان ، وقوة العـــلم ، والمعرفة ، ما يتأتى منه ، ومن صلاحيته واستعداده ، فمن المريدين من يصلح للتعبد المحض ، وأعمال القوالب ، وهو طريق الأبحار ، ومن المريدين من يكون مستعدا ، صالحا للقرب وسلوك طريق المقربين المرادين بمعاملة القلوب ، والمعاملات السنية ، ولكل من الأبرار والمقربين ، مباد ، ونهايات ، فيكون الشيخ صاحب الاشراف علىالبواطن، ويعرفكل شخص وما يصلح له»(٢٥)٠

وهكذا يجعل الصوفية ، رغبة المريد ، واسـتعداده النفسى للتصوف ، شرطا أساسيا فى قبوله ٠ وهذه فى الحقيقة ، قاعدة تربوية هامة فى مجال التصوف ، نحتاج اليها فى مجتمعنا اليوم لتطبيقها ، ليس فى مجال التصوف فحسب ، وانما فى كل مجالات الحياة ، وقد بدأ البعض بتطبيق هذه القاعدة، فهناك على سبيل المثال لا الحصر ، الاختبـــارات النفســـية التى تعقد فى الكليات العسكرية ، وكليات الشرطة ، للراغبين فى الالتحاق بها ، وهناك مجالات أخرى ، بدأ القائمون عليها كذلك فى تطبيق هـــذه القاعـــدة على المرشحين للعمل فى هذه المجالات ، ولكننا نرى أنه ينبغى تطبيق هذه القاعدة التربوية والسيكولوجية فى كل مجالات ، ونواحى النشاط فى الدولة ٠

ومن وظائف الشيخ كذلك ـ لما كان طبيبا ، يعالج النفس ، أنه اذا وجد ضعفا فى مقاومة النفس ومجاهدتها ، أن يرفق بالمـــريد ويوقفه على حـد

---

(٢٤) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١٠٩ ، ١١٠ ٠

(٢٥) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١٠٥ ، ويرجع الفضل فى استخدام مصطلح الاستعداد النفسى للتصوف الى أستاذنا الدكتور أبو الوفا التفتازانى ، انظر ، الطريقة الأكبرية ، بحث نشر لسيادته بالكتاب التذكارى لمحيى الدين بن عربى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، عام ١٩٦٩م ص ٣٢٢ ، وراجع كذلك ، الوقت عند صوفية الاسلام، بحث الماجستير الخاص بنا ، من آداب القاهرة ، ص ٣٥ ٠

الرخصة الشرعية ، فمادام المريد لا يتعدى حدود هذه الرخصة فهو حر ، حتى اذا خالط اخوانه وأصــحابه ، وتدرب على الالتزام برخص الشريعة ، فانه يتدرج عن طريق الرفق به بواسطة الشيخ الى أوطان العزيمة ، ويورد أبو سعيد بن الأعرابى (المتوفى عام ٣٤١ هـ) هذه الحكاية ؛ ليثبت بها هذا المعنى ، فيقول : « كان شاب يعرف « ابراهيم الصائغ » ، وكان لأبيه نعمة ، فانقطع بيدى أبى أحمد ، شئ من الدراهم ، فكان يشترى له الرقاق والشواء والحلوى ، ويؤثره عليه ويقول : هذا خرج من الدنيا ، وقد تعود النعمة ، فيجب أن نرفق به ، ونؤثره على غيره(٢٦) ٠

واذا رأى الشيخ من بعض المريدين مكروها ، أو عـــلم من حــــاله اعوجاجا ، أو أحس منه بدعوى ، أو رأى أنه داخله عجب ، أن لا يصرح له بالمكروه ، بل يتكلم مع الأصحاب ، ويشير الى المكروه ، الذى يعلم ، ويكشف عن وجه المذمة مجملا ، فتحصل بذلك الفائدة للكل(٢٧) ٠

ويرى بعض الصوفية أن عدم التصريح للمريد بالمكروه ، يعتبر اكثر أثرا لتآلف القلوب ، فيذهب السهروردى البغدادى الى أن هذا أقرب الى المداراة ، وأكثر لتآلف القلوب(٢٨) ٠

والشيخ اذا رأى من المريد تقصيرا فى خــــدمة ندب اليها ، يحمــل تقصيره ، ويعفو عنه ، ويحرصه على الخدمة بالرفق واللين(٢٩) ٠

وعلى المريد ، اذا بدت منه مخالفة ، أو ظهر فيه عيب ، أن يبادر بالاقرار بها بين يدى شيخه ، مهما كانت عاقبة هذا الفعل ، كما يجب عليه أيضا ، الاعتذار لشيخه عما ظهر منه من العيوب ، مع عدم تكرار ذلك مرة أخرى ، والى هذا المعنى يشير أبو مدين بقوله لمريده :

---

(٢٦) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١١٤ ٠
(٢٧) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١١٧ ٠
(٢٨) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١١٧ ٠
(٢٩) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١١٧ ٠

وان بدا منـك عيبـا فاعتـرف وأقم
وجه اعتـذارك عما منـك جـرا(٣٠)

واذا كان الأمر كذلك،فانه يجب على المريد أن يطلب الصفح على مابدر منه من عيب ، وأن يطلب من شيخه الرفق فى توقيع العقوبة عليه اذا أراد ، وقد أشار أبو مدين الى هذا المعنى ، ناصحا مريده بقوله :

وقـل : عبيـدكم أولـى بصـفحكم
فسـامحوا ، وخذوا بالرفق يافقرا(٣١)

ولما كان أبو مدين ينصح مريده بطلب العفو والصفح من شيخه ، على ما اقترفه من ذنوب ، فلابد ـ بصفته شيخ التربية ـ يرى أن الشيخ ينبغى أن يصفح عن المريد ، أو يخفف العقوبة عليه ، ويأخـذه بالرفق ، ويرى أبو مدين أن على المريد اذا أراد أن يعتذر لشيخه عما بدر منه من مخالفة ، أن يحط رأسه بين يدى الشيخ ، لأن ذلك هو سبيل الاعتذار ، فيقول أبو مدين لمريده حول هذا المعنى شعرا :

وحط رأسـك واسـتغفر بلا سـبب
وقم على قدم الانصاف معتذرا(٣٢)

على أن ابن عجيبة الحسنى لا يوافق أبا مدين فى هذا الصدد ، فهو يقول : أما حط الرأس ، فهو أن الفقير اذا أساء الأدب مع أحد من الفقراء أو غيرهم ، يأتى اليه (أى الى الشيخ) ، ويحط رأسه بين يديه ؛ ليؤدبه ، أو يقتص منه ، أو يسمح له ، وهذا لم يرد فى الشريعة ، ولا جرى به عمل فى الطريقة ، والصواب اجتنابه ؛ لأن ذلك كان عنـد من قال بالقصاص ؛ ليقتص المجنى عليه من الجانى ، فهو من باب التمكن من القصاص ، وهو (أى القصاص) يتأتى بغير حط الرأس ، فلا حاجة الى ابتداع هذا الحط ، وقد مكن عليه السلام عائشة من القصاص ، ولم يكن فيـه شىء زائد على

---

(٣٠) عنوان التوفيق فى آداب الطريق ، ص ٥ .
(٣١) عنوان التوفيق فى آداب الطريق ، ص ٥ .
(٣٢) عنوان التوفيق فى آداب الطريق ، ص ٥ .

التمكين من القصاص ، لمن أراد أن يخصه الله بخلاص نفسه فى الدنيا قبل الآخـرة(٣٣) ٠

كما يرى ابن عجيبة أن هذه الحالة لم يجر بها عمل فقراء المغرب ، ولا مستند لها من السنة ، فتركها أولى ، الا لضرورة ، وهذا خلاف ما ذكره أبو مدين(٣٤) ٠ ويرى ابن عجيبة أيضا ، أنه قد يكون أبو مدين أراد به المبالغة فى الاعتذار(٣٥) ٠

ويذهب ابن البنا السرقسطى فى كتابه « المباحث الأصلية » ، الى نفس ما ذهب اليه ابن عجيتة فى هذا الشأن ، فهو يقول شعرا :

وليس حـــط الـــرأس من آدابه	بل الصـــواب كان فى اجتنـــابه
بل هـــو مبنى على القصــــاص	لـــن أراد حســـبه الخـــلاص
وليس فى قيـــــام الاســـتغفار	أصل صحيح واصطلاح جار(٣٦)

ومن الشروط التى لابد منها فى الشيخ ، فيما يرى ابن عجيبة الحسى ، أن يكون عنده من الكتاب والسنة ، ما يقيم به ، مالابـــد منه فى الرســـوم الشرعية ، وما يبنى عليه وظائف سلوكه ، واذا انضاف الى ذلك ، ما يفتح الله به عليه من الحكمة فى باطنه ، فانه يكون له فى ذلك نور يمشى به فى الناس ، يهديه الى فهم خطابات الكتاب والسنة(٣٧) ٠

هذا ، ويجب أن يكون الشيخ علاما بالأمور التى يخاف على المريد منها، فيأمره بالبعد عنها ، كالركون الى العز والتعظيم ، أو الى الدنيا ، والميل الى شىء منها ومن أسبابها ، ومخالطة أهلها ، وسماع حديثها(٣٨) ٠

وينبغى أن يكون الشيخ على دراية تامة بالعلم الباطن ؛ فيعلمه للمريد ،

---

(٣٣) عنوان التوفيق فى آداب الطريق ، ، ص ٥ ٠
(٣٤) الفتوحات الالهية فى شرح المباحث الأصلية ، ص ٢٧٠ ٠
(٣٥) الفتوحات الالهية ، ص ٢٧٠ ٠
(٣٦) الفتوحات الالهية ، ص ١٨٢ ٠
(٣٧) الفتوحات الالهية ، ص ٩٧ ٠
(٣٨) الفتوحات الالهية ، ص ٩٣ ٠

وهو علم الطريقة والحقيقة ، فيكون عند الشيخ علم تام بالله وصفاته وأسمائه ومتعلقاتها وأحكامها وتفاصيلها وفوائدها وحكمها وأسرارها ، وعـــلم تام بآفات الطريق ، ومكايد النفس والشـــيطان ، وطرق المواجيـــد ، وتحقيق المقامات ، قد حصل له ذلك على سبيل الذوق والوجدان ، بحيث اذا استخبر عن آفات الطريق وعلاماته ، وعن حقيقة المقصد ، يخبر بحقيقة الأمر على ما هو عليه ، وحصلت له مع ذلك قوة ، وتمكن من رفـــع الموانع ، وقطـــع العلائق الظاهرة والباطنة ، وبصيرة نافذة ، ينظر بها فى قابلية المريدين والمسترشدين واستعداداتهم ، يحمل كل أحد على شاكلة قابليته ، ويعين له طريقا قريبا يفضى منها الى ربه(٣٩) ٠

وينبغى للشيخ فيما يرى ابن عجيبة الحسنى ، أن يكون له مجلسان ، مجلس يخص به أهل النهايات ، ومجلس ينعم به أهل البدايات والنهايات ، وينبغى له أيضا أن لا يلتزم مجلسا واحدا لا يتعداه ، بل مهما اتفق اجتماعهم، ذكرهم (بالله تعالى) ، فقد يكون منهم من يحب الاستعجال فى سفره ، ومنهم من يريد المقام(٤٠) ٠

هذا مع قلة المريدين ، أما مع كثرتهم ، فيجب على الشيخ أن يجعل لهم مجلسا واحدا ، لأهل البدايات والوسط والنهايات(٤١) ٠

ومن واجبات الشيخ ، فيما يرى السهروردى البغدادى ، التعطف على الأصحاب (المريدين) ، وقضاء حقوقهم فى الصحة والمرض ، ولا يترك حقوقهم ؛ اعتمادا على ارادتهم وصدقهم(٤٢) ٠

هذا عن الشيخ وشروطه ، والقواعد التى يجب أن يراعيها مع مريديه ، أما عن المـــريد ، فيرى الســـهروردى البغدادى أنه من الأدب أن لا يدخـــل (المريد) فى صحبة الشيخ الا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه ، وأنه أقوم بالتأديب من غيره ، فمتى كان عند المريد تطلع الى شىء آخر ،

---

(٣٩) الفتوحات الالهية ، ص ٩٧ ٠

(٤٠) الفتوحات الالهية ، ص ١١٨ ٠

(٤١) راجع ، الفتوحات الالهية ، ص ١١٩ ٠

(٤٢) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ١١٢ ٠

لا تصفو صحبته ، ولا ينفذ القول فيه ، ولا يستعد باطنه بسراية حال الشيخ اليه ، فان المريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالمشيخة ، عرف فضله ، وقويت محبته ، والمحبة والتآلف هو الواسطة بين المريد والشيخ ، وعلى قدر قوة المحبة تكون سراية الحال ، لأن المحبة عـــلامة التعارف ، والتعارف علامة الجنسية (أى المشابهة والمجانسة) ، والجنسية جالبة للمريد حال الشيخ، أو بعض حاله »(٤٣) ٠

ومن أدب المريد مع شيخه كذلك ، أن لا يكتم عن الشيخ شيئا من حاله، ومواهب الحق عنده ، وما يظهر له من كرامة واجابة ، ويكشف للشيخ من حاله ما يعلم الله تعالى منه ، وما يستحى من كشفه ، يذكره ايماء وتعريضا ؛ فان المريد ، متى انطوى ضميره على شىء ، لا يكشــفه للشيخ تصريحا أو تعريضا ، يصير على باطنه منه (عقدة) فى الطريق ، وبالقول مع الشيخ (تنحل العقدة) وتزول(٤٤) ٠

ويرى أستاذنا الدكتور أبو الوفا التفتازانى ، أنه اذا سلك المريد تحت اشراف شيخه ، فلابد له ـ فى رأى ابن عربى ـ أن لا يكتم عنه شيئا مما يخطر له فى نفسه ، ابان سلوكه وما يطرأ عليه فيه من أحوال ، والحكمة فى ذلك أن المريد متى أظهر شيخه على أحواله ، أمكن للشيخ أن يعــالجه العلاج النفسى الصحيح الملائم له ، وهذه قاعدة لها أهميتــا من النــاحية النفسية فى سلوك التصوف ، وقد نبه اليها كثير من شيوخ التصوف ، مثل السهروردى البغدادى ، الذى فطن الى ما يسميه علماء النفس المحدثون ، مثل (فرويد) بالعقدة النفسية complex ، التى يجب أن يكشفها المحلل ، ويزيلها بالاقناع(٤٥) ٠

ولا يجب الانكار على الشيخ فى شىء من أموره ، سرا وجهرا ، فينبغى للمريد أنه كلما أشكل عليه شىء من حال الشيخ ، يذكر قصة موسى مع الخضر

---

(٤٣) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ٩٤ ٠

(٤٤) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ٩٣ ، ٩٤ ٠

(٤٥) الطريقة الأكبرية ، بحث الأستاذ الدكتور التفتازانى بالكتاب التذكارى لمحيى الدين بن عربى ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ ٠

عليهما السلام ، وكيف كان الخضر يفعل أشياء ، ينكرها موسى ، واذا أخبره الخضر بسرها ، يرجع موسى عن انكاره ، فما ينكره المريد ؛ لقلة علمه بحقيقة ما يوجد من الشيخ »(٤٦) ٠

ومن آداب المريد مع الشيخ ، التأدب معه ؛ بترك الاستعجال فى الاقدام عليه ، وصبره الى أن يخرج الشيخ من موضع خلوته ، ومما يؤكد ذلك ، أن عبد القادر الجيلانى ، كان اذا جاء اليه فقير زائر ، يخبر بالفقير ، فيخرج ، ويفتح جانب الباب ، ويصافح الفقير (أى المريد) ، ويسلم عليه ولا يجلس معه ، ويرجع الى خلوته ، واذا جاء أحد ممن ليس من زمرة الفقراء ، يخرج ويجلس معه ٠ فخطر لبعض الفقراء نوع انكار ؛ لتركه الخروج الى الفقير ، وخروجه لغير الفقير ، فانتهى ما خطر للفقير الى الشيخ ، فقال : الفقير رابطتنا معه ، رابطة قلبية ، وهو أهل ، وليس عندنا أجنبية ، فنكتفى معه بموافقة القلوب ، ونقنع بها عن ملاقاة الظاهر بهذا القدر ، وأما من هو من غير جنس الفقراء ، فهو واقف مع العادات والظاهر، فمتى لم يوف حقه من الظاهر ، استوحش ، فحق المريد عمارة الظاهر والباطن بالأدب مع الشيخ(٤٧) ٠

ومن آداب المريد مع الشيخ ، السكينة والوقار فى الجلوس بين يديه ، فيما يرى ابن عجيبة الحسنى ، فلا يضحك بين يديه ، ولا يرفع صوته عليه ، ولا يتكلم ، حتى يستدعيه للكلام ، أو فهم عنه بقرائن الأحوال ، كمال المذاكرة بخفض صوت ورفق ولين ، ولا يأكل معه ولا بين يديه ، ولا ينام معه أو قريبا منه(٤٨) ٠

وفى كل الأمور ، ينبغى أن يكون المريد مع شيخه ، لا ينبسط برفع الصوت وكثرة الضحك ، وكثرة الكلام الا اذا بسطه الشيخ(٤٩) ٠

وينبغى للمريد أن لا يحدث نفسه بطلب منزلة فوق منزلة الشيخ ، بل

---

(٤٦) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ٩٠ ٠
(٤٧) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ٨٨ ٠
(٤٨) ايقاظ الهمم ، ص ١٣٤ ٠
(٤٩) عوارف المعارف ، حـ ٤ ، ص ٧٩ ٠

يحب للشيخ كل منزلة عالية ، ويتمنى للشيخ عزيز المنح ، وغرائب المواهب. والى هذا المعنى يشير ابن عجيبة الحسنى بقوله أنه يجب على المريد الانعزال عن عقله ورئاسته وعلمه وعمله ، الا ما يرد عليه من قبل شيخه ، كما فعل شيخ طريقتنا الشاذلى رضى الله عنه ، عند ملاقاته بشيخه ؛ لينال الشراب الصافى من بحر مدده الوافى(٥٠) ٠

٢ ـ الصـــمت

وهو من الوسائل العملية لرياضةالنفس عند صوفية الاسلام ، ويعنون به كف اللسان عن الحـــديث فيما لا ينفع ، أو السكوت والانصــــات عنـد ورود ، وارد الهى ٠

ـ والصمت عنـد الصـوفية يكون باللسـان والقلب معـا ، فيمـا لا يعنى المريد ٠

ويستند الصمت عند الصــوفية الى مصـــدر اســـلامى من الكتاب والســنة(٥١) ٠

وقد وضع الصوفية ، قاعدة هامة فى هذا الشأن ، وهى أن فى الصمت سلامة ونجاة ، وهذا هو الأساس والقاعدة الأخلاقية عندهم ، فان خطـــر اللسان عظيم ، ولا نجاة من خطره الا بالصمت(٥٢) ٠

وقد تحدث الرسول ﷺ فى الصمت ، فيقـــول أبو ذر الغفارى ، عن الرسول ﷺ أنه قال : « اذكر أخاك اذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به ، واعفه عما تحب أن يعفيك منه ، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به ، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالاحسان ، مأخوذ بالاحترام »(٥٣) ٠

---

(٥٠) ايقاظ الهمم ، ص ١٣٥ ٠

(٥١) يقول تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا) سورة الأحزاب آية ٧٠ ، ويقول الرسول صلى اللـه عليه وسلم : (من كان يؤمن باللـه واليوم الآخر ، فليقل خيرا ، أو ليصمت) ، انظر ، ضياء الدين الكمشخانوى ، جامع الأصول ، القاهرة ، ١٣٢٨ هـ ، ص ١٧٦ ٠

(٥٢) راجع احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٩٣ ٠

(٥٣) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٩٧ ٠

ويقول عمر رضى الله عنه فى نفس المعنى : « لا تعرض لما لا يعنيك ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك من القوم الا الأمين ، ولا أمين الا من خشى الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر ؛ فتتعلم منه فجوره ، ولا تطلعه على سرك ، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر ؛ فتتعلم منه فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر فىأمرك الذين يخشون الله تعالى(٥٤)٠

والكلام فيما لا يعنى الانسان ، أن يتكلم بكلام ، ان سكت عنـــه لم يرتكب الآثام والمعاصى والسيئات والأخلاق المذمومة ، ومثال ذلك ، الجلوس مع الأصحاب والاخوان ، والكـــلام معهم عن الأســـفار وما وقع فيها من الأحداث ، وما رأى فيها الانسان من الجبال والأنهار ، وما استحسن من الأطعمة والثياب ، والى هذا المعنى يشير الغزالى بقوله : « حد الكلام فيما لا يعنيك ، أن تكلم بكلام ، لو سكت عنه لم تأثم ، ولم تستضر به فى حال ولا مال ، ومثاله أن تجلس مع قوم ، فتذكر لهم أسفارك ، وما رأيت فيها من جبال وأنهار ، وما وقع لك من الوقائع ، وما استحسنته من الأطعمة والثياب، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ، ووقائعهم ، فهذه أمور ، لو سكت عنها لم تأثم ، ولم تستضر »(٥٥) ٠

والسؤال عما لا يعنى ، يؤدى بالســائل الى تضيع وقته بلا فائدة ، ويؤدى بالصاحب الذى تطلب منه الاجــابة الى تضييع وقته فيما لا ينفع ، واستمع الى الغزالى وهو ينهى مريده عن ذلك بقوله : « فأنت مع ذلك كله ، مضيع زمانك ، وأنى تسلم من الآفات ٠٠٠٠ ، ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك ، فأنت بالسؤال مضيع وقتك ، وقد ألجــأت صاحبك أيضا ، بالجواب الى التضييع »(٥٦) ٠

ويضع بعض الصوفية العلاج لذلك ، وهو العزلة ، بأن يعتزل الانسان الكلام الذى لا يعنيه ، ويلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعنيه ؛ حتى يعتاد اللسان ترك مالا يعنيه »(٥٧) ٠

---

(٥٤) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٩٧ ، ٩٨ ٠
(٥٥) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٩٨ ٠
(٥٦) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٩٨ ٠
(٥٧) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٩٨ ٠

ومن آفات اللسان فيما يرى الصوفية ، المراء والجدال ، والمراء عند الصوفية هو كل اعتراض على كلام الغير ؛ باظهار خلل فيه ، اما فى اللفظ ، واما فى المعنى ، واما فى قصد المتكلم(٥٨) ٠

أما المجادلة ، فهى عبارة عن قصد افحام الغير وتعجيزه وتنقيصه ؛ بالقدح فى كلامه ونسبته الى القصور أو الجهل(٥٩) ٠

والمراء مذموم ، ونهى عنه الرسول ﷺ ، بقوله : « لا تمار أخاك ولا تمازحه ، ولا تعده موعدا فتخلفه »(٦٠) ٠

ويقول ابن أبى ليلى فى هذا الشأن : « لا أمارى صاحبى ، فاما أن أكذبه ، واما أن أغضبه »(٦١) ٠

وترك المراء يكون بترك الانكار والاعتراض ، وذلك فيما يقول أبو حامد الغــزالى(٦٢) ٠

والمزاح من آفات اللسان ، وهو مذموم ، قال الرسول ﷺ : « لا تمار أخاك ولا تمازحه »(٦٣) ٠

ويفرق بعض الصوفية بين المراء ، والمزاح ، فالمراء فيه ايذاء ؛ لأن فيه تكذيبا للأخ والصديق ، أو تجهيلا ، وأما المزاح فمطايبة ، وفيه انبساط وطيب قــــلب(٦٤) ٠

وقد يسأل سائل ، لما كان الأمر كذلك ، وكان المزاح فيه انبساط وطيب قلب ، فلماذا ينهى عنه ، ويذم ؟

ويجيب على هذا التساؤل ، الغزالى ، فهو يقول لمريده فى هذا الشأن :

---

(٥٨) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٠١ ٠
(٥٩) احياء علوم الدين ،حـ ٣ ، ص ١٠١ ٠
(٦٠) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٠١ ٠
(٦١) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٠١ ٠
(٦٢) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٠١ ٠
(٦٣) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١١٠ ٠
(٦٤) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١١٠ ٠

« اعلم أن المنهى عنه ، الافراط فيه (أى : المزاح) ، أو المداومة عليه ، أما المداومة ؛ فلأنه اشتغال باللعب ، والهزل فيه ، واللعب مباح ، ولكن المواظبة عليه مذمومة ، وأما الافراط فيه ، فانه يورث كثرة الضحك ، وكثرة الضحك تميت القلب(٦٥) ٠

والمزاح يورث الضغينة ، ويجر الى القبيح من القول والفعل ، وقد أشار الى ذلك عمر بن عبد العزيز ، حيث قال : « اتقوا الله ، واياكم والمزاح ؛ فانه يورث الضغينة ، ويجر الى القبيح ، تحدثوا بالقرآن ، وتجالسوا به ، فان ثقل عليكم ، فحديث حسن ، من حديث الرجال »(٦٦) ٠

ويدعو الصوفية الى الصمت عن السخرية والاستهزاء ، والسخرية تعنى الاستهانة والتحقير ، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقـــول ، وقد يكون بالاشـــارة والايماء(٦٧) ٠

وقد دعى الرسول ﷺ الى ترك السخرية ، بقوله : « من عير أخاه بذنب قد تاب منه ، لم يمت حتى يعمله »(٦٨) ٠

ويعتبر الوعد الكاذب من الآفات التى تؤدى بصاحبها الى النفـاق فيما يرى بعض الصوفية ، فيرى أبو حامد الغزالى أن اللسان سـباق الى الوعد ، ثم ان النفس ربما لا تسمح بالوفاء ، فيصير الوعد خلفا ، وذلك من أمارات النفاق(٦٩) ٠

والكذب من الأخلاق الذميمة ، ومن آفات اللسان ، وقد أشار الرسول ﷺ الى تجنب الكذب ، فقال : « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا ، هو لك مصدق ، وأنت له به كاذب »(٧٠) ٠

---

(٦٥) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١١٠ ٠
(٦٦) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١١١ ٠
(٦٧) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١١٤ ٠
(٦٨) احياء علوم الدين حـ ٣ ، ص ١١٤ ٠
(٦٩) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١١٤ ٠
(٧٠) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١١٦ ٠

والغيبة من آفات اللسان ، وتعنى الغيبة ، ذكر الاخوان والأصحاب والأصدقاء بما يكرهون ، والى هذا المعنى يشير الغزالى بقوله لمريده : « اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص فى بدنه، أو نسبه ، أو فى خلقه أو فى فعله ، أو فى قوله ، أو دينه ، أو فى دنياه(٧١)٠ وقد نص الله تعالى على ذم الغيبة ، وشبه صاحبها بأنه آكل لحم الميتة ، فقال تعالى : (ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه)(٧٢) ٠

وقال الرسول ﷺ : « لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تناجشوا ، ولا تدابروا ، ولا يغتب بعضكم بعضا ، وكونوا ، عباد الله ، اخوانا »(٣٧)٠

والأسباب الباعثة على الغيبة فيما يرى بعض الصوفية ، موافقة الاخوان والأصدقاء والأصحاب ، ومساعدتهم على الكلام فى ذكر الأعراض؛ اعتقادا منه أنه يشاركهم فى السراء والضراء ، فيخوض معهم فى ذكر عيوب الناس ، وما أعمق المعنى فيما يقول الغزالى فى هذا الشأن : « الأسباب الباعثة على الغيبة موافقة الاقران ، ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام؛ فانهم اذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض ، فيرى أنه لو أنكر عليهم ، أو قطع المجلس ، استثقلوه ، ونفروا عنه ؛ فيساعدهم ، ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، ويظن أنه مجاملة فى الصحبة ، وقد يغضب رفقاؤه ؛ فيحتاج الى أن يغضب لغضبهم ؛ اظهارا للمساهمة فى السراء والضراء ، فيخوض معهم فى ذكر العيوب والمساوىء »(٧٤) ٠

والحسد من الأسباب التى تدعو الى الغيبة ، وقد يكون الحسد مع الصاحب أو الصديق المخلص ، والرفيق المحسن ، فقد يثنى الناس على شخص ما ؛ لحبهم له ، فيريد صاحبه زوال تلك النعمة عنه ، فلا يجد سبيلا الا بالقدح فيه(٧٥) ٠

---

(٧١) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٢٣ ٠
(٧٢) سورة الحجرات آية ١٢ ٠
(٧٣) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٢٣ ٠
(٧٤) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٢٧ ٠
(٧٥) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٢٧ ٠

ومن الأخلاق المذمومة فيما يرى الصوفية ، النميمة ، وهى من آفات اللسان ، التى يجب الصمت عنها ، وحقيقتها افشاء السر ، وهتك الستر عما يكره الانسان كشفه ، فينقل للغير ، القول الذى قيل فى حقه(٧٦) ·

ومما يؤكد ذلك أن رجلا قال لعمرو بن عبيد ، ان الأسوارى ، مايزال يذكرك فى قصصه بشر ، فقال له عمرو : ياهذا مارعيتحق مجالسة الرجل ، حيث نقلت الينـــا حديثه ، ولا أديـــت حقى ، حـــين أعلمتنى عن أخى ما أكره » ·

وعلى الجملة : فان صاحب النميمة فيما يرى الصـــوفية ، ينبغى أن يبغض ، ولا يوثق بقوله ولا بصداقته(٧٧) ·

٣ ـ العـــزلة والخـلـوة

هناك رياضات عملية يأمر بها الصوفية مريديهم ، كالعزلة والخلوة ، ويرى بعض الصوفية أن العزلن نوعان ، عزلة العوام : وهى مفارقة الناس بجسده ، طلبا لسلامتهم من شره ، لا لسلامته من شرهم »(٧٨) ·

وأما النوع الثانى من العزلة فيما يرى الصوفية ، فهى عزلة الخواص، وهى مفارقة الصفات البشرية الى الصفات الملكية(٧٩) ·

وللعزلة فوائد ، فيما يرى صوفية الاســلام ، منها التفرغ للعبـــادة والفكر ، والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى فى أمر الدنيا والآخرة ، وملكوت الســموات والأرض ؛ فان ذلك يسـتدعى فراغا ، ولا فراغ مع المخالطــة(٨٠) ·

---

(٧٦) راجع احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٣٥ ·
(٧٧) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ١٣٥ ·
(٧٨) جامع الأصول ، ص ٢١٣ ·
(٧٩) جامع الأصول ، ص ٢١٣ ·
(٨٠) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ص ٢٠١ ·

ومن فوائد العزلة فيما يرى الصوفية أيضـــا ، الســـلامة من الغيبة والاشتغال بزينة الدنيا ولهوها ، والأمان من ملل الأصدقاء(٨١) ٠

والحاصل ، أن العزلة الحقيقية عند الصوفية ، اعتـــزال الصــفات المذمومة ومفارقتها(٨٢) ٠

ومن وفقه الله للعزلة ، فقد وصل الى سعادة الأبد ، والى هذا المعنى يشير الكمشخانوى قائلا : « اعلم أن التوفيق للعزلة دليل سعادة الأبد ؛ لأن من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راءاهم ، ومن راءاهم نافقهم ، ومن نافقهم ، استحق الدرك الأسفل من النار(٨٣) ٠

والخلاص من شر الناس ، من فوائد العزلة عند الصـــــوفية ، فانهم يؤذونك ، مرة بالغيبة ، ومرة بسوء الظن ، ومـــــرة بالاقتراحات والاطماع الكاذبة التى يعسر الوفاء بها ، وتارة بالنميمة والكذب(٨٤) ٠

ولا شك أن من اختلط بالناس ، وشاركهم فى أعمالهم ، لا ينفك عن حاسد ، وعدو ، يسىء الظن به ، ويتوهم أنه يستعد لمعاداته ، ونصب المكيدة عليه ٠٠٠٠ فمعاشرة الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار ٠٠٠٠ وفى العزلة خلاص من أنواع الشر الذى يلقاه الانسان من معارف وممن يختلط به(٨٥) ٠

ومن فوائد العزلة فيما يرى الصوفية ، الخلاص من مشاهدة الحمقى ومقاساة حمقهم ، والخلاص من الثقلاء من الناس ، والى هذا المعنى يشير أحمد الرفاعى بقوله : « الصحبة مع الأحمق نقصـــــان فى الدين والدنيا ، وحسرة وندامة عند الموت ، وخسارة فى الآخرة »(٨٦) ٠

والخلاص من الفتن والخصومات ، من فوائد العزلة فيما يرى الصوفية،

---

(٨١) جامع الأصول ، ص ٢١٣ ٠
(٨٢) جامع الأصول ، ص ٢١٤ ٠
(٨٣) جامع الأصول ، ص ٢١٤ ٠
(٨٤) احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ٢٠٨ ٠
(٨٥) راجع احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ٢٠٨ ٠
(٨٦) البرهان المؤيد ، ص ٦٣ ٠

ويرى الغزالى أنه قلما تخلو البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات ، فالمعتزل عنهم ، فى سلامة منها(٨٧) ٠

والعزلة وسيلة الى الله تعالى ، ولا يتمكن احد من العزلة الا بالتمسك بكتاب الله تعالى ، والمتمسكون بكتاب الله تعالى ، هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله ، الذاكرون الله بالله ، عاشوا بذكر الله ، وماتوا بذكر الله ، ولقوا الله بذكر الله ، ولا شك أن هؤلاء ، تمنعهم المخالطة عن الفكر والذكر ، فالعزلة أولى بهم ، ولذلك كان رسول ﷺ فى ابتداء أمره ، يتبتل فى جبل حراء ، ويتبتل اليه ؛ حتى قوى فيه نور النبوة ، فكان الخلق لا يحجبونه عن الله ، فكان ببدنه مع الخلق ، وبقلبه مقبلا على الله تعالى ؛ حتى كان الناس يظنون أن أبا بكر خليله(٨٨) ٠

ويذهب الغزالى الى أنه لن يسع الجمع بين مخالطة الناس ظاهرا ، والاقبال على الله سرا ، الا قوة النبوة ، فلا ينبغى أن يغتر كل ضعيف بنفسه ، فيطمع فى ذلك ، ولا يبعد أن تنتهى درجة بعض الأولياء اليه ، والى هذا المعنى يشير أبو القاسم الجنيد بقوله :

« أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة ، والناس يظنون أنى أكلمهم ، وهذا انما يتيسر للمستغرق بحب الله ، استغراقا ، لا يبقى لغيره فيه متسع(٨٩) ٠

ويرى عبد الوهاب الشعرانى ، أن من أخلاق السلف الصالح ، كثرة عزلتهم عن الناس ، وعدم كثرة مخالطتهم الا لمصلحة شرعية ؛ فمن أكثر من مخالطة الناس ، فقد خرج عن طريق النفع ؛ وذلك لأن من كثرت رؤية الناس له ، هان فى عيونهم ، وسقط عندهم(٩٠) ٠

وحصول الزهد فى الدنيا ، والقناعة منها ، من فوائد العزلة عند الصوفية ، وقد روى عن عيسى عليه السلام : « لا تجالسوا الموتى ، فتموت

---

(٨٧) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢٠٦ ٠

(٨٨) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢٠٢ ٠

(٨٩) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢٠٢ ٠

(٩٠) تنبيه المغترين ، ص ١٥٣ ٠

قلوبكم ، قالوا : من الموتى يا روح الله ؟ قال المحبـــون للدنيا ، الراغبون فيهـا »(٩١) .

ومن فوائد العزلة ، فيما يرى الصوفية ، راحة القلب والبدن ، يقول ابن عجيبة الحسنى فى هذا الشأن : « ان فى مخالطة الناس ما يوجب تعب القلب ؛ بالاهتمام بأمرهم ، وتعب البدن ؛ بالسعى فى أغراضهم ، وتكميل مرادهم ، وان كان سى ذلك الثواب ، فقد يفوته ماهو أعظم وأهم ، وهو جمع القلب فى حضرة الرب »(٩٢) .

ويفرق ابن عربى بين العزلة والخلوة ، فالعزلة تعنى مفارقة اللخلق ، ومفارقة الصفات البشرية ، أما الخلوة فهى ايثار الحق ، والقرب منه ظاهرا وباطنا ، يقول ابن عربى لمريده فى هذا الشأن : « اذا أردت الدخول الى حضرة الحق ، والأخذ منه ، بترك الوسائط ، والأنس به ، أنه لا يصلح لك ذلك ، وفى قلبلك ربانية لغيره ، فانك لمن حكم عليك سلطانه ، هذا لاشك فيه ؛ فلابد لك من العزلة عن الناس »(٩٣) .

أما الخلوة عند ابن عربى ، فتعنى عنده الانقطاع الحقيقى عن الخلق ، فيقول لمريده عن الخلوة « ايثار الخلوة على الملأ ، فانه على قدر بعدك من الخلق ، يكون قربك من الحق ظاهرا وباطنا »(٩٤) .

ولابد للمريد فيما يرى ابن عربى قبل الدخول فى الخلوة ، طلب العلم الذى تقوم به طهارته وصلاته وصيامه وتقواه ، ثم العمل ، ثم الورع ، ثم الزهد ، ثم التوكل ، فهو يقول لتلميذه : « أول ما يجب عليك ، طلب العلم الذى تقوم به طهارتك ، وصلاتك ، وصيامك ، وتقواك ، وما يفرض عليك طلبه خاصة ، لا تزيد على ذلك ، وهو أول باب السـلوك ، ثم العمل ، ثم الورع ، ثم الزهد ، ثم التوكل »(٩٥) .

---

(٩١) ايقاظ الهمم ، ص ٤٠ .

(٩٢) ايقاظ الهمم ، ص ٤١ .

(٩٣) محيى الدين بن عربى ، الأنوار ، فيما يمنح صاحب الخلوة من أسرار ، مكتبة عالم الفكر ، القاهرة ، عام ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م ، ص ١٤ ، ١٥ .

(٩٤) الأنوار ، فيما يمنح صاحب الخلوة من أسرار ، ص ١٥ .

(٩٥) الأنوار ، ص ١٥ .

وعند دخول الخلوة ، ينبغى تنزيه الله عن الأشياء والمخلوقات ، وأن لا يطلب من الله تعالى شىء سواه ، وان لا يعلق الهمة بغير الله ، يقول ابن عربى لمريده : « وليكن عقدك عند دخولك الى خلوتك : ان الله ليس كمثله شىء ، فكل ما يتجلى لك من الصور ، فى خلوتك ، ويقول لك ، أنا الله ، فقل : سبحان الله ، أنت بالله » واحفظ صورة مارأيت ، واله عنها ، واشتغل بالذكر دائما ، هذا عقد واحد ، والعقد الثانى : أن لا تطلب منه فى خلوتك سواه ، ولا تعلق الهمة بغيره ، ولو عرض عليك كل ما فى الكون ، فخذه بقدب ، ولا تقف عنده ، وصمم على طلبك ، فانه يبتليك »(٩٦) ·

ويجب أن يتيقن المختلى فى جميع أحواله فى خلوته من أنه قد تحرر من سلطان وهمه عليه ، وأن يعرف حقيقة مقامه وقوته ، كما يجب أن يعلم دائما أن الخلوة والرياضة انما شرعا ؛ للتفرغ من الأكوان ، وأن الخلوة فى جوهرها ، محادثة السر مع الحق ، حيث لا ملك ولا أحد سواه(٩٧) ·

وهكذا ينتهى السالك من خلوته الى افراد الحق ، وبذلك تكون للخلوة عند ابن عربى غاية ميتافيزيقية ، الى جانب غايتها الأخلاقية(٩٨) ·

ويرى أستاذنا الدكتور التفتازانى أن اعتزال المريد فى الخلوة ، على النحو الذى حبذه ابن عربى له ، من شأنه أن يفضى به الى قطع صلته بالعالم الخارجى ؛ ليعيش فى عالم محدود من خلقه الخاص ، ينطوى فيه على نفسه ، ولعل هذا هو السبب فى أن بعض علماء النفس المحدثين ، الذين درسوا ظاهرة التصوف ، يقررون أن شخصية الصوفى شخصية انطوائية(٩٩) ·

كما يذهب أستاذنا الدكتور التفتازانى الى أن المتأمل أيضا فيما يذكره ابن عربى من قواعد ، يرى أن من أهمها أن لا تتعلق همة المختلى بشىء غير الله ، فان الخلوة غايتها عنده ، التفرغ عن الأكوان تماما ، وهذا يعنى بعبارات

---

(٩٦) الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من أسرار ، ص ١٨ - ١٩ ·
(٩٧) الطريقة الأكبرية ، ص ٣٢٧ ·
(٩٨) الطريقة الأكبرية ، ص ٣٢٧ ·
(٩٩) الطريقة الأكبرية ، ص ٣٣٦ ·

أخرى ، أن يكف المريد فى خلوته عن جميع الأفكار المتعلقة بالعالم الخارجى، أيا كان نوعها ، ليستبقى فكرة واحدة ، هى مشاهدة الله ، ولهذا يستخدم الأذكار على اختلاف أنواعها ؛ ليعينه هذا على عدم تجاوز فكرته ، وخضوع السالك للطريق الصوفى ، لفكرة واحدة بعينها ، تسيطر على شعوره تماما ، يشبه الحالة التى يسميها بعض علماء النفس المحدثين ، بوحدة الفكرة ، وهى حالة يضيق فيها مجال الشعور جدا ، بحيث لا يبقى فيه الا فكرة واحدة ذات مضمون بسيط ، وتشغل النفس ، بحيث تحول دون ظهور غيرها فيها بشكل مستمر(١٠٠) ٠

٤ ـ السماع

السماع عند الصوفية ، من الرياضات العملية ، التى يلزم الشيخ مريديه باتباعها ، وقد أباحه الصوفية ، لاحداث الوجد والتواجد فى قلب المريدين ، وتحدثوا عن آدابه ، وتأثيره فى القلب ٠

ويعنى السماع عند الصوفية ، الانتباه بالقلب الى مايحمد شرعا ، فالمريدون ينبغى عليهم استماع القول الذى أثنى الله عليه ، وأمر باستماعه ، فيتبعون أحسنه ، وهو الذى فيه كمال فلاحهم(١٠١ ٠

ومن أنواع السماع عند الصوفية ، سماع الوعد والوعيد ، واجابة داعى الحق تعالى ، وسماع أخبار الكتاب والسنة ، وسماع القلب لذكر الله تعالى ، وقراءة القرآن ٠

ويقسم الصوفية السماع الى ثلاثة أقسام :

١ ـ سماع بالطبع « وهو سماع الصوت الطيب واستلذاذه ٠
٢ ـ سماع بالحال : وفيه يتأمل السالك ما يرد عليه من الله من الأحوال ، من خوف أو قرب أو بعد ، أو قبض أو بسط ، وما الى ذلك ٠

---

(١٠٠) الطريقة الأكبرية ، ص ٣٣٦ ٠

(١٠١) زكريا الأنصارى ، شرح الرسالة القشيرية ، مفصل على هامش الرسالة القشيرية ، القاهرة ، عام ١٣٧٩ هـ ، ص ١٦٦ ٠

٣ ـ سماع بالله تعالى : وفيه يرجع الصوفى ، فى سماعه الى مخاطبة الله تعالى له ٠

والسماع بالحال فيما يرى بعض الصوفية ، هو السماع الذى فيه يتأمل السالك ، الواردات والأحـــوال والخواطر ، التى ترد عليه من الله تعالى ، وهذا النوع قد يثمر فى القلب حالة تسمى الوجد أو التواجد ، كما يثمر الوجد اهتزازا روحيا ، يصاحبه فى بعض الأحيان بكاء ٠ ويرى بعض الصوفية أنه يجب على المريد السالك ، اذا حضر مجلس السماع ، أن يكون صادقا ، وأن يكون وقورا بسـكون أطرافه ، والى هــذا المعنى يشـــير السهروردى البغدادى بقوله : « لا ينبغى للصادق أن يتعمد الحضور فى مجتمع يكون فيه سماع ، الا بعد أن يخلص النية لله تعالى ، ويتوقع به مزيدا فى ارادته وطلبه(١٠٢) ٠ وهو يقول كذلك : « اذا حضر (المريد) ، يلزم الصدق والوقار ، بسكون الأطراف »(١٠٣) ٠

وعلى الجملة ، فعلى المريد الصادق أن يتقى استدعاء الوجد ، ويتجنب الحركة فيه ما أمكن ، سيما بحضرة الشيوخ(١٠٤) ٠

ويحكى لنا الجنيد ، هذه الحكاية ، لتأكيد ما سبق من معنى ، حكى أن شابا ، كان يصحب الجنيد ، رحمه الله ، وكلما سمع شيئا ، زعق وتغير ، فقال له يوما ، ان ظهر منك شىء بعد هذا ، فلا تصحبنى ، فكان بعد ذلك يضبط نفسه ، وربما كانت كل شعرة منه تقطر قطرة عرق ، فلما كان يوما من الأيام ، زعق زعقة ، فخرجت روحه ٠ فليس من الصدق اظهار الوجد ، من غير وجـد نازل ، أو ادعاء الحــال ، من غير حال حاصــل ، وذلك عين النفاق(١٠٥) ٠

وخلاصة القول : ان التصوف قد أسس على الصدق والصراحة ، والنية الخالصة ، والآداب المحمودة ، والوقار ، وينبغى ، فى السماع ، أخذ كل

---

(١٠٢) عوارف المعارف ، حـ ٢ ، ص ٢٣٨ ٠
(١٠٣) عوارف المعارف ، حـ ٢ ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ٠
(١٠٤) عوارف المعارف ، حـ ٢ ، ص ٢٣٩ ٠
(١٠٥) عوارف المعارف ، حـ ٢ ، ص ٢٣٩ ٠

ما يسمعه الانسان من الأحوال الشريفة ، بجد وصدق ، لا بالهزل والدعاية وهوى النفس .

والأحوال الشريفة ، لا ينبغى أن يقع اليأس منها عند فقدها ، بل ينبغى أن يتكلف (المريد) اجتلابها ، بالسماع وغيره ، وذلك فيما يقول الغزالى(١٠٦) .

ويورد الغزالى دليلا من مشاهدة لعادات ، يثبت به صحة ما يقول فى هذا الشأن ، فهو يقول : « لقد شوهد فى العادات ، من اشتهى أن يعشق شخصا ولم يكن يعشقه ، فلم يزل يردد ذكره على نفسه ، ويديم النظر اليه، ويقرر على نفسه الأوصاف المحمودة ، والأخلاق المحمودة فيه ، حتى عشقه، ورسخ ذلك فى قلبه رسوخا ، خرج عن حد اختياره ، ما اشتهى بعد ذلك الخلاص منه ، كذلك حب الله تعالى ، والشوق الى لقائه ، والخوف من سخطه ، وغير ذلك من الأحوال الشريفة ، اذا فقدها الانسان ، فينبغى أن يتكلف اجتلابها بمجالسة الموصوفين بها ، ومشاهدة أحوالهم ، وتحسين صفاتهم فى النفس ، والجلوس معهم فى السماع ، وبالدعاء والتضرع الى الله تعالى فى أن يرزقه تلك الحالة ، بأن ييسر له أسبابها »(١٠٧) ، ومن أسبابها ، السماع ، ومجالسة الصالحين ، والخائفين ، والمحسنين ، والمشتاقين ، والخاشعين ، فمن جالس شخصا ، سرت اليه صفاته من حيث لا يدرى »(١٠٨) .

وهناك من أنواع السماع ، السماع بالله تعالى ، ويرى ممشاد الدينورى أنه ينبغى أن يفتتح هذا السماع بقراءة القرآن ، ويختتم أيضا بقراءة القرآن ، والى هذا المعنى يشير ممشاد الدينورى بقوله : « رأيت رسول الله ﷺ فى المنام ، فقلت : يارسول الله ، هل تنكر من هذا السماع شيئا ؟ فقال : ما أنكره ، ولكن قل لهم يفتتحون قبله قراءة القرآن ، ويختتمون بالقرآن ، فقلت:

---

(١٠٦) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .
(١٠٧) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢٦١ .
(١٠٨) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢٦١ .

يارسول الله ، انهم يؤذونى ويبسطون ، فقال : احتملهم يا أبا على ، هم أصحابك »(١٠٩) ٠

أما السماع بالطبع والتكلف فيه ، لطلب جاه ، أو منفعة دينوية ، أو شهوات أو طعام شهى وما الى ذلك ، فهو خيانة ونفاق ، ويكون قلب صاحبه مملوء بحب الدنيا ، يقول السهروردى البغدادى عن هذا النوع من السماع : « كل قلب ملوث بحب الدنيا ، فسماعه سماع طبع وتكلف »(١١٠) ٠

وهناك نوع من التكلف فى السماع ، فيما يرى السهروردى ، وهو تكلف فى المستمع ، لطلب جاه أو منفعة دنيوية ، وذلك تلبيس وخيانة ، وتكلفة فيه ؛ لطلب الحقيقة ، كمن يطلب الوجــــد بالتواجد ، وهو بمنزلة التباكى المندوب اليه ، وقول القائل ان هذه الهيئة من الاجتماع بدعة ، يقال له : انما البدعة المحذورة ، الممنوع منها ، بدعة تزاحم سنة مأمورا بها ، وما لم يكن هكذا ، فلا بأس به » ٠ ويضرب السهروردى مثلا لذلك بقوله : « كالقيام للداخل ، لم يكن ، فكان فى عادة العرب ترك ذلك ؛ حتى نقل أن رسول الله ﷺ كان يدخل ، ولا يقام له ، وفى البلاد التى فيها هذا القيام لهم عادة ، فاذا اعتمد ذلك ؛ لتطبيب القلوب والمداراة ، لا بأس به ؛ لأن تركه يوحش القلوب، ويوغر الصدور ، فيكون ذلك من قبيل العشرة وحسن الصحبة ، ويكون بدعة لا بأس بها ؛ لأنها لم تزاحم سنة مأثورة(١١١) ٠

الا أن النوع الثانى من السماع بالطبع فيما يرى السهروردى ، يعتبر معلولا ، فان النفوس تركن اليه ؛ طلبا للشهوات ، واستحلاء لمواطن اللهو والغفلات ، ويقطع ذلك على المريد طلب المــزيد ، ويكون بطـــريقة تضييع الأوقات ، وقلة الحظ من العبادات ، وتكون الرغبـــة فى الاجتماع ؛ طلبا لتناول الشهوة ، واستروا حا لأولى الطرب واللهو والعشرة(١١٢) ٠

ومن آداب السماع ، مراعاة الزمان والمكان والاخوان ، قال الجنيد :

---

(١٠٩) عوارف المعارف ، حـ ٢ ، ص ٢٠٩ ٠
(١١٠) عوارف المعارف ، حـ ٢ ، ص ٢٠٩ ٠
(١١١) عوارف المعارف ، حـ ٢ ، ص ٢٠٩ ٠
(١١٢) عوارف المعارف ، حـ ٢ ، ص ٢١٠ ٠

« السماع يحتاج الى ثلاثة أشـــياء ، والا فلا تسمع ، الزمـــان والمكان والاخوان » ، ويعنى ذلك أن الاشــتغال بالســـماع فى وقت حضـــور الطعام ، أو خصام ، أو صلاة ، أو صارف من الصوارف ، مع اضطراب القلب ، لا فائدة فيه ، فهذا معنى (مراعاة الزمان) ، فيراعى فيه حالة فراغ القلب ، وأما المكان ، فقد يكون شارعا مطـــروقا ، أو موضعا كريه الصورة ، أو فيه سبب يشغل القلب ، فيجتنب ذلك ، وأما الاخوان ، فسببه ، انه اذا حضر غير الجنس ، منكر للسماع ، متزهد الظاهر ، مفلس لطائف القلوب ، كان مستثقلا فى المجلس ، واشتغل القلب به ، وكذلك اذا حضر متكبر من أهل الدنيا ، يحتــاج الى مراقبته ، والى مراعاته ، أو متــكلف متواجد – من أهل التصوف ، يرائى بالوجد والرقص وتمزيق الثياب ، فكل ذلك مشوشات ، وترك السماع عند فقد هذه الشروط أولى »(١١٣) ٠

ويذهب السهروردى البغدادى ، الى أن الصوفية يكرهون حضور غير الجنس عندهم فى السماع ، كمتزهد لا ذوق له ، من ذلك ، فينكر مالا ينكر ، أو صاحب دنيا يحتاج الى المداراة والتكلف ، أو متكلف للوجد ، يشوش الوقت على الحاضرين بتواجده(١١٤) ٠

ويذهب بعض الصوفية الى أن من آداب الســـماع ، عـــدم حضور الأحداث مجالس السماع ، فيقول أبو النجيب ضـــياء الدين السهروردى حول هذا المعنى : « لا رخصة للأحداث فى القيام والتحرك أصلا ، وأكثر المشايخ يكرهون حضورهم مجلس السماع »(١١٥) ٠

ومن آداب السماع فيما يرى الصوفية ، موافقة الأصحاب والاخوان فى الوجد أو التواجد ، والحركة التى يثمرها الوجد ، بشرط أن يكون هذا الوجد صادقا ، والى هذا المعنى يشير الغزالى ، ناصـــحا مريده بقوله : « موافقة القوم (الصوفية) ، والقيام اذا قام واحد منهم فى وجد صادق ، من غير رياء وتكلف ، أو قام باختيار ، من غير اظهـــار وجـــد ، وقامت الجماعة ، فلابد من الموافقة ، فذلك من آداب الصحبة »(١١٦) ٠

---

(١١٣) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢٦٥ ٠
(١١٤) عوارف المعارف ، حـ ٢ ، ص ٢٥٣ ٠
(١١٥) آداب المريدين ، ص ١٠٦
(١١٦) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٨ ٢٦ ٠

فالموافقة فى هذه الأمور ، من حسن الصحبة والعشرة ،والمخالفة موحشة ، ولكل قوم رسم ، ولابد من موافقة الناس فى أخلاقهم ، كما ورد فى الخبر ، ولاسيما اذا كانت أخلاقا فيها حسن العشرة(١١٧) .

ومن آداب المريد فى السماع أيضا ، فيما يقول الصوفية ، أن يكون مصغيا الى ما يقول القائل ، حاضر القلب ، قليل الالتفات الى الجوانب ، متحررا عن النظر الى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من أحوال الوجد ، مشتغلا بنفسه ومراعاة قلبه ومراقبة مايفتح الله تعالى له من رحمته فى سره ، متحفظا عن حركة تشوش على أصحابه قلوبهم ؛ بل يكون ساكن الظاهر ، هادىء الأطراف ، وذلك فيما يقول أبو حامد الغزالى(١١٨) .

ويفضل الصوفية صاحب العلم عن صاحب الوجد ، والى هذا المعنى يشير الجنيد بقوله : « لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم »(١١٩) .

وقد يسأل سائل : ان مثل هؤلاء (الصوفية) لم يحضر (مجالس) السماع ؟ ، ويجيب الغزالى على هذا التساؤل بقوله : « اعلم ان من هؤلاء من ترك السماع فى كبره ، وكان لا يحضر الا نادرا ؛ لمساعدة أخ من الاخوان، وادخالا للسرور على قلبه ، وربما حضر ، ليعرف القوم (المريدين) كمال قوته ؛ فيعلمون أنه ليس الكمال بالوجد الظاهر ، فيتعلمون منه ضبط الظاهر عن التكلف ، وان لم يقدروا على الاقتداء فى صيرورته : « طبعا لهم » ، وان اتفق حضورهم مع غير أبناء جنسهم ، فيكونون معهم بأبدانهم ، نائين عنهم بقلوبهم وبواطنهم ، كما يجلسون من غير سماع ، مع غير جنسهم ، بأسباب عارضة تقتضى الجلوس معهم ، وبعضهم نقل عنه ترك السماع ، ويظن أنه كان سبب تركه ، استغناءه عن السماع ، وبعضهم كان من الزهاد، ولم كين له حظ روحانى فى السماع ، ولا كان من أهل اللهو ، فتركه (ترك السماع) ، لئلا يكون مشغولا ، بمالا يعنيه ، وبعضهم تركه لفقد الاخوان »(١٢٠) .

---

(١١٧) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢٦٨ .
(١١٨) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢٦٧ .
(١١٩) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢٦٧ .
(١٢٠) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ٢٦٧ .

٥ ـ الذكر

من أهم الرياضات الصوفية العملية ، التى يجب على المريد أن يلتزم بها ، الذكر ، وقد عنى الصوفية بالذكر عناية خاصة ، فقد فصلوا القول عن معناه وخصــائصه ، واشترطوا للذكر شروطا ووظائف ، وذكروا له أنواعا ومراتب ، ونحن نوضح ذلك فيما يلى ، ونربط ذلك كله بالصحبة :

الذكر عند الصوفية يعنى ، التخلص من الغفلة والنســيان ، بدوام حضور القلب مع الله تعالى ، وما أن يبعد المريد الغفلة عن نفسه وقلبه ، فانه يعتبر ذاكرا ، وهذا يعنى أن الذكر هو احضار الله تعالى فى القلب ، بترديد اسمه باللسان ، بحيث يشهد المريد الله تعالى حاضرا دائما ، والى هذا المعنى يشير ابن عطاء الله السكندرى بقوله :

« الذاكر ان شغله عن الذكر شاغل ، فقد تعرض للعقوبة ؛ وان كان عن ذلك غافل ، فمن جلس مع الملك (الله تعالى) بغير أدب ، أسلمه ذلك الى العدب ، والحضور فى الذكر ســاعة ، حميــة عن تخليطك المعــاصى بالطاعة ، وان كانت قليلة ، ففيها منفعة جليلة »(١٢١) ٠

ويذهب بعض الصوفية الى أن سبب غفلة بعض المريدين عن ذكر الله تعالى ، صحبة أهل الدنيا ، لأن قلوبهم تكون محلا للغفلة عن ذكر الله ، بالاضافة الى أنها مكان للخواطر والوساوس الشيطانية ، فان جالس المريد أهل الدنيا ، سرت فيه غفلتهم ، أما اذا جالس العارفين منالشيوخوالصوفية: فانه تشرق عليه أنوارهم ؛ لأن ذكرهم أنس بالله تعالى ، والى هذا المعنى يشير أبو مدين بقوله : « جعل الله قلوب أهل الدنيا محلا للغفلة والوسواس، وقلوب العارفين مكانا للذكر والاستئناس »(١٢٢) ٠

والصاحب الذى هو شكل المريد ومثله وأنيسه ، يستريح قلبه اليه ، ويغفل معه ، فيعصى الله تعــالى وهــو غافل عن ذكر الله ، لغلبة الأهــواء

---

(١٢١) ابن عطاء الله السكندرى ، مفتاح الفلاح ومصــــباح الأرواح ، مطبعة السعادة ، القاهرة عام ١٣٣٢ هـ ، ص ٢٢ ٠

(١٢٢) شرح حكم أبى مدين ، ص ٣١ ٠

والشهوات ، والباعث على ذلك الشيطان ، الذى يوقعك فى هذه المعاصى، وذلك بواسطة صحبة الأشرار ، وحول هذا المعنى ، يقول الحارث بن أسد المحاسبى لتلميذه محذرا : « الصاحب الذى هو شكلك ومثلك وأنيسك ، يستريح قلبك اليه ، ويغفل معه ، حتى تعصى الله عز وجل ، وأنت غافل لا تذكر الله عز وجل ، أو تذكره ولا تبالى ، لغلبة الهوى فيه وفى محادثته – وهو من مكائد ابليس وحبائله – يحبلك (أى الصاحب) به ، (أى الشيطان) ؛ حتى يوقعك فى حبائله ؛ لأنه (أى الصاحب) شكلك وأنيسك ومثلك »(١٢٣) ٠

وما يقوله الحارث بن أسد المحاسبى يستند الى قول الله تعالى فى هذا الشأن ، يقول تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا، فهو له قرين) (١٢٤) ٠

ولما كان الغافل عن ذكر الله تعالى ، يحتاج الى تركيز الانتباه والادراك والشعور ؛ لينتبه من غفلته ؛ فان بعض الصوفية ينصح مريديه بصحبة القائمين على ذكر الله ومجالستهم ؛ لأن الشكل بالشكل يألف ، وان يكن البدن من البدن بعيدا ، فان الروح من الروح قريب ، وذلك أدعى لانتباههم ويقظهم من الغفلة ، والى ذلك الاشارة يقول أبو مدين لمريديه :

« من جالس الذاكرين ، انتبه من غفلته »(١٢٥) ٠

فاذا انتبه الغافل من غفلته ، فانه يصبح من الذاكرين الله كثيرا ، ويكون من جلساء الله يوم القيامة ، قال رسول الله ﷺ فى هذا الصدد : « جلساء الله يوم القيامة ، الخاضعون ، المتواضعون ، الخائفون ، الذاكرون الله كثيرا »(١٢٦) ٠

---

(١٢٣) الحارث بن أسد المحاسبى ، الرعاية لحقوق الله ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٢٦٥ ٠

(١٢٤) سورة الزخرف آية ٤٩ ٠

(١٢٥) شرح حكم أبى مدين ، ص ٥٩ ٠

(١٢٦) راجع ، رسالة المسد ترشدين ، ص ٦٩ ٠

واذا كان الأمر كذلك ، وأصبح المريد من الذاكرين لله تعالى ، فانه يكون فى عداد العقلاء الأتقياء ، الأخيار ، ولذلك ينصح المحاسبى مريده بقوله : « لاتخالط الا عاقلا تقيا ، ولا تجالس الا عالما بصيرا ، وقد سئل النبى ﷺ : أى جلسائنا خير ؟ قال : من ذكركم بالله ورؤيته ، وزادكم فى علمكم منطقه ، وذكركم بالآخرة عمله »(١٢٧) .

وينصح بعض الصوفية بمجالسة الذاكرين الله تعالى ؛ لأن الذى يجالس الذاكرين ، فانه يسعد ، ولا يشقى أبدا ، فان من يجالس الذاكرين يكون تقيا ، صالحا ، عاقلا ، ومن يتمتع بهذه الصفات الحميدة ، فانه لا يندم ولا يتحسر يوم القيامة ، يقول ابن عطاء الله السكندرى فى هذا الشأن : « الذاكر لا يشقى به جليسه ، ويسعد به أنيسه ، ومجلسه لايكون عليه حسرة يوم القيامة ، ولا يكون عليه تره ولا ندامة »(١٢٨) .

ومجالسة الذاكرين تلين القلب القاسى ، ولذلك يدعو بعض الصوفية الى مجالسة الذاكرين اذا وجد فى قلبه قسوة وجمود ، والى هذا المعنى يشير أحمد بن أبى الحوارى ناصحا مريده بقوله : « اذا رأيت من قلبك قسوة ، فجالس الذاكرين »(١٢٩) .

ويذهب بعض الصوفية الى أن أسعد الأصحاب بصحبته ، هم أعظمهم لحرمات الله تعالى ، والذين يكونون أكثر ولعا بذكر الله ، واستمع الى أبى بكر الشبلى (المتوفى عام ٣٣٤ هـ) ، عندما سئل : من أسعد أصحابك؟ فقال : أعظمهم لحرمات الله ، وألهجهم بذكر الله » (١٣٠) .

ومجلس الذكر فيما يرى بعض الصوفية ، غذاء للأرواح ، وشراب للقلوب ، ولا ينبغى لصاحب الخوض والدخول فى الباطل والمعاصى أن يحضر هذه المجالس ، فربما يسرى ذلك فى جماعة الذكر ، فلا يجدون ثمار

---

(١٢٧) رسالة المسترشدين ، ص ٥٩ .
(١٢٨) مفتاح الفلاح ، ص ٢٠ .
(١٢٩) طبقات الصوفية ، ص ١٠٢ .
(١٣٠) طبقات الصوفية ، ص ٣٤١ .

الوجد ، وهى اللذة القلبية ، والسعادة الغامرة ، والى هذا المعنى يشير ابن عجيبة الحسنى بقوله : « مجلس الذكر والمذاكرة ، غذاء للأرواح ، ورضاع للقلوب ، فاذا حضر صاحب التخويض ، رضعت منه بعض القلوب ذلك التخويض ، فربما يسرى ذلك فى الجماعة ، فلا يجدون حلاوة الوجد »(١٣١) ٠

ورياضة الذكر عند صوفية الاسلام ، تستند الى آيات من القرآن(١٣٢) ٠

وللذكر أنواع فيما يرى الصوفية ، منها ذكر اللسان ، وهو ذكر الحروف بلا حضور ، وذكر الحضور فى القلب ، وهو ذكر القلب ، ومن فضائل ذكر القلب ، فيما يرى بعض الصوفية ، أنك اذا ذكرت الله ذكرا قلبيا ، كنت صاحب الله وجليسه ، وحول هذا المعنى يقول عبد الحق بن سبعين (المتوفى عام ٦٦٧ هـ) : « من فضيلته (أى : ذكر القلب) أنه قياسك مع ربك فى المقابلة والمصاحبة بالاغتباط ، وبقدر ماتجد نفسك فى الذكر ، ومع المذكور ، هو لك كذلك ، وأنت معه على هذا القياس ، وقد جاء (أنا عند ظن عبدى بى ٠٠٠ الحديث) ، ومن فضيلة الذكر ، قول رسول الله ﷺ ، حاكيا عن الله تعالى : (أنا جليس من ذكرنى) ، فالمصلى ماهو جليس الله ، الا من حيث ذكره فقط »(١٣٣) ٠

والصحبة عند صوفية الاسلام ، تثبت الذكر فى القلب ، وذلك عندما يكون الأصحاب من الأخيار ، وحول هذا المعنى يشير أحمد الرفاعى الى تلاميذه فى أحد دروسه لهم : « أى سادة : عليكم بذكر الله ، فان الذكر مغناطيسى الوصل ، وحبل القرب ، من ذكر الله طاب بالله ، ومن طاب بالله،

---

(١٣١) راجع ، الفتوحات الالهية ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ ٠

(١٣٢) من الآيات التى يرد فيها الذكر ، قوله تعالى : (واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة) ، سورة الأعراف آية ٢٠٥ ، ويقول تعالى كذلك : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) ، سورة الأنفال آية ٣ ، ويقول تعالى أيضا : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) سورة الرعد ، آية ٢٨ ٠

(١٣٣) رسائل ابن سبعين ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ ٠

وصل الى الله ذكـر الله يثبت فى القلب ببركة الصحبة ، فالمـرء على دين خليله ، عليكم بنا ، صحبتنا ترياق مجرب ، والبعد عنا سم قاتل » (١٣٤) ٠

وللذكر مجالس وحلقات للاخوان ، وهى تحتاج لحركات روحيـة ، وأخرى قلبية ، وثالثة لسانية ، فيما يرى بعض الصوفية ، فالحركةالروحية تنشأ عن التفكر فى الله تعالى ومخلوقاته ، والحركة وقلبية تنشأ عن ذكر الله تعالى ، أما الحركة اللسانية فتنشأ عن اظهار العبودية لله ،وحـركة الروح تحتاج للبعد عن الوسواس ، وحركة القلب تحتاج لحسن الاخلاص، وحركة اللسان تحتاج للتجرد عن الناس ، وخاصة الأشرار منهم ، والى هذا المعنى يشير أحمد الرفاعى ، قائلا : « حلقة الاخوان (حلقة الذكر) ، تحتاج لحركة روحية وحركة قلبية وحركة لسانية ، فالحركة الروحيةناشئة من الفكر ، والحركة القلبية ناشئة من الذكر ، والحركة اللسانية ناشـئة من اظهار العبودية ، فحركة الروح تحتاج لترك الوسواس ، وحركة القلب تحتاج لحسن الاخلاص ، وحركة اللسان تحتاج للتجرد عن الناس »(١٣٥)

---

(١٣٤) البرهان المؤيد ، ص ٢٩ ٠

(١٣٥) الفجر المنير ، ص ٢١ ٠

الفصـــل الخامس

ارتباط الصحبة بالمقامات والأحوال

الفصــل الخامس

ارتباط الصحبة بالمقامات والأحوال

تمهيـــــد :

بينا فى الفصل السابق ، اصطناع المريد عند الصوفية ، لرياضات عملية كالذكر والعـزلة والخلوة ، والســماع ، والصمت ، كى يتهيأ قلبه للمعرفة الالهية ، كما أوضحنا كيفية صحبــة الشيوخ ، وربطنا ذلك كله بمعنى الصحبة ولوازمها من الاتباع والمجالسة والمخالطة والمجــاورة ، وغير ذلك ·

وفى هذا الفصل سنبين مقامات الطريق وأحواله عند صوفية الاسلام ونعرض للمقامات ، كالتوبة ، والزهد والصبر والتوكل ، والشــكر ، ثم نتكلم أيضا عن الأحوال ، كالخوف والرجاء ، والحب ، والقبض والبسط، والقرب والبعد ، والصحو والسكر ، وغير ذلك · ونبين كيف طبق الصوفية فكرتهم فى الصحبة ، على المقامات والأحوال عندهم ·

والترقى فى المقامات والأحوال عند الصوفية ، هى المرحلة الأخيرة من مراحل مجاهدة النفس ، وهى المــرحلة الى ينتهى الســالك منها الى المعرفة الالهية ·

والمقامات عند الصوفية ، هى مايثبت السالك عليه من فضائل الأخلاق، بفضل الله تعالى ، فاذا أقام الله السالك على مقام من المقامات ، فانه يثبت عليه ، أما اذا قام السالك على المقام دون الفضل الالهى ، فانه يسقط عنه، ولا يعنى ذلك أنه ليس للسالك ارادة فى المقــام ، فان الدخول فى المقــام تتجلى فيه ارادة السالك ·

أما الأحوال ، فيعنى الصوفية بها ، مايحل بالقلوب ، وليس الحال من طريق المجاهدات والرياضات ، كالمقام(١) وقد عرف الطوسى الحال بأنه

---

(١) اللمع ، ص ٦٦ ·

مايحل بالقلوب ، أو تحل القلوب به (٢) وأنه نازلة تنزل بالعبد فى الحين، فيحل بالقلب(٣) ٠

ويذهب القشيرى الى أن الأحوال ، كما تحل بالقلب ، تزول فى الوقت(٤) ٠

وفيما يلى صورة ، يوضحها لنا الصوفية للسالك بين مقامات الطريق وأحواله ، ونبدأ فيها أولا بالمقامات ، وأولها مقام التوبة ٠

١ ـ مقام التوبة

التوبة عند الصوفية ، أول مقام من مقامات السالكين ، وتعنى عندهم ، الرجوع عما كان مفهوما فى الشرع ، الى ماهو محمود فيه(٥) ٠ وتستند التوبة عند الصوفية الى مصدر اسلامى ، من الكتاب والسنة(٦) ٠

ولا تبدأ صحبة المريد للشيخ على الحقيقة الا بعد أن يصح عزم المريد على الدخول فى الطريق ، ولا يصح هذا العزم الا باجتياز المريد (عتبة) الطريق ، أو المقام الأول فيه ، وهو مقام التوبة(٧) ٠

ولا تعنى التوبة الاقلاع عن المعاصى ، والاستغفار عما سلف منها وحسب ، بل التصميم على دخول حياة جديدة تختلف فى أهدافها وبواعثها عن كل ماألفه السالك من قبل(٨)

واذا أيقن الشيخ صدق المريد ، قبل صحبته والاشراف عليه ، وراقبه فى مراحل الطريق التالية(٩) ٠

---

(٢) اللمع ، ص ٦٦ ٠
(٣) اللمع ، ص ٤١١ ٠
(٤) الرسالة القشيرية ، ص ٣٥ ٠
(٥) الرسالة القشيرية ، ص ٤٩ ٠
(٦) أنظر مثلا ، الرسالة القشيرية ، ص ٤٩ ٠
(٧) التصوف ، الثورة الروحية فى الاسلام ، ص ٢٦٨ ٠
(٨) التصوف ، الثورة الروحية فى الاسلام ، ص ٢٦٨ ٠
(٩) التصوف ، الثورة الروحية فى الاسلام ، ص ٢٦٨ ٠

وقد اصطلح الصوفية على تسمية المراحل بالمقامات ، وسموامايعرض فيها للسالك من أحداث روحية ، باسم الأحوال ٠

وفى التوبة ، يتجلى تماما ، ترك مراد السالك لمراد الله تعالى ، فتكون ارادته من ارادة الله تعالى ، وهذا هو أول الدخول فى التوبة،وفى هذا الحال يكون السالك متلونا ، فنفسه تدعوه الى ترك التوبة ، ثم التمسك بها ٠

وهكذا يكون السالك بين تلوين وتمكين ، وهذه هى حالة التردد ، الى أن يتحقق له (أى للسالك) مقام التوبة ، بترك التسويف ٠

ويرى بعض الصوفية أن علاج تسويف التوبة ، بالفكر ، فيفكر السالك فى أن أكثر بكاء أهل النار ، من تسويفهم التوبة ، والداعى الى ذلك أن المسوف يبنى هذا الأمر على البقاء وطول الأجل ، فيرتكب المعاصى والسيئات ، ويؤجل التوبة منها ، فيقول الغزالى فى هذا الشأن :

« أما تسويف التوبة ، فيعالجه المريد بالفكر فى أن أكثر صياح أهل النار من التسويف ؛ لأن المسوف يبنى الأمر على ماليس اليه ، وهو البقاء فلعله لا يبقى ، وان بقى فلا يقدر على الترك غدا ، كما لايقدر عليه اليوم، فليت شعرى ، هل عجز فى الحال الا لغلبة الشهوة ، والشهوة ليست تفارقه غدا ، بل تتضاعف ، اذ تتأكد بالابتعاد ، فليست الشهوة التى أكدها الانسان بالعادة ، كالتى لم يؤكدها ، وعن هذا هلك المسوفون »(١٠) ٠ وتنقسم التوبة عند الصوفية الى قسمين :

الأول : الرجوع عن المعاصى بتركها ، والاعراض عنها ، وتجريد النفس عن الميل الى الشهوات ٠

الثانى : التوبة عن الغفلة ، التى تؤدى بالانسان الى ارتكاب الذنوب والمعاصى ، والتوبة عن ضياع الوقت فى الباطل ٠ أما عن المعنى الأول للتوبة عند الصوفية ، فهو أن يرجع السالك عن المعاصى ، والذنوب ٠

---

(١٠) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٥١ ٠

والذنوب تنقسم الى : كبائر ، وصغائر ، ومن أنواع الكبائر ، الشرك ، ومن أنواع الشرك فيما يرى بعض الصوفية ، سجود المريد للشيخ ، فانه شرك من الساجد والمسجود له(١١) ٠

ويعجب ابن القيم من أن بعض من يدافعون عن هذا النوع من الشرك بقولهم : ليس هذا سجود ، وانما هو (وضع الرأس) قدام الشيخ ؛ احتراما وتواضعا ، فيقال لهؤلاء : ولو سميتموه ، فحقيقة السجود ، وضع الرأس لمن يسجد له ، وكذلك السجود للصنم ، وللشمس ، وللنجم ، وللحجر ، كله وضع الرأس قدامه(١٢) ٠

ومن أنواع الشرك عند بعض الصوفية ، حلق الرأس للشيخ أثناء صحبة المريد له ، فانه تعبد لغير الله ، ولا يتعبد بحلق الرأس الا فى النسك لله خاصة(١٣) ٠

ويذهب بعض الصوفية الى أن من أنواع الشرك ، التوبة للشيخ ؛ ففيها شرك عظيم ؛ فان التوبة لا تكون الا لله ، كالصلاة ، والصيام ، والحج، والنسك ، فهى خالص حق الله(١٤) ٠

ومن الذنوب الصغيرة ، أو الصغائر ، مجالسة أهل الشرب فى وقت الشرب ، والخلوة بالأجنبيات (١٥) ٠ ويذهب بعض الصوفية الى أن استقلال العبد المعصية (أو الذنب) ، عين الجرأة على الله ، وجهل بقدر من عصاه ، وبقدر حقه ، وانما كان مبارزة ؛ لأنه اذا استصغر المعصية واستقلها ، هان عليه أمرها ، وخفت على قلبه(١٦) ٠

والى جانب ذلك ، فان الصغيرة قد تكبر ، بالمواظبة ، كما أن المباح

---

(١١) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ٣٤٤ ٠
(١٢) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ ٠
(١٣) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ٤٥ ٣ ٠
(١٤) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ٣٤٥ ٠
(١٥) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٠ ٠
(١٦) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ٢٦٥ ٠

يصير صغيرة بالمواظبة ، كاللعب بالشطرنج ، والترنم بالغناء على الدوام(١٧) .

ويذهب بعض الصوفية الى أن هناك ذنوبا ، لا يخلو الانسان عنها غالبا ، بضرورة مجارى العادات ، كالغيبة ، والتجسس ، وسوء الظن ، والكذب فى بعض الأقوال ، وسماع الغيبة ، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأكل الشبهات ، وسب الوالدين والغلام وضربهما ـ بحكم الغضب ـ زائدا على المصلحة ، واكرام السلاطين الظلمة ، ومصادقة الفجار ، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد مايحتاجون اليه من أمر الدين، فهذه ذنوب لايتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها ، الا بأن يعتزل الناس ، ويتجرد لأمور الآخرة ، ومجاهدة نفسه مدة ، بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك(١٨) .

ولقد ابتلى الله تعالى الخلق ، بصحبة ، الدنيا والخلق والنفس ، ويذهب بعض الصوفية الى أن من جاوز حد الاضطرار ، وانبسط فى صحبته معهم على أساس ارتكاب المعاصى والشهوات ، فليس من الله فى شىء ، والى هذا المعنى يشير القشيرى بقوله : « ان الله ابتلى الخلق بصحبة الخلق والدنيا والنفس،ومن كانت صحبته مع هذه الأشياء على حد الاضطرار بمقدار القوام ، نجا وسلم ، ومن جاوز حد الاضطرار ، وانبسط فى صحبة مع شىء من ذلك (من الدنيا والنفس والخلق) ، بموجب الشهوة والاختيار، فليس من الله فى شىء » (١٩) .

ويتضح مما سبق أن الدنيا والخلق والنفس أعداء للانسان ، فلا ينبغى على الانسان أن يصاحبهم ؛ لأنهم يدعون الانسان الى ارتكاب الذنوب ، ولذلك فان أحمد الرفاعى يلقن تلميذه درسا فى معنى الصاحب

---

(١٧) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ٢٠

(١٨) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٢٠

(١٩) لطائف الاشارات ، حـ ٢ ، ص ٢٥ .

أو الصديق ، وما يشترط فى هذا الصديق ، فيقول له : « صديقك من حذرك الذنوب ، ورفيقك من بصرك بعيوبك ، وأخوك من أرشدك الى الله تعالى »(٢٠)

ومن يصاحب الشياطين فهو أخ لهم ، وهم فى غيبة وغفلة عن ذكـر الله ، وهم ينقسمون قسمين :

فمنهم من ارتكب الذنوب ، وزلت قدمه فيها ، ولكنه لم يصر عليها ، فهم خياره ، ومنهم من غفل واغتر ، وعلى دوام الغيبة أصر ، فهم المحجوبون قطعا ، والمبعدون عن محل القرب » (٢١) ٠

ويرى بعض الصـوفية أنه اذا أراد الله بعبـد خيـرا ، رزقه خـدمة الصالحين والأخيار ، ووفقه لقبول مايشيرون به عليه ، وسهل عليه سـبل الخير ، على حد قول أبو عمرو اسماعيل بن نجيد (المتوفى عام ٣٦٦ هـ)(٢٢) واذا كان الأمر كذلك ، فان ابا طالب المكى ، ينصح مريده بقطع الوساوس الشيطانية والنفسية ، لأنها طرق للعدو ، والى هذا المعنى يشير المكى بقوله: « فليعمل المـريد فى قطع وسـاوس النفس بالخطايا ؛ والا وقع فيهـا ؛ لأن الخواطر تقوى فتكون وسوسة ، فاذا كثرت الوساوس ، صارت طرقا للعدو؛ بالتزيين والتسويل ، فأضر شىء على التائب ، تمكينه خاطر السوء من قلبه : بالاصغاء اليه ؛ فانه يدب فى هلكته » (٢٣) ٠

والتوبة فيما يرى بعض الصوفية ، تكون نتيجة هداية الله للمذنب الذى يريد الهـداية ، وهذه الهـداية لا تحصل الا باعانة الله ، فالتوبة اذن تكون نتيجة فضل الله ورحمته ، والله يختص برحمته من أراد ، من غير أن يكون هناك واسطة ، أو علل أو أسباب ، وبعبارة أخرى ، ان التوبة انما هى نتيجة العناية التى توجه من الله تعالى نحـو المخلوقات ، ومعنى هـذا أن التوبة لاتتيسر للمذنب الا اذا تاب الله عليه ، يقول ابن القيم حول هذا المعنى : «لما

---

(٢٠) قلادة الجواهر ، ص ١٩٤ ٠

(٢١) لطائف الا شارات ، حـ ٢ ، ص ٩٤ ٠

(٢٢) طبقات الصوفية ، ص ٤٥٥ ٠

(٢٣) قوت القلوب ، حـ ١ ، ص ٨٨ ٠

كانت التوبة هى رجوع العبد الى الله ، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم ، والضالين ، وذلك لا يحصل الا بهداية الله الى الصراط المستقيم ، ولا تحصل هدايته الا باعانته » (٢٤) ٠

والفضل الالهى - فيها يرى بعض الصوفية - لا يمنحه الله تعـــالى للجاهل بالذنوب ، أو المصر عليهـــا ، ولذلك فان ابن القيم يقول فى هــذا الصدد : « لاتصح التوبة الا بعد معرفة الذنب والاعتراف به ، وطلب التخلص من سوء عواقبه » (٢٥) ٠

ولا يجب على المـــريد أن يعير أخـــاه بذنبـــه ؛ لأن التعيير ضرب من الشماتة بالمعير ؛ بالاضافة الى أن التعيير بالذنب ، أعظم اثما من الذنب نفسه ، وحول هذا المعنى يقول الهروى : « كل معصية عيرت بها أخاك ، فهى اليك » (٢٦) ٠

والعفو عند المقدرة من أخلاق وآداب الصوفية ، ومن الكرم فى العفو أن لا تذكر جناية صاحبك بعد أن عفوت عنه » (٢٧) ، وذلك على حد قول ابو الحسن الوراق النيسابورى (المتوفى عام ٣٢٠ هـ) (٢٧) ٠

ولا يجب على المذنب الاحتجاج بالقدر ؛ بالدفاع عن النفس ، واظهار براءة ساحتها ، فيقول المذنب مثلا : وأى ذنب لى والمحرك لى غيرى ، والفاعل سواى ، وانما انا كنت كالميت بين يدى الفاعل ، وما حيـــلة من ليس له حيلة ؛ وما قدرة من ليس له قدرة ، ونحو هذا » (٢٨) ٠

واذا كان الأمر كذلك ، فان المحتجين بالقدر على الذنوب خصماء الله، وهذا غاية البعـــد والطرد ، والانقطاع عن الله ٠ وذلك على حـــد قـــول ابن القيم » (٢٩) ٠

---

(٢٤) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ١٧٩ ٠
(٢٥) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ١٧٩ ٠
(٢٦) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ١٧٦ ٠
(٢٧) طبقات الصوفية ، ص ٢٩٨ ٠
(٢٨) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ٢٦٥ ٠
(٢٩) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ٢٦٥ ٠

ومن آداب التوبة عند الصوفية ، أن يلتمس الانسان العذر لأخيه ؛ فى اساءته اليه ، فيتغاضى عن حقه ، ولا يتغاضى عن حق الله تعالى ، وحول هذا المعنى يشير ابن القيم ، ناصحا مريده : « اقامة أعذارهم (الخلق) ، فى اساءتهم اليك ، وجنايتهم عليك ، والنظر فى ذلك الى الأقدار ، وأن أفعالهم بمنزلة حركات الأشجار ، فتعذرهم بالقدر فى حقك ، لا فى حق ربك ، فهذا حق ، وهو من شأن سادات العارفين ، وخواص أولياء الله الكمـل ، يفنى أحدهم عن حقه ، ويستوفى حق ربه ، ينظر فى التفريط فى حقه ، وفى الجناية عليه الى القـدر ، وينظـر فى حق الله الى الأمر ، فيطلب لهم العـذر فى حقه » (٣٠) ٠

ومن آداب التوبة كذلك فيما يرى بعض الصوفية ، أن يخالط المـريد الناس فى الخير ، كالجمعة والجماعة والأعياد ، والحج ، وتعليم العلم ، والجهاد ، والنصيحة ، ويعتزلهم فى الشر وفضول المباحات(٣١) ٠

أما اذا دعت الحاجة الى خلطتهم (أى : الناس) ، فى الشر ، ولم يمكنه اعتزالهم ، فالحذر الحذر أن يوافقهم ، وليصبر على أذاهم ، فانهم لابد أن يؤذوه ، ان لم يكن له قوة ولا ناصر » (٣٢) ٠

ولما كانت التوبة تعنى الرجوع الى الله ، فلا يتحقق الرجوع اليه الا بالتوجع للعثرات ، وهذا دليل على اثابته الى الله تعالى ، فيتوجع لعثرته اذا عثر ، خلاف من لايتألم قلبه ولا يتصدع من عثرته ، فانه دليل على فساد قلبه وقسوته ، هذا بالاضافة الى توجع قلبه لعثرة أخيه المؤمن ، حتى كأنه هو الذى عثر ولا يشمت به ، فهو دليل على رقة قلبه وانابته(٣٣) ٠

ومن آداب الصوفية فى التوبة ، أن لايخالط المريد ، الناس فى فضول المباحات ، فان دعت الحاجة الى خلطتهم فى فضول المباحات ، فليجتهد أن

---

(٣٠) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ١٨٨ ٠
(٣١) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ٤٥٤ ٠
(٣٢) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ٤٥٤ ٠
(٣٣) راجع ، مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ٤٣٦ ٠

يقلب ذلك المجلس طاعة لله – ان أمكنه – ويشجع نفسه ، ويقوى قلبه ، ولا يلتفت الى الوارد الشيطانى القاطع له عن ذلك(٣٤) ٠

وعدم تعليق الهمة بغير الله تعالى ، من آداب الصوفية فى التوبة ، فتعلق القلب والهمة بغير الله تعالى ، من أعظم مفسدات القلب على الاطلاق، وحول هذا المعنى يقول ابن القيم : « اذا تعلق (القلب) بغير الله ، وكله الله الى ماتعلق به ، وخذله من جهة ماتعلق به ، وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل بعلقه بغيره ، والتفاته الى سواه(٣٥) ٠

أما المعنى الثانى للتوبة ، فهو توبة الخواص من تضييع الوقت(٣٦)، واضاعة الوقت ، تدعو الى ادراك النقص ، بالاضافة الى أن ذلك يدعو الى تكدير عين الصحبة مع الله تعالى ، يقول ابن القيم حول هذا المعنى « ان صاحب الوقت فى صحبة مع الله ، وله مع الله معية خاصة ، بحسب حفظه وقته مع الله فان كان مع الله ، كان الله معه ، فاذا أضاع وقته ، كدر عين هذه المعية الخاصة ، وتعرض لقطع هذه الصحبة ، فلا شىء أضر على العارف بالله من اضاعة وقته مع الله ، ويخشى عليه ان لم يتداركه بالرجوع أن تستمر الاضاعة الى يوم القيامة ، فتكون حسرته وندامتــه أعظم من حسرة غيره وندامته » (٣٧) ٠

ومن شروط التوبة ، فيما يرى بعض الصوفية ، الندم على ماتقدم من الذنوب ، ويذهب ابن القيم الى أنه ، كلما كان ألم الندم أشد ، كان تكفير الذنوب به أرجى ، فعلامة صحة الندم ، رقة القلب ، وغزارة الدمع ، وفى الخبر : (جالسوا التوابين ، فانهم أرق أفئدة) (٣٨) ٠

ومن شروط التوبة الصحيحة عند الصوفية ، أن يعقد السالك العــزم

---

(٣٤) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ٤٥٤ ٠
(٣٥) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ٤٥٦ ٠
(٣٦) راجع عن معانى الوقت عند صوفية الاسلام ، الفصـــــل الاول من بحثنا للماجستير ، بعنوان الوقت عند صوفية الاسلام ٠
(٧٣) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ٦٩ ٠
(٣٨) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٣٠ ، ٣١ ٠

على عدم العودة الى الذنوب فى المستقبل ، فان أعجزته المقادير عن اعتزال الأشرار من الناس ، فليكن بينهم بجسده فقط ، ويأخذ قلبه من بينهم واستمع الى ابن القيم وهو يعبر عن ذلك بألفاظ ذات دلالة عميقة ، فيقول : « فان أعجزته المقادير عن ذلك ، فليسل قلبه من بينهم ، كسل الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضرا غائبا ، قريبـا بعيـدا ، نائما يقظانا ، ينظر اليهم ولا يبصرهم ، ويسمع كلامهم ولا يعيه ؛ لأنه قد أخذ قلبه من بينهم ، ورقى به الى الملأ الأعلى ، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية ، المركبة » (٣٩) ٠

ويطبق الصوفية ، فكرتهم فى الفناء فى التوحيد ، فى مقام التوبة ، فقد بين لنا أبو طالب المكى مثلا أن أفضل درجات التوبة ، اقبال المريد على الله تعالى ، وترك الخلق واعتزالهم ، ويفنى عن شهود ماسوى الله تعالى ، فيقول المكى فى هذا الشأن : « التوبة ، باقباله (أى:المريد السالك) على مولاه وترك الخلق ، ثم يستغفر من تقصيره الذى هو فيه ، ومن الجهل بالنعمة ، وترك الشكر ، فعند ذلك يغفر له ، ويكون عنده مأواه ، ثم ينقل الى الانفراد، ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم القرب ، ثم المعرفة ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاة ، ثم محادثة السر ، وهو (الخلة) (٤٠) ٠

واذا تحقق السالك بمقام التوبة ، انتقل الى المقام الذى يليه ، وهـو مقام الزهد ، وسوف نوضحه فيما يلى :

٢ ـ مقام الزهد

الزهد عند الصوفية هو بغض كل مايشغل عن الله ، ويحبس عن حضرة الله(٤١) ٠

ويرى بعض الصوفية أن مما يشغل عن الله تعالى ، الدنيا ، وهى كل ماقرب الى قلب السالك وشغله عن الله تعالى(٤٢) ٠ ويذهب بعض الصوفية

---

(٣٩) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ٤٥٤ ٠

(٤٠) قوت القلوب ، حـ ١ ، ص ١٩٠ ٠

(٤١) ايقاظ الهمم ، ص ٩٨ ٠

(٤٢) شرح كلمة أبى مدين ، ص ٣٣ ٠

الى أن الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الأصحاب والأصدقاء والاخوان والأقارب ، وعدم مخالطتهم ومجالستهم ، والعزلة عنهم ، والى هذا المعنى يشير بشر بن الحارث الحافى (المتوفى عام ٢٢٧ هـ) بقوله : « الزهد فى الدنيا ، هو الزهد فى الناس ، من زهد فيهم ، فقد زهد فى الدنيا » (٤٣) ٠

وسئل أبو يزيد البسطامى عن السنة والفريضة فقال : « السنة ، ترك الدنيا ، والفريضة ، الصحبة مع المولى ؛ لأن السنة كلها تدل على ترك الدنيا ، والكتاب كله يدل على صحبة المولى ، فمن تعلم السنة والفريضة فقد كمل » (٤٤) ٠ وهذا يعنى أن الصحبة مع الله تعالى فريضة ، أما الزهد فى الدنيا وأهلها فهو سنة ، وان من جمع بين الزهد فى الدنيا وأصحابها ، وصحب الله تعالى ، فهو انسان كامل على الحقيقة ٠

وعدم الزهد فى الدنيا ، يؤدى الى رفع الألفة والمودة والخلطة بين الأصحاب والاخوان ، فيما يروى بعض الصوفية ؛ يقول حمدون القصار (المتوفى عام ٢٧١ هـ) ، « أصل رفع الألفة من بين الاخوان ، حب الدنيا » (٤٥) ٠

ومن شروط الصحبة والخلة فى الله ، أن لا يستعجل (الأصحاب) بعضهم بعضا فى الأمور الدنيوية ، ولا يرتفق بعضهم ببعض ؛ حتى تكون الصحبة خالصة لله ، لا لنصيب فى الدنيا » (٤٦) ٠

وعلى الجملة ، فمن صحب منا ، الكتاب والسنة ، وغرب عن نفسه والخلق والدنيا ، وهاجر الى الله بقلبه ، فهو الصادق المصيب ، المتبع لآثار الصحابة » ٠ وذلك فيما يقول أبو بكر الطمستانى(٤٧) ٠

واذا كان لأمر كذلك ، فان أحمد الرفاعى ينهى مريده عن صحبة

---

(٤٣) قوت القلوب ، حـ ١ ، ص ٢٥٢ ٠
(٤٤) طبقات الصوفية ، ص ٧٤ ٠
(٤٥) طبقات الصوفية ، ص ١٢٥ ٠
(٤٦) لطائف الاشارات ، المجلد الخامس ، ص ٣٧٣ ٠
(٤٧) طبقات الصوفية ، ص ٤٧٣ ٠

(الصحبة)

ومخالطة أهل الدنيا ؛ لأنهم يخالطون الناس لأجل الدنيا ، فهو يقول لمريده: « لاتخالط أحدا ، لأجل الدنيا ، ولا تعامله ، ولا تصاحب أحدا من أهلها ؛ كى لا يحصل لك من مجلسه وملازمته نقصان » (٤٨) ٠

ومن يزهد فى صحبة أهل الدنيا ؛ فانه يكون عاقلا على الحقيقة ؛ لأن أصحاب الدنيا يحضون الصاحب على الاشتغال بها ، أو أنهم يشغلون الصاحب عما هو فيه وهو صحبة الله تعالى ، يقول أبو عبد الله بن سالم فى هذا المعنى « العاقل من تبرم بعشرة المخالفين ، وزهد فى صحبة أبناء الدنيا، فانهم ان لم يشغلوه بها ، شغلوه عما هو فيه » (٤٩) ٠

وفى كل الأمور ، ينبغى فيمن يختار للصحبة ، الزهد فى الدنيا ، ورفع الهمة عنها ؛ ولو قل عمله فى الظاهر ، والى ذلك يشير ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه بقوله : « ماقل عمل برز من قلب زاهد ، ولا كثر عمل برز من قلب راغب » (٥٠) ٠

ويرى بعض الصوفية أن صحبة أهل الدنيا ومجالستهم ، تفسد القلب، وحول هذا المعنى يقول سفيان الثورى لمريده ناصحا : « اياك وما يفسد عليك قلبك ، فانما يفسد عليك قلبك مجالسة أهل الدنيا » (٥١) ٠

ولما كان صحبة أهل الدنيا تفسد القلب ، فان أحمد بن أبى الحوارى يوصى تلميذه بأنه اذا رأى قسوة فى قلبه،فعليه بصحبةالزاهدينومجالستهم٠ فيقول له : « اذا رأيت من قلبك قسوة ، فجالس الذاكرين ، واصحب الزاهدين ، وأقلل مطعمك ، واجتنب مرادك ، وروض نفسك على المكاره»(٥٢)

وصحبة الصوفية يجب أن لايداخلها الاشتغال بالنفس والقلب والأملاك عن الله تعالى ، والى هذا المعنى يشير أبو بكر بن أبى سعدان بقوله لمريديه: « من صحب الصوفية ، فليصحبهم بلا نفس ولا قلب ولا ملك ؛ فمتى نظر الى

---

(٤٨) قلادة الجواهر ، ص ١٥٧ ٠
(٤٩) طبقات الصوفية ، ص ٤١٦ ٠
(٥٠) ايقاظ الهمم ، ص ٩٨ ٠
(٥١) حلية الاولياء ، المجلد السابع ، ص ٤٧ ٠
(٥٢) طبقات الصوفية ، ص ١٠٢ ٠

شيء من أسبابه ، قطعه ذلك عن بلوغ مقصده » (٥٣) وعلى الجملة ، فيجب أن تكون همة الزاهد الحقيقى ، متعلقة بالله تعالى ، مرتفعة عن (صحبة) المخلوقين ، لايلجأ فى حوائجه الا لله تعالى ٠

ويذهب بعض الصوفية الى أن صحبة الزاهد تزهد فى كل شيء يشغل عن الله تعالى ، أما صحبة الحريص على الدنيا وزخرفها من المال والبنين والثروات الضخمة ، فانها تحرك فيه الحرص على الدنيا ، فان الطبع يسرق من الطبع ، فيقول أبو حامد الغزالى فى هذا الشأن :

« مجالسة الحريص على الدنيا ، تحرك الحرص ، ومجالسة الزاهد تزهد فى الدنيا » (٥٤) ٠

ومن أجل ذلك ، يدعو الصوفية الى بغض صحبة طلاب الدنيا ، وحب مصاحبة الداغبين فى الآخــرة ؛ لأن صحبتهم من صحبة الله تعالى ، يقول الغزالى فى هذا الشأن : « تكره صحبة طلاب الدنيــا ، ويستحب صــحبة الراغبين فى الآخرة » (٥٥) ٠

واذا تحقق السالك بمقام الزهد ، انتقل الى المقام الذى يليه ، وهــو التوكل ، وفيما يلى الحديث عنه :

٣ ـ مقام التوكل

التوكل عند الصوفية هو تعلق القلب بالله ، والطمأنينة الى كفــايته واستناده اليه وسكونه ؛ بحيث لايبقى فيه اضطراب أو حركة ٠

ويستند مقام التوكل عند الصوفية الى مصدر اســلامى من الكتــاب والسنة(٥٦) ٠

ويقسم الصوفية التوكل الى ثلاثة معان :

---

(٥٣) طبقات الصوفية ، ص ٤٢١ ٠
(٥٤) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥ ٠
(٥٥) احياء علوم الدين ، حـ ٢ ، ص ١٥٢ ٠
(٥٦) انظر ، الرسالة القشيرية ، ص ٨٢ ٠

المعنى الأول : تفويض أمر الرزق الى الله تعالى، وترك التعلق بالأسباب؛ ثقة بالله واعتمادا على كرمه ٠

المعنى الثانى : تفويض الأمر الى الله تعالى فى كل شىء ، حتى يبقى تحت أحكام القضاء والقدر ، عديم الحركة والاختيار بالبدن والقلب ، فتكون حركته بالله ، وسكونه به ٠

المعنى الثالث : هو الفناء عن التوكل ، وعن شهود ماسوى الله من المخلوقات والنفس والناس ، ومنهم الأصحاب والاخوان والأصدقاء ، والبقاء بالله تعالى ٠

فالتوكل عند الصوفية بمعناه الأول ، هو أن يرزق الله تعالى السالك، ويكفل له رزقه الذى تدوم به حياته ، وهذا الرزق المضمون يعطيه الله ، فضلا منه لكل من اشتغل بعبادته وخدمته وطاعته ، واطمأن اليه ، ووثق فيه وفى كرمه ، وحول هذا المعنى يقول الرسول ﷺ لأصحابه : (أتدرون ماقال ربكم ؛ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال حين استوى على عرشه ، ونظر الى خلقه : عبادى ، أنتم خلقى ، وأنا ربكم ، أرزاقكم بيدى ، فلا تتبعوا أنفسكم فيما تكفلت لكم به ، واطلبوا أرزاقكم منى ، وانصبوا أنفسكم لى ، وارفعوا حوائجكم الى ، أصب عليكم أرزاقكم ٠ أتدرون ماذا قال ربكم ؛ قالوا ، الله ورسوله أعلم ، قال : عبدى ، أنفق ، أنفق عليك ، ووسع ، أوسع عليك ، ولا تضيق ، فأضيق عليك ، ان أبواب الرزق بالعرش ، لاتغلق ليلا ولا نهارا، فأنزل الرزق منها لكل عبد ، على قدر نيته وعالته وصدقته ونفقته ، فمن أكثر أكثر له ، ومن أقلل ، أقلل له ، ومن أمسك ، أمسك عليه ، يازبير ان الله يحب الانفاق ، ويبغض الاقتار ، فكل وأطعم ، ولا تقتر ؛ فيقتر الله عليك ، أطعم الاخوان ، ووقر الأغيار ، وصل الجار ، ولا تماش الفجار ، تدخل الجنة بغير حساب ، فهذه وصية الله لى ، ووصيتى لك يازبير بن العوام) (٥٧) ٠

فالعبادة هى الخدمة ، فعلى العبد خدمة الله تعالى وعبادته ، وعلى الله كفايته ، وكفالة رزقه واطعامه ، والى هذا المعنى يشير أبو طالب المكى بقوله لمريديه :

---

(٥٧) قوت القلوب ، حـ ٢ ، ص ٣٠ ٠

« يقول المولى لعبده : اخدمنى وعلى طعمتك ، تقوم خدمتك لى مقـام كسبك لنفسك ، وهذا الوجه الأعلى ، الذى اختاره الله تعالى وأحبه لمن يحبه ، واختار له من عبده من العبيد ، من خصوص العاملين له ، وهم العاملون به » (٥٨) ٠

ولما ان الصبر على الأذى ، من آداب الصحبة والأخوة والصداقة عند صوفية الاسلام ، فان أبى طالب المكى يذهب الى أن توكل الخصوص ، فى الصبر على الأذى ، من القول والفعل ، اذ كان أمر بذلك الرسول فى قوله تعالى (فاتخذه وكيلا ، واصبر على مايقولون) (٥٩) ٠ ويقول المكى فى هذا المعنى أيضا : « قال بعض العارفين : لايثبت لأحد مقام فى التوكل ، حتى يستوى عنده المدح والذم من الخلق ، فيسقطان ، وحتى يؤذى ، فيصبر على الأذى ، يستخرج بذلك منه رفع السكون الى الخلق ، والنظر الى علم الخالق » (٦٠) ٠

أما النوع الثانى من التوكل ، فيما يرى الصوفية ، فهو ترك التدبير والاختيار ، وتفويض الأمر الى الله فى كل شىء ، حتى يبقى السالك تحت أحكام القضاء والقدر ، فتكون حركته بالله ، وسكونه بالله ، وحول هـذا المعنى يشير أبو طالب المكى الى هذه الطائفة من المتوكلين ، بقوله :

« انفردت طائفة ، فلم تختر شيئا ، فقال لها (الله تعالى ، اختارى ، فقالت : ماأعجبنا شىء رأيناه فنختاره ، قال : فأظهر مقـامات العبـادات فقالت : قد اخترنا خدمتك ، فقـال : وعزتى وجـلالى ، لأخدمنكم اياهم ، ولأسخرنهم لكم » (٦١) ٠

فترك التدبير والاختيار اذن هو أحد معانى التوكل ، فيما يرى بعض الصوفية ، ولذلك قيل لسهل بن عبد الله التسترى ، ماأول التوكل ؟ قال : ترك

---

(٥٨)قوت القلوب ، حـ ٢ ، ص ٣٠ ٠
(٥٩) قوت القلوب ، حـ ٢ ، ص ٨ ، والآيات ٩ ، ١٠ من سورة المزمل ٠
(٦٠) قوت القلوب ، حـ ٢ ، ص ٨ ٠
(٦١) قوت القلوب ، حـ ٢ ، ص ٣١ ٠

الأمانى ، وأوسطه ترك الاختيار ، قيل : فما أعلاه ؟ قال : لايعرفه الا من توسط التوكل ، وترك الاختيار » (٦٢) ٠

ويحذر بعض الصوفية مريده من التدبير مع الله تعالى ، فيذهب أبو طالب المكى الى أن « التوكل ترك التدبير ، وأصل كل تدبير من الرغبة، وأصل كل رغبة من طول الأمل ، وطول الأمل من حب البقاء ، وهذا هو الشرك ، يعنى أنك شاركت الربوبية فى وصف البقاء » (٦٣) ٠

ويرى المكى أنه قد يصح التوكل مع الأمل فى الحياة وطول البقاء ، وذلك للقيام بخدمة الله تعالى وعبادته وطاعته ، أما اذا كان أمل السالك للحياة ؛ لمتعة نفسه وأخذ حظوظها من الدنيا ، فان ذلك ينقص من التوكل ، والى هذا المعنى ، يورد المكى هذه الحكاية لاثبات صحة ماذهب اليه ، بقوله: « حدثونا عن بعض أصحاب بشر بن الحارث ، قال : كنت عنده ، ضحوة النهار ، **فدخل عليه كهل أسمر خفيف العارضين ، فقام اليه بشر ، قال :** وما رأيته قام لأحد غيره ، قال : ودفع الى كفا من دراهم ، فقال : اشتر لنا من طيب ماتقدر عليه من الطعام الطيب، قال: وما قال لى قط مثل ذلك، قال: فجئت بالطعام فوضعته بين يديه ، فأكل معه ، وما رأيته أكل مع غيره ، قال: فأكلنا حاجتنا ، وبقى من الطعام شىء كثير ، فأخذه الرجل ، فجمعه فى ثوبه فجعله تحت يده وانصرف ، قال : فعجبت من فعله ذلك ، وكرهته له ، اذ لم يأمره (بشر) بذلك ، ولا هو استأذنه فيه ، فقال لى بشر بعد ذلك ؛ لعلك نكرت فعله ذلك ، قلت : نعم ، أخذ بقية الطعام من غير اذن ، فقال : تعرفه ؟ قلت : لا ، قال : ذلك أخونا (فتح الموصلى) ، زارنا اليوم من الموصل ، وانما أراد أن يعلمنا أن التوكل اذا صح ، لم يضر معه الادخار ٠ وترك الادخار انما هو حال من مقامه قصر الأمل ، وقد يصح التوكل مع تأميل البقاء ، فان كان أمله (أ السالك) للحياة ، لطاعة مولاه وخدمته والجهاد فى سبيل الله ، فضل ذلك ، وهذا طريق طائفة الراجين والمستأنسين ، وان كان أمله للحياة ؛ لأجل متعة نفسه وأخذ حظوظها من دنياه ، نقص ذلك من

---

(٦٢) قوت القلوب ، حـ ٢ ، ص ٤ ٠

(٦٣) قوت القلوب ، حـ ٢ ، ص ٦ ٠

زهده فى الدنيا ، فسرى النقص الى توكله ، وما نقص من الزهد ، نقص من التوكل » (٦٤) ٠

ومن آداب الصحبة والأخوة عنـد الصـوفية ، زيارة الصـاحب أو الصديق المريض ، والدعاء له بالشفاء ، ويذهب بعض الصـوفية أن سـتر المرض وكتمه عن الاخوان والأصحاب والناس ، أفضل وأسلم للمريض ، الا أن يكون له نية فى الاظهار ، أو يكون اماما ، يستمع اليه ويقتبس منـه الآثار ، ويكون مكينا فى المعرفة ، يخبر بعلته ، وقلبه راض عن الله فيمـا قدره ، أو يكون ممن يشهد البلاء ، نعمة ، فيكون اخباره بمثابة التحدث بنعمة الله ؛ والا ، فاظهار العلل لمن لايتـداوى نقص لحـاله ، وداخل فى الشكاية لمولاه ؛ لأن فى الشكوى ، استراحة النفس من البلوى » (٦٥) ٠

وعلى الجمـلة : لا ينقص توكل المتوكل ، اخبـاره بعلته ، على معنى التحدث بها ، مع فقد آفات النفوس ، اذا كان قلبه شاكرا لله ، راضـياً بقضائه ، ويكون بذلك مظهرا للافتقار والعجز بين يدى مولاه ، أو راغبا فى دعاء اخوانه المؤمنين(٦٦) ٠

ويذهب بعض الصوفية الى أن السالك اذا ترك التدبير فى سـلوكه للطريق ، سقط عنه جملة من الهموم ، واستراح من النظر الى الخلق ، واستراح الخلق من أذاه ، وشغل عنهم بخدمة مولاه(٦٧) ٠

ويورد المكى ، وصية الرسول ﷺ ، لابن عباس ، ليثبت بهـا صحـة ماسبق ، بقوله « فى وصية النبى ﷺ لابن عباس : (اذا سألت فاسأل الله، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الخلائق لو جهدوا أن ينفعوك بما لم يكتبه الله لك ، ماقدروا على ذلك ، ولو جهدوا أن يضروك بشىء لم يكتبه الله سبحانه لك ، لم يقدروا على ذلك ، طويت الصحف ، وجفت الأقلام » (٦٨) ٠

---

(٦٤) قوت القلوب ، حـ ٢ ، ص ١٨ ، ١٩ ٠
(٦٥) قوت القلوب ، حـ ٢ ، ص ٢٨ ٠
(٦٦) قوت القلوب ، حـ ٢ ، ص ٨ ٠
(٦٧) قوت القلوب ، حـ ٢ ، ص ٧ ، ٨ ٠
(٦٨) قوت القلوب ، حـ ٢ ، ص ٧ ٠

والمتأمل فى هذا المعنى للتوكل ، وهو ترك التدبير والاختيار ، عند الصوفية ، يجد أنه يؤدى بالسالك الى الاستقرار النفسى ، فاعتماد قلب السالك على الله ، وسكونه الى حوله وقوته ، يؤدى بالسالك للطريق الى عدم الاضطراب ، الناتج عن الالتفات الى الأسباب ، والتعلق بها ، فالسالك ـ بتوكله هذا ـ لايبالى باقبال الأسباب الدنيوية أو ادبارها ، فلا يضطرب قلبه عند ادبار مايحبه منها ، واقبال مايكره منها .

أما الدرجة الثالثة للتوكل ، فهى الدرجة التى يفنى فيها السالك عن توكله ، فلا يلتفت الى توكله ، ولا الى الأصحاب أو الاخوان ، أو العالم كله ، ولا يلتفت الى نفسه ، فعلى قدر توحيد الله تعالى والفناء عن شهود السوى ، يكون صحة التوكل ، وحول هذا المعنى يقول ابن القيم : « على قدر تجريد التوحيد ، تكون صحة التوكل ، فان العبد متى التفت الى غير الله ، أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه ، فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة » (٦٩) .

تحدثنا فيما سبق عن مقام التوكل وارتباطه بالصحبة أو الأخوة ، وفيما يلى نتحدث عن مقام الصبر .

٤ ـ مقام الصبر

الصبر عند الصوفية يعنى ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله ، لا الى الله ، وانتظار الفرج من الله تعالى .

ويستند مقام الصبر عند الصوفية الى مصدر اسلامى من الكتاب والسنة(٧٠) .

ولما كان العدو يضاد الصاحب أو الصديق ، فان الشهوة تعتبر عدوا، قاطعا لطريق الله تعالى ، وهناك فى الانسان باعث الهوى ، وباعث الدين، فباعث الهوى هو مطالبة الشهوات بمقتضياتها ، أما باعث الدين ، فهو

---

(٦٩) مدارج السالكين ، حـ ٢ ، ص ١٢٠ .

(٧٠) راجع ، الرسالة القشيرية ، ص ٩٢ .

الصفة التى بها فارق الانسان البهائم فى قمع الشهوات ، فالقتال دائر اذن، بين باعث الدين ، وباعث الهوى ، فى قلب الانســان ، والذى يقوى باعث الدين ، الملائكة ، أما باعث الهوى والشهوة فيقويه الشيطان الذى ينــاصر أعداء الله تعالى ، واستمع الى قول الغزالى فى هذا الشأن : « ان القتال قائم بين باعث الدين ، وباعث الهوى ، والحرب بينها سجال ، ومعركة هذا القتال قلب العبد ،ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى »(٧١) ٠

وعلى الجملة ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهومة ، فلا يتم ترك الشهوة الا بقوة باعث الدين ، المضاد لباعث الشهوة، واذا كان الأمر كذلك ، فان الكمشخانوى يعرف الصبر فى أحد معانيه بأنه حبس النفس عن المعاصى ، وعلى الطاعات بالثبات عليها ، وحبسها ومنعها من النزوع الى الشهوات(٧٢) ٠

وباعث الدين ، بالاضافة الى باعث الهوى ، له أحوال ، منها ، أن يقهر داعى الهوى ، فلا تبقى له قوة المنازعة ، ويتوصل اليه بدوام الصبر، ويرى الغزالى أن الواصلين الى هــذه الرتبة هم الأقلون ، فلا جرم ، هم الصديقون المقربون ، (الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) (٧٣) ، فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم ، واستووا على الصراط القويم ، واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين ، واياهم ينادى المنادى (ياأيتها النفس المطمئنة ، ارجعى الى ربك راضية مرضية) (٧٤) ٠

والمتأمل فى هذا المعنى للصبر ، يرى أن له وظيفة سيكولوجية ، هى الثبات والاستقرار النفسى ، فان الصبر بمعنى قهر دواعى الهوىوالشهوات يؤدى بالسالك الى انتفاء الجزع ، والضجر ، وضيق الصدر ، والقلق ٠

أما اذا غلب داعى الهوى ، الباعث الدينى ، فان منازعة الباعثالدينى

---

(٧١) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٥٥ ٠

(٧٢) جامع الأصول ، ص ٣٤٧ ٠

(٧٣) سورة فصلت آية ٣٠ ٠

(٧٤) سورة الفجر آية ٢٧ ٠

تسقط تماما ، ويسلم الانسان فى هذه الحالة نفســه الى جند الشـيطان ، ولا يجاهد نفسه ؛ ليأسه من جدوى المجـاهدة ، وحول هـذا المعنى يقول الغزالى ، « الحالة الثانية ، أن تغلب دواعى الهوى ، وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين ، فيسلم نفسه الى جند الشياطين ، ولا يجـاهد ، ليأســه عن المجاهدة ، وهؤلاء هم الغـافلون ، وهم الأكثرون ، وهم الذين اسـترقتهم شهواتهم ، وغلبت عليهم شهوهم ، فحكموا أعداء الله فى قلوبهم التى هى سر من أسرار الله تعالى ، وأمر من أمور الله ، واليهم الاشارة بقوله تعالى: (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول منى ، لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) (٧٥) ، وهذه الحالة تؤدى بالسالك الى اليأس ، والقنوط ، والاضطراب النفسى ، يقول الغزالى : « وهذه الحالة علامتهـا اليأس والقنوط ، والغرور بالأمانى ، وهو غاية الحمق » (٧٦) ٠

والانسان لايستغنى أبدا عن الصبر ، فهو محتاج اليه فى هذه الحياة، سواء كان فيما يوافق هواه ، أو لايوافقه ، والذى يوافق هواه ، هو الصحة والسلامة والجاه والمال وكثرة العشـيرة ، وكثرة الأصحاب والاخـــوان والأصدقاء ، والى هذا المعنى يشير الغزالى بقوله : « ان جميع مايلقى العبد فى هذه الحياة ، لايخلو من نوعين : أحدهما : هـو الذى يوافق هـواه ، والآخر هو الذى لايوافقه ، بل يكرهه ، وهو محتاج الى الصبر فى كل واحد منهما ، وهو فى جميع هذه الأحوال لايخلو عن أحد هذين النوعين ، أو عن كليهما ، واذن فهو لايستغنى قط عن الصبر ، النوع الأول : مايوافق الهوى، وهو الصحة والسلامة والجاه والمال ، وكثرة العشيرة ، واتساع الأسباب، وكثرة الأتباع والأنصار ، وجميع ملاذ الدنيا ، وما أحوج العبد الى الصبر على هذه الأمور ، فانه ان لم يضبط نفسه عن الاسترسال ، والركون اليها، والانهماك فى ملاذها المباحة منها ، أخرجه ذلك الى البطر والطغيان » (٧٧)٠

ومن أنواع الصبر فيما يرى الصوفية ، الصبر عن المعاصى ، ومنهـا الفحشاء والمنكر والبغ ، والداعى الى ارتكابها ، باعث الهوى ، وأشد أنواع

---

(٧٥) سورة السجدة آية ١٣ وراجع احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٥٩ ٠

(٧٦) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٥٩ ٠

(٧٧) راجع ، احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٦٠ ٠

الصبر ، الصبر عن المعاصى التى أصبحت مألوفة بتكرارها ، فأصبحت عادة، ولا يستطيع باعث الدين على مقاومتها والانتصار عليها ، كالصبر عن الغيبة والكذب ، والمراء ، والثناء على النفس، والمزاح المؤذى للقلوب ، وما الى ذلك يقول الغزالى فى هذا الشأن : « أشد أنواع الصبر عن المعاصى ، الصبر عن المعاصى التى صارت مألوفة بالعادة ؛ فان العـادة ، طبيعة خامسـة ، فاذا انضافت العادة الى الشهوة ، ظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى ، فلا يقوى باعث الدين على قمعها ، ثم ان كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله ، كان الصبر عنه أثقل على النفس ، كالصبر عن معاصى اللسان ، من الغيبة والكذب والمراء ، والثناء على النفس تعريضـا وتصريحا ، وأنواع المزاح المؤذى للقلوب ، وضروب الكلمات التى يقصد بها الازراء والاستحقار، وذكر الموتى والقدح فيهم وفى علومهم ، وسيرهم ومناصبهم ؛ فان ذلك فى ظاهره غيبة ، وفى باطنه ثناء على النفس » (٧٨) ·

ويذكر الغزالى مثلا يوضح به ماسبق ، فيقول لمريده : « ترى الانسان يلبس حريرا مثلا ، فيستبعد غاية الاستبعاد ، ويطلق لسانه طول النهـار فى أغراض الناس ، ولا يستنكر ذلك ، مع ماورد فى الخبر من أن الغيبـة أشد من الزنا ، ومن لم يملك لسانه فى المحاورات ، ولم يقدر على الصبر عن ذلك ، فيجب عليه العزلة والانفراد ، فلا ينجيه غيره ، فالصبر على الانفراد، أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة »(٧٩) ·

بينا فيما سبق ، ارتباط الصحبة بمقام الصبر ، وكنا قد أوضحنا قبل ذلك ، ارتباط مقامات الزهد والتوبة والتوكل بالصحبة ، وفيما يلى سنتحدث عن ارتباط الصحبة بالأحوال النفسية التى ترد على السالك ، وليس لهارادة فى دفعها والخروج منها ، ونبدأ بالحديث عن حال الحب وارتباطه بالصحبة

١ ـ حالا الحب والأنس

الحب عند صوفية الاسلام ، حال يجده السالك فى قلبه ، وقد يحمله هذا الحال على شـغل القلب بالحبيب ، والفـراغ عن كل حميم وقريب ،

---

(٧٨) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٦١ ·
(٧٩) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٦١ ·

والابتهاج بشهود الحق ، وتعلق القلب به ، معرضا عن الخلق ، والالتـذاذ بخدمة الله تعالى ، وصحبة الخصال المقربة منه ، وتجنب الصفات المبعـدة عنه(٨٠) ٠

أما الأنس عند الصوفية ، فاذا غلب على السالك ، الفرح والقرب ، ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف ، وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحـاضر المكشـوف ، غير ملتفت الى مالم يدركه بعـد ، استبشر القلب بما يلاحظه ، فيسمى استبشاره أنسا(٨١) ٠

ويستند حال الحب والأنس عند الصوفية الى مصدر اسـلامى ، من الكتاب والسنة(٨٢) ٠

ويذهب بعض الصوفية الى أنه لايتصور محبة الا بعد معرفة وادراك ؛ اذ لايحب الانسان الا مايعرفه ، والى هـذا المعنى يشير الغـزالى بقوله : « أول ماينبغى أن يتحقق ، أنه لا يتصور محبة الا بعد معرفة وادراك ؛ اذ لا يحب الانسان الا مايعرفه ، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد ، بل هو من خاصية الحى المدرك(٨٣) ٠

ومن أسباب الحب ، فيما يرى الصوفية ، المناسبة والمشاكلة ، وقـد تكون المناسبة أو المشاكلة ظاهرة أو خفيـة ، فالظاهرة كمناسـبة الصبى للصبى ، فى معنى الصبا ، أما الخفية ، فقد تتأكد المحبة بين شخصين ، لا بسبب جمال أو حظ ، ولكن بمجرد تناسب الأرواح ، يقول الغزالى حول هذا المعنى :

« أما السبب الخامس للحب ، فهو المناسبة والمشاكلة ؛ لأن شبه الشىء منجذب اليه ، والشكل الى الشكل أميل ؛ ولذلك ترى الصبى يألف الصبى ،

---

(٨٠) راجع ، الرسالة القشيرية ، ص ١٥٨ ، وجامع الأصول ، ص ٣٥٦ ٠
(٨١) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٢٩١ ٠
(٨٢) راجع ، الرسالة القشيرية ، ص ١٥٧ ، واحياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ٢٩٠ وما بعـــدها ٠
(٨٣) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٢٦٣ ٠

والكبير يألف الكبير ، ويألف الطير نوعه ، وأنس العالم بالعالم أكثر منــه بالمحترف ، وأنس النجار بالنجار ، اكثر من أنسه بالفلاح ، وهذا أمر تشهد به التجربة » (٨٤) ٠

ويستطرد الغزالى قوله حول هذا المعنى ، فيقول : « المناسبة قد تكون فى معنى ظاهر ، كمناسبة الصبى للصبى ، فى معنى الصــبا ، وقــد يكون (المعنى) خفيا ؛ حتى لا يطلع عليه ، كما ترى من الاتحاد الذى يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال ، أو طمع فى مال غيره ، كما أشار اليه النبى ﷺ اذ قال : (الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف) ، فالتعارف هو التناسب ، والتناكر هو التباين » (٨٥) ٠

واذا كان الأمر كذلك ، فان حب الله تعالى يقتضى المناسبة البـــاطنة وليست الظاهرة ، وهذه المناسبة أو المشابهة لا ترجع الى الصور والأشكال؛ بل انها ترجع الى معان باطنة خفية ، يقول الغزالى فى هذا الشأن : « لهذا السبب (أى المناسبة) ، يقتضى حب الله تعالى ؛ لمناسبة باطنة ، لاترجع الى المشابهة فى الصور والأشكال ، بل الى معان باطنة » (٨٦) ٠

وهذه المعانى الباطنة ، يجوز أن يذكر بعضها (فى الكتب) ، وبعضها لا يجوز أن يسطر ، بل يترك تحت غطاء الغيرة ؛ حتى يعثر عليه السالكون للطريق ؛ اذا استكملوا شرط السلوك ، فالذى يذكر (فى الكتب) ، هــو قرب العبد من ربه عز وجل فى الصفات التى أمر فيها بالاقتــداء والتخلق بأخلاق الربوبية ، حتى قيل : (تخلقوا بأخلاق الله ، وذلك فى اكتســـاب محامد الصفات التى هى من صفات الالهية من العــلم والبر والاحسان ، واللطف ، وافاضة الخير والرحمة على الخلق ، والنصيحة لهم ،وارشادهم الى الحق ، ومنعهم من الباطل ، الى غير ذلك من مكارم الشريعة ، فكل ذلك يقــرب الى الله سبحــانه وتعــالى ، لا بمعنى طلب القــرب بالمــكان ، بل بالصفات » (٨٧) ٠

---

(٨٤) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٢٦٣ ٠
(٨٥) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٢٦٣ ٠
(٨٦) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٢٦٣ ٠
(٨٧) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٢٦٣ ٠

ويرى أبو حامد الغزالى أن مالايجوز أن يسطر فى الكتب أو يذكر من المناسبة الباطنة ، هى الروح ، اذ بين الحق أنها من أمره ، وأنها تخرج عن حد عقول الخلق ، وأن آدم استحق الخلافة على أساس تلك المناسبة الباطنة، واستمع الى الغزالى ، وهو يقول فى هذا الشأن : « أما مالا يجوز أن يسطر فى الكتب من المناسبة الخاصة ، التى اختص بها الآدمى ، فهى التى يومىء اليها قوله تعالى : (ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى) (٨٨) ، اذ بين أنه أمر ربانى خارج عن حد عقول الخلق ، وأوضح من ذلك قوله تعالى : (فاذا سويته ونفخت فيه من روحى) (٨٩) ، ولذلك أسجد له ملائكته ، ويشير اليه قوله تعالى : (انا جعلناك خليفة فى الأرض) (٩٠) ٠ اذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى الا بتلك المناسبة ، واليه يومىء قوله ﷺ (ان الله خلق آدم على صورته) (٩١) ٠ وهذه المناسبة أو المشاكلة أو المشابهة ، لاتظهر الا بالقيام بخدمة الله تعالى ، من القيام بالنوافل بعد الفرائض واحكام ذلك كله ، يقول تعالى فى هذا الشأن :

(لايزال يتقرب العبد الى بالنوافل ، حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ولسانه الذى ينطق به) ، وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه ، فقد تحزب الناس فيه الى قاصرين مائلين الى التشبيه الظاهر ، والى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة الى الاتحاد ، وقالوا بالحلول » (٩٢) ٠

ولما كانت الصحبة فى أحد معانيها ، تعنى المجالسة ، فان بعض الصوفية يذهب الى أن من كان مقصده رب الدار ، ومالك الملك ، ولم يغلب عليه الا حبه ، بالاخلاص والصدق ، أنزل فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فالأبرار يرتعون فى البساتين ، ويتنعمون فى الجنان مع الحور العين ، والولدان والمقربون ملازمون للحضرة ، عاكفون بطرفهم عليها ، يستحقرون نعيم الجنان،

---

(٨٨) سورة الاسراء آية ٨٥ ٠

(٨٩) سورة الحجر آية ٢٩ ٠

(٩٠) سورة ص آية ٢٦ ٠

(٩١) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٢٦٣ ٠

(٩٢) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٢٦٣ ٠

بالاضافة الى ذرة منها ، فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشـغولون ، وللمجالسة أقوام آخرون(٩٣) ٠

ويذهب بعض الصـوفية الى أن من يحب الله تعـالى على الحقيقة ، ينبغى عليه أن يؤثر خدمة الحق على خدمة الخلق ، والى هذا المعنى يشير يحيى بن معاذ الرازى قائلا :

« من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب ، يؤثر كلام الله تعالى على لقاء الخلق ، والعبادة على خدمة الخلق (٩٤) ٠

ولما كان العشق درجة أعلى من درجات الحب ، فان بعض الصـوفية يرى أن العاشق يبادر الى السعى فى هوى معشوقه ، ويلتذ بخدمته بقلبه ، حتى وان كان هذا السعى شاق عليه وعلى بدنه وقلبه ، يقول الغزالى حول هذا المعنى : « ان العاشق لا يستثقل السعى فى هـوى معشـوقه ، ويستلذ بخدمته بقلبه ، وان كان شاقا على بدنه ، ومهمـا عجـز بدنه ، كان أحب الأشياء اليه أن تعاوده القدرة ، وأن يفارقه العجز ، حتى يشتغل به ، فهكذا يكون حب الله تعالى » (٩٥) ٠

والله تعالى صاحب لمن يصاحبه ، وجليس لمن يجالسه ، ومؤنس لمن أنسه ، وفى أخبار داود عليه السلام أن الله تعالى قال : (ياداود : أبلغ أهل أرضى انى حبيب لمن أحبنى ، وجليس لمن جلسنى ، ومؤنس لمن أنسبذكرى، وصاحب لمن صاحبنى ، ومختار لمن اختارنى ، ومطيع لمن أطاعنى ، ماأحبنى عبد ، أعلم ذلك يقينا من قلبه ، الا قبلته لنفسى ، وأحببته حبا ، لا يتقـدمه أحدا من خلقى ، من طلبنى بالحق وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فارفضوا ياأهل الأرض ماأنتم عليـه من غرورها ، وهلمـوا الى كرامتى ومصاحبتى ومجالستى ، وائنسوا بى أؤانسكم ، وأسارع الى محبتكم)(٩٦)

ويرى بعض الصوفية انه يجب على السالك الذى يحب الله تعالى ، أن

---

(٩٣) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٢٨٧ ٠

(٩٤) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٢٨٦ ٠

(٩٥) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٢٨٦ ٠

(٩٦) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٢٧٨ ٠

يكون مشتغلا بذكر الله تعالى على الدوام ، فان من أحب شيئا ، أكثر من ذكره ؛ لأن دوام الذكر ، يقطع الغفلة عن السالك المحب لله ، فليلتذ السالك بخدمة الله ، بالطاعة والذكر والقيام بالعبادات ، ولذلك فان الله يقربه اليه ويصطفيه ، والى ذلك المعنى يشير أبو مدين بقوله شعرا :

هم الأحبة أدناهم لأنهم
عن خدمة الصمد المحبوب ماغفلوا(٩٧)

فاذا كان الأمر كذلك ، فان ابن عجيبة الحسنى ، شارح حكم ابن عطاء الله السكندرى ، يوصى السالك بصحبة الله تعالى ؛ فانه يجتبى الانسان لمحبته من غير نفع يعود من الانسان اليه ، فهو يقول للسالك : « خير من تصحب أيها الانسان مولاك الذى يطلبك لحضرته ، ويجتبيك لمحبته من غير نفع يعود منك اليه ، وانما هو برور ، واحسان منه اليك ، فكيف تتركه وتطلب الأنس بغيره وضرره أكثر من نفعه ؟ » (٩٨) .

وأهل محبة الله تعالى ، دعاهم الله اليه ، فأجابوه ، بالجد ودوام السير ، وأدخلهم فى عبوديته ، فلا تلحقهم فترة ولا وهن فى خدمة الله تعالى، والى هذا المعنى يشير ، الحارث بن أسد المحاسبى بقوله عن أهل محبة الله: « دعاهم اليه فأجابوه بالجد ، ودوام السير ، فلم يقم لهم اشتغال اذا استيقنوا دعوة الجبار ، فعندها غابت عن قلوبهم أسباب الفتنة بنواهيها ، وظهرت أسباب المعرفة بما فيها ، فصارت عطيتهم اليه ، الرغبة ، وسائقهم الرهبة ، وحاديهم الشوق من المحبة ، حتى أدخلهم فى رق عبوديته، وبصرهم عظيم ربوبيته ، فليس تلحقهم فترة فى نية ، ولا وهن فى عزمة ، ولا ضعف فى خدمة ، ولا تأويل فى رخصة ، ولا ميل الى دواعى غرة » ()٩٩) .

---

(٩٧) مؤلف مجهول ، سفينة أدبية ، نسخة خطية بالمكتبة الازهرية رقم ٦٤٧ أدب ، ص ٥٦ ، والقصيدة لأبى مدين ، مطلعها

أهل المحبة بالمحبوب قد شغلوا   وفى محبته أرواحهم بذلوا

وراجع أيضا ، أبو مدين المغربى ، حياته وتصوفه ، رسالتنا للدكتوراة ،ص ١٩٠.

(٩٨) ايقاظ الهمم ، ص ٢٤٩ .

(٩٩) الحارث بن أسد المحاسبى ، القصد والرجوع الى الله ، دار التراث العربى القاهرة عام ١٩٨٠ م ، ص ١٠٠ .

ومن علامات المحبة ، كمال الأنس بمناجاة المحبوب ، وكمال التنعم بالخلوة ، وكمال الاستيحاش من كل ماينغص عليه الخلوة ، ويعوق عن لذة المناجاة ، ومهما غلب عليه الحب والأنس ، صـارت الخلوة والمناجاة قرة عينه ، يدفع بها جميع الهموم ، بل يستغرق الأنس والحب قلبه ، حتى لايفهم أمور الدنيا ، مالم تـكرر على سمعه مرارا ، وذلك على حـد قول الغزالى (١٠٠)٠

وأقل درجات الحب فيما يرى بعض الصوفية ، التلذذ بالخلوة بالحبيب. وهو الله تعالى ، والتنعم بمناجاته وخدمته ، أما من كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ ، عنده وأطيب من مناجاة الله ، فلا تصح محبته ، والى هـذا المعنى يشير الغزالى بقوله : « أن يكون أنسه (السالك المحب لله) ، بالخلوة، ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه ، فيواظب على التهجد ، ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت ، بانقطاع العوائق ، وأقل درجات الحب ، التـلذذ بالخلوة بالحبيب ، والتنعم بمناجاته ، فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله ، كيف تصح محبته ؟ » (١٠١) ٠

وقد أشار ابراهيم بن أدهم الى نفس المعنى السابق ، فقد قيل له وقد نزل من الجبل : من أين أقبلت ؟ فقال : من الأنس بالله(١٠٢) ٠ فقد غلب على ابراهيم بن أدهم حال الأنس ، ولم تكن شهوته الا الانفراد والخلوة ، والأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله تعـالى ، بل من كل مايعوق عن الخلوة ، فيكون من أثقل الأشياء على القلب ٠

ويذهب بعض الصوفية الى أن علامة الأنس بالله ، ضيق الصدر من معاشرة ومخالطة ومصاحبة الخلق ، فاذا أراد السالك الذى يأنس بالله الى أن يصاحب أو يخالط أو يأنس أو يعاشر ، فعليه أن يكون كذلك بالبدن ، فهو كمنفرد فى جماعة ، وغريب مع الحضور ، والى هذا المعنى يشير الغزالى بقوله : « من علامته الخاصة (أى : صاحب الأنس بالله) ضيق الصدر من

---

(١٠٠) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٢٨٥ ٠

(١٠١) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٢٨٥ ٠

(١٠٢) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٢٨٥ ٠

(الصـحبة)

معاشرة الخلق ، والتبرم بهم ، واستهتاره بعذوبة الذكر ، فان خالط فهو كمنفرد فى جماعة ، ومجتمع فى خلوة ، وغريب فى حضر ، وحاضر فى سفر ، وشاهد فى غيبة ، وغائب فى حضور ، مخالط بالبدن ، منفرد بالقلب، مستغرق بعذوبة الذكر » (١٠٣) ·

تحدثنا عنحالى الحب والأنس وارتباطهما بالصحبة، وفيما يلى نوضح ارتباط حالا الخوف والرجاء بالصحبة ·

٢ ـ حالا الخوف والرجاء

الخوف عند الصوفية يعنى تالم القلب واحتراقه ، بسبب توقع مكروه فى الاستقبال(١٠٤) ·

أما الرجاء ، فهو ارتياح القلب ، لانتظار ماهو محبوب · ويستند حالا الخوف والرجاء عند الصوفية الى مصدر اسلامى من الكتاب والسنة(١٠٦)

وللخوف درجات ثلاث عند الصوفية :

الدرجة الأولى : الكف عن المعاصى والشهوات ، والقيام بخدمة الله تعالى ، وهو الخوف الذى يحمل السالك على تجنب الشهوات خشية عذاب الله له ·

الدرجة الثانية : خوف زوال لذة المراقبة ·

أما الدرجة الثالثة للخوف : فتعنى الهيبة من الله ، المقترنة بالاجلال والتعظيم ·

أما النوع الأول للخوف عند الصـوفية ، فهو الـكف عن المعـاصى

---

(١٠٣) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٢٩١ ·
(١٠٤) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ١٢٤ ·
(١٠٥) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ١٢٤ ·
(١٠٦) راجع ، الرسالة القشيرية ، ص ٦٤ وما بعدها ·

والشهوات ، والخوف من عذاب الله تعالى ، وهو أقل درجات الخوف ٠ ويرى بعض الصوفية أن هذا النوع من الخوف يمنع عن ارتكاب المحظورات، وأن هذا المنع أو الكف يسمى ورعا، فاذا زادت قوة الكف أو المنع نتج عنذلك مايسمى تقوى، فاذا انضم الى الورع والتقوى، التجرد لخدمة الله تعالى ، فصار صاحب هذا التجرد، لايلتفت الى دنيا ، ولا يصرف نفسا من أنفاسه ، أو وقتا ، الى غير الحق تعالى سمى ذلك صدقا ، والى هذا المعنى يشير الغزالى قائلا : « أقل درجات الخوف ، مايظهر أثره فى الأعمال أن يمنع عن المحظورات ، ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا ، فان زادت قوة الكف عما يتطرق اليه امكان التحريم ، فيكف أبدا عما لايتيقن تحريمه، ويسمى ذلك تقوى ، اذ التقوى ، أن يترك مايريبه الى مالا يريبه ، وقد يحمله على أن يترك مالا بأس به ، مخافة مابه بأس ، وهو الصدق فى التقوى، فاذا انضم اليه ، التجرد للخدمة ، فصار لا يبنى مالا يسكنه ، ولا يجمع مالا يأكله ، ولا يلتفت الى دنيا يعلم أنها تفارقه ، ولا يصرف الى غير الله تعالى نفسا من أنفاسه ، فهو الصدق ، وصاحبه جدير بأن يسمى صديقا » (١٠٧) ٠

وللخائف علامات ، فيما يرى بعض الصوفية ، وهى الفرار من العقوبة وكثرة البكاء ، والعزلة عن الأشرار من الناس ، والى هذا المعنى يشير الحارث بن أسد المحاسبى ، عندما سأله أحد تلاميذه ، عن علامة الخائف قال: « الفرار من مواطن العقوبات ؛ رجاء السلامة ، وشدة الحركة ، وكثرة البكاء ، وطول العزلة ، والنفور من ذكر العاصين » (١٠٨) ٠ وينعت بعض الصوفية هذا النوع من الخوف ، الخوف من عذاب الله تعالى ، وضعف هذا الخوف يؤدى بصاحبه الى الغفلة وضعف الايمان ، وهذه الغفلة تزول بالتذكير والوعظ ، وملازمة الفكر ، والنظر الى الخائفين ومجالستهم ، ومشاهدة أحوالهم ، ويشير الغزالى الى هذا المعنى بقوله : « الخوف من عذاب الله هو خوف عموم الخلق ، وهو حاصل بأصل الايمان بالجنة والنار؛ وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية ، وضعفه (أى : ضعف الخوف من عذاب الله) ، يسبب الغفلة ، ويسبب ضعف الايمان ، وانما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ ، وملازمة الفكر فى أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب

---

(١٠٧) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ١٣٦ ٠

(١٠٨) القصد والرجوع الى الله ، ص ١١٠ ٠

فى الآخرة ، وتزول أيضا بالنظر الى الخائفين ، ومجالستهم ، ومشاهدة أحوالهم »(١٠٩) ٠

ويذم بعض الصوفية ، الأمن من عذاب الله ، فالأمن يضاد الخوف ، ومذمة الشيء ثناء على ضده الذى ينفيه ، ولذلك تدل مذمة الآمن على ثناء على ضده الذى ينفيه ، وضد الخوف ، الأمن ، كما أن ضد الرجاء ، اليأس ، وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء ، فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف ، المضاد له » (١١٠) ٠

وفى نفس هذا المعنى ، قيل للحسن (البصرى) ، المتوفى عام ١١٠ هـ، يا أبا سعيد : كيف نصنع ؟ نجالس أقواما يخوفوننا ، حتى تكاد قلوبنا تطير، فقال : والله انك ان تخالط أقواما ، يخوفونك حتى يدركك أمن ، خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف » (١١) ٠

والأفضل من ذلك فى رأى بعض الصوفية ، الأنس بالله تعالى ، والعزلة عن الأصحاب والاخوان والناس ، وخاصة الأشرار والحمقى وأصحاب الأخلاق المذمومة ، فيرى أبو حامد الغزالى أن « من أنس بالله ، وملك الحق قلبه ، وصار ابن وقته ، مشاهدا لجمال الحق على الدوام ، لم يبق له التفات الى المستقبل ، فلم يكن له خوف ولا رجاء » (١١٢) ٠

أما النوع الثانى من الخوف ، فهو خوف زوال لذة المراقبة ، ويذهب بعض الصوفية الى أن الصحبة مع الحق تعالى ، تكون بالمراقبة لله تعالى على دوام الأوقات ، واستمع الى أبى عثمان سعيد بن اسماعيل الحيرى ، يقول فى هذا الشأن عندما سئل عن الصحبة ، فقال : « الصحبة مع الله عز وجل بحسن الأدب ، ودوام الهيبة ، والمراقبة » (١١٣) ٠

---

(١٠٩) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ١٤٦ ٠
(١١٠) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ١٤١ ٠
(١١١) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ١٤١ ٠
(١١٢) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ١٣٥ ٠
(١١٣) حلية الاولياء ، المجلد العاشر ، ص ٢٤٤ ٠

وأما النوع الثالث من الخوف ، فهو الهيبة من الله تعالى ، التى تقترن بالاجلال والتعظيم ، ويرى بعض الصوفية أن هذه الهيبة ترتبط بالمعرفة الالهية، واستمع الى أبى عمرو ، اسماعيل بن نجيد (المتوفى عام ٣٦٦ هـ) وهو يقول لمريديه حول هذا المعنى : « من أراد أن يعرف قدر معرفته بالله تعالى، فلينظر قدر هيبته له وقت خدمته » (١١٤) ٠

وهيبة التعظيم والاجلال ، هى أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ، ومنكسرا تحت الهيبة ، فلا يبقى فيه متسع للالتفات الى الغير أصلا، ولما كان الأمر كذلك ، فان شاب قال لأبى عبد الله بن خفيف (المتوفى عام ٣٧١ هـ) عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته ، وتقع هيبته على قلبك ، ويعظك بلسان فعله ، ولا يعظك بلسان قوله » (١١٥) ٠

وللرجاء ثلاث درجات عند الصوفية :

الدرجة الأولى : رجاء يبعث على الاجتهاد ، ويولد التلذذ بالخدمة ٠

والدرجة الثانية للرجاء : رجاء بمعنى توقع الوصول الى ادراك المقامات والأحوال ٠

أما الدرجة الثالثة للرجاء ، فهى : رجاء لقاء الله ، وتوقع ملازمته وعدم مفارقته ٠

وفيما يلى نوضح كل درجة من درجات الرجاء :

فالدرجة الأولى للرجاء ، هى التى تبعث المريد على المجاهدة النفسية، وتولد الالتذاذ بالخدمة لله تعالى ، وحول هذا المعنى يقول الهروى : « رجاء يبعث العامل على الاجتهاد ، ويولد التلذذ بالخدمة » (١١٦) ٠

ويحال ابن القيم هذا المعنى للرجاء بقوله : « أما توليده للتلذذ بالخدمة

---

(١١٤) طبقات الصوفية ، ص ٤٥٥ ٠
(١١٥) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ٣٤١ ٠
(١١٦) مدارج السالكين ، حـ ٢ ، ص ٥٢ ٠

فانه كلما طالع قلبه ثمرتها وحسن عاقبتها ؛ التذ بها وهذا كحال من يرجو الأرباح العظيمة فى سفره ، ويقاسى مشاق السفر لأجلها ، فكلما صورها لقلبه ، هانت عليه تلك المشاق ، والتذ بها ، وكذلك المحب الصادق ، الساعى فى مراضى محبربه الشاقة عليه ، كلما تأمل ثمرة رضـاه عنه وقبوله سعيه وقربه منه ، تلذذ بتلك المساعى » (١١٧) ٠

والدرجة الثـانية للرجاء ، هى توقع الوصـول الى ادراك المقـامات والأحوال ، ويذهب بعض الصـوفية الى أنه ينبغى على السـالك فى هـذه الدرجة من الرجاء أن يصحب شيخا مربيا ، عارفا ، يرشده الى مجاهدة نفسه ، أما اذا زعم السالك أنه لم يعثر على هذا الشيخ ، فعليه أن يستغرق أوقاته فى ذكر الله تعالى ، ويلزم العزلة عن الناس ، فاذا تم له ذلك ، فان الله يبعث له من يأخذ بيده ويساعده للوصول الى مايرجوه ، وحول هـذا المعنى يقول ابن عجيبة الحسـنى : « من كان رجاؤه الوصـول الى ادراك المقامات ، وتحقيق المنازلات ، ومواجيد المحبين ، وأذواق العارفين ، فعليه بصحبة الفحول من الرجال أهل السر والحال ، بحط رأسه ، وذبح نفسه ، والأخذ فيما كلفوا به من الأعمال ، مع الذل والخضوع والانكسار ، فان زعم أنه لم يجدهم ، فليصدق فى الطلب ، وليستغرق أوقاته فى ذكر الله ، وليلزم الصمت ، والعزلة ، وليحسن ظنه بالله ، وبعباد الله ، فان الله يقيض له من يأخذ بيده » (١١٨) ٠

أما الدرجة الثالثة للرجاء ، فهى رجاء لقـاء الله تعـالى ، وعـدم مفارقته ، ويرى بعض الصوفية أنه لا يجب أن يفارق الانسان الدنيا الا محبا لله اعتلى وحب لقائه ؛ لأن الله يحب الانسان الذى يحب لقاءه أما اذا كان قلب الانسان يغلب عليه حب الأهل والأصحاب والاخوان عند الموت ، فان ذلك يكون شاغلا له عن المحبوب ، وحول هذا المعنى يقول أبو حامد الغزالى: « لا ينبغى أن يفارق أحد الدنيا الا محبا لله تعالى ؛ ليكون محبـا للقـاء الله تعالى ؛ فان من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه ، والرجاء تقارنه المحبة ، فمن ارتجى كرمه فهو محبوب »(١١٩) ٠

---

(١١٧) مدارج السالكين ، حـ ٢ ، ص ٥٢ ٠

(١١٨) ايقاظ الهمم ، ص ١٥٨ ٠

(١١٩) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ١٤٥ ٠

ويستطرد الغزالى كلامه حول هـذا المعنى بقوله : « من قـدم على محبوبه ، عظم سروره بقدر محبته ، ومن فارق محبوبه ، اشتدت محنتـه وعذابه ، فمهما كان القلب ، الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن العقار والرفقاء والأصحاب ، فهذا رجل محابه كلها فى الدنيا ٠ فالدنيا جنته ؛ اذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب ، فمـوته خروج من الجنة ، وحيلولة بينه وبين مايشتهيه ، ولا يخفى حال من يحال بينه وبين مايشتهيه ، فاذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى ، وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه ، والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب ، فالدنيا اذن سجنه ، لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح الى محابه ، فموته قدوم على محبوبه ، وخلاص من السجن » (١٢٠) ٠

تحدثنا فى هذا الفصل عن ارتباط الصحبة بالمقامات والأحوال التى لها صلة بها ، وسوف نتحدث فى الفصل التالى عن ارتباط الصحبة بالمعرفة والوجود عند صوفية الاسلام ٠

---

(١٢٠) احياء علوم الدين ، حـ ٤ ، ص ١٤٥ ٠

الفصـــل السادس

ارتباط الصحبة بالمعرفة والوجود

الفصـــل السادس

ارتباط الصحبة بالمعرفة والوجود

١ ـ تمهيـــد :

بينا فى الفصل السابق ، كيف يترقى السالك فى مقـاماته ، كلتوبة والزهد ، والصبر والتوكل ، كما وضحنا كذلك ترقى الســالك فى الأحوال التى ترد عليه من الله ، كالحب والأنس والخوف والرجاء ، وما الى ذلك ، وأظهرنا أيضا ارتباط مقامات الطريق وأحواله بفكرة الصحبة عند الصوفية، التى بنى عليها هؤلاء الصوفية تصوفهم كله ، من بدايته الى نهايته ٠

وسوف نتحدث فى هذا الفصل عن المعرفة كما يتصورها الصوفية ، وأعنى بها المعرفة الالهية ، موضحين أنها ترد على الصوفى ، عن طـريق الفضل الالهى ، وكأنها أنوار تأتى الى قلبه فجأة ، ثم تختفى سريعا ٠

كما سنتحدث فى هـذا الفصـل كذلك ، عن الخطوات التى يخطوها الصوفى ؛ ليتحقق بالمعرفة الذوقية ، وهى الفناء ، ثم التحقق بالمعـــرفة والوصول والبقاء بالله ٠

ونتحدث أيضاعن موضوع المعــرفة عند الصــوفية ،، وهو ذات الله وصفاته ، وأداة المعرفة عندهم وهى القلب، كما ســنوضح منهج المعــرفة عندهم ، وهو الكشف الصــوفى ، وغاية المعــرفة وهى الســـعادة واللذة الروحية ٠

ونتحدث بعد ذلك عن ارتباط الصحبة بتصور الصوفية للوجود ، من الشعور بشهود الأحدية ، أو الاتحاد ، أو الحلول ، أو وحدة الوجود ، وذلك انطلاقا من حال الفناء ، أما اذا عاد الصوفى الى حال البقاء ، فانه يفرق بين الحق والخلق ، والله والعالم ، والواجب والممكن ، والواحد والكثير ٠

وفيما يلى بيان ذلك :

المعرفة عند الصوفية هى ادراك الشىء على ماهو عليه ، وهى العلم الذى لايقبل الشك ، اذا كان المعلوم ذات الله تعالى وصفاته(١) ٠

٢ ـ الفنــــاء :

الفناء عند الصوفية يعنى زوال الرسوم بالكلية فى عين الذات الأحدية، مع ارتفاع الاثنينية(٢) ٠

فمن استولى عليه سلطان الحقيقة ، حتى لم يشهد من الأغيار ، لا عينا ولا أثرا ، ولا رسما ولا طللا ، يقال انه فنى عن الخلق ، وبقى بالحق(١٣) ٠

وقد استخدم الصوفية ، الفناء والبقاء ، بثلاثة معان :

المعنى الأول : فناء صفات النفس وأخلاقها المذمومة ، والبقاء بالصفات والأخلاق الكريمة ، وخدمة الحق تعالى ٠

والمعنى الثانى : الفناء عن ارادة ماسوى الله تعالى ، والبقاء بارادته وحده ٠

أما المعنى الثالث : فهو الفناء عن شهود ماسوى الله ، والبقاء بشـــهود الأحدية ٠

وفيما يلى نوضح ذلك :

فالفناء عن الصفات السيئة والأخلاق المذمومة ، هو المعنى الأخـــلاقى للفناء ، وهو أول معانى الفناء عند الصوفية ، ويرى الصوفية أن الســـالك لايتحقق بالمعرفة الالهية الا اذا فنى عن المعاصى والشهوات ، وبقى بطاعة الله وخدمته وعبادته ٠ ولا يعنى ذلك أداء الطاعة والعبودية لله فى حال الفناء والغيبة عن النفس والعالم ، وانما يعنى الصوفية بذلك أن ينزل السالك

---

(١) انظر ، الجرجانى ، التعريفات ، مكتبة ومطبعة مصطفى البـــابى الحلبى ، القاهرة عام ١٩٣٨م ، ص ١٩٧ ، وراجع كذلك ، الغزالى ، روضة الطالبين ، القاهرة عام ١٣٤٤ هـ ، ص ١٦٢ ٠

(٢) راجع ، جامع الأصول ، ص ٣٦٥ ٠

(٣) الرسالة القشيرية ، ص ٣٩ ٠

العبادة والطاعة والخدمة ، منزلهـا ، ويعطى كل مرتبـة منها حقهـا من العبودية لله ، ويشهد قيامه بها ، والى هذا المعنى يشير ابن القيم بقوله : « ان شهود العبد قيامه بالعبودية ، أكمل فى العبودية من غيبته عن ذلك ، فان أداء العبودية فى حال غيبة العبد عنها وعن نفسه ، بمنزلة أداء السكران والنائم ، وأداؤها فى حال كمال يقظته ، وشعوره بتفاصيلها وقيامه بها ، أتم وأكمل وأقوى عبودية » (٤) ٠

ويستطرد ابن القيم تحليله لهذا المعنى بقوله : « « فتأمل حال عبدين فى خدمة سيدهما ، أحدهما : يؤدى حقوق خدمته فى حال غيبته عن نفسه وعن خدمته ؛ لاستغراقه بمشـاهدة سيده ، والآخر يؤديها فى حال كمـال حضوره ، وتمييزه ،واشعار ه نفسه بخدمة السيد ، وابتهاجا بذلك ، فرحا بخدمته ، وسرورا والتذاذا منه ، واستحضارا لتفاصيل الخدمة ومنازلها ، وهو ، مع ذلك ، عامل على مراد سيده منه ، لا على مراده من سيده ، فأى العبدين أكمل ؟ » (٥) ٠

أما الفناء عن ارادة ماسوى الله تعالى ، فهو أن يفنى السـالك عن صحبة ماسوى الله تعالى ، ويبقى بصحبة الحق تعالى وحده ومحبتهوالتوكل عليه ، ويستوحش من السوى والأغيار ، فان القلب اذا خلى من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال أو أصحاب أو اخوان أو أهل أو ماالى ذلك، فعند ذلك يتحرك قلبه لمعرفة مايرضى ربه فيفعله ويتقرب به اليه ، فاذا تمكن فى ذلك ، فتح له باب الأنس والخلوة والوحدة ، والأماكن الخالية التى تهدأ فيها الأصوات والحركات ، فلا شىء أشوق اليه من ذلك ؛ فانها تجمع عليه قوى قلبه وارادته ، وتسد عليه الأبواب التى تفرق همـه ، وتشتت قلبه ، فيأنس بها ، ويستوحش من الخلق(٦) ٠

وأما الفناء عن شهود السوى ، فليس مراد الصوفية منه ، فناء وجود ماسوى الله فى الخارج ، بل فناؤه عن شـهودهم وحسهم فحقيقة غيبـة

---

(٤) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ١٥٦ ٠
(٥) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ١٥٦ ٠
(٦) مدارج السالكين ، حـ ٣ ، ص ٣٧٩ ٠

أحدهم عن سوى مشهوده ، بل غيبته أيضا عن شهوده ونفسه ، وقد يسمى حال مثل هذا سكرا ، واصطلاما ، ومحوا ، واستغراقا ، وفى هذا المعنى كتب فريد الدين العطار فى كتابه تذكرة الأولياء ، عند شرحه لحال أبى يزيد البسطامى : « كان فى الاستغراق بالله ، بحيث كان له مريد ، امتدت به الصحبة عشرين سنة ، وكان يسأله كل يوم قائلا : مااسمك أيها الولد ؟ فقال له المريد ذات يوم : أتهزأ بى أيها الشيخ ؟ فاننى فى خدمتك عشرين سنة ، أتسأل كل يوم عن اسمى ؟ قال الشيخ : اننى لا أهزأ بك أيها الولد ، ولكن جاء اسمه (اسم الله تعالى) ، وطرد كل الأسماء عن قلبى ، فقد أعرف اسمك، وأنساه مرة ثانية » (٧) .

ويحلل آسين بلاسيوس الجانب النفسى لفناء العارف فى معروفه ، الذى هو الفناء عن شهود السوى ، على النحو التالى : « ان التحديد لميدان الشعور بالعالم الخارجى ، الذى يعوض عنه الزيادة فى الشعور بعالم الباطن ، هو المميز الرئيسى لظاهرة الفناء ، تركز وحشد للنشاط الذهنى على فكرة واحدة ، هى الله ، باستبعاد كل فكرة أو صورة أو خاطر يتعلق بالمخلوقات ؛ من شأنه أن يستبعد من الأفق الشعورى حضور كل هذه الكائنات المخلوقة » (٨) .

وتشير ايفلين أندرهل ، الى الفناء عن شهود السوى ، بقولها : « ان الفناء عن شهود السوى حال مؤثر ، يضيق فيه جدا مجال الشعور الخارجى، وتتركز كل قوى النفس النزوعية على شىء واحد » (٩) .

ويذهب بعض الصوفية أنه اذا رد المريد الى مقام البقاء ، وسلك تلك المسالك (المتقدسة) من جذب وفناء وتخلية وتحلية ، أمره الشيخ بتذكير

---

(٧) راجع ، قاسم غنى (الدكتور) ، تاريخ التصوف فى الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، عام ١٩٧٠ م ، ص ٥٤٢ .

(٨) ابن عربى ، حياته ومذهبه ، ص ٢٢٣ .

3) Underhill : (E.) ; Mysticism; A study in the nature and Development of man's spritual consciousness; London, 1949, p. 329.

الناس ، وارشادهم الى ربهم ، فاستحق أن يكون شيخا مربيا ، وحول هذا المعنى يقول ابن البنا السرقسطى :

عندما أسلكه المسالك
أقامه شيخا لكل سالك(١٠)

٣ ـ التحقق بالمعرفة والوصول :

اتخذ الصوفية من الفناء عن شهود السوى سبيلا الى التحقق بالمعرفة الذوقية الوجدانية ، والوصول الى الله تعالى ، فالفناء عندهم مقترن بالبقاء، ويذهب بعض الصوفية الى أنه مادام السالك يشغل قلبه بمعرفة الناس والكائنات ، ويصاحبهم من غير تمييز بين الطيب والخبيث منهم ، فهو بمعزل عن معرفة الله تعالى حق المعرفة ، فالحق تعالى قد يختبر السالك ، هل هو غنى به أو بخلقه ؛ فاذا كان غنيا بالله تعالى ، أنسه الحق بشهوده، وأفرغ قلبه عن الاشتغال بالخلق وصحبتهم ، والى هذا المعنى يشير أبو مدين بقوله : « من عرف أحدا ، لم يعرف الأحد » (١١) .

ويذهب بعض الصوفية الى أن هناك قواطع ، تقطع السالك عن الوصول الى الله ، وتشغل القلب عن الحضور مع الحق تعالى ، وهى (الفتون) من الفتنة ، سواء كانت هذه الفتون ذنوبا ، أو عيوبا ، أو أشغالا ، أو أموالا، أو أغيارا ، كالأصحاب والرفقاء والاخوان وغيرهم ، فيرى ابن عجيبة الحسنى انه اذا أراد الله أن يخلصه (أى : السالك) من تلك الفتون ، سواء كانت ظاهرة أو باطنة ، ألقى قلبه الاضطرار الى الله ، وحسن الظن بعباد الله، فاذا أطلعه على سر ولى من أوليائه ، وأتى اليه وقال له : جئتك لتقبلنى وتأخذ بيدى ، وجب عليه قبوله والأخذ بيده ؛ لأن رده ، نوع من كتم العلم ، وقد قال الله تعالى : (ان الذين يكتمون ما أنزلنا) (١٢) ، وأيضا رده الى ماكان عليه ، فيه اعانة له على الدوام فيما هو فيه ، والاعانة على المعصية ،

---

(١٠) راجع ، الفتوحات الالهية ، ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(١١) شرح حكم أبى مدين ، ص ١٠٠ .

(١٢) سورة البقرة لآية ١٥٩ وهى (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) .

معصية ، هذا ان كان صادقا فى ارادته ، وأما ان كان كاذبا ، فلما فيه من تقليل المفاسد ، وتعريضه لنفحة رحمة الله ؛ بالوقوف ببابه ، ومخالطةأوليائه، وهم قوم لايشقى جليسهم ، ولعل الله أن يفتح عليه بمثل مافتح عليهم ؛ اذ كل من تحلى بحالة ، لايخلو حاضروه منها ، فمن جالس العطار ، طاب عيشه ، ولله رجال ، من نظر اليهم نظرة ، سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا »(١٣) ٠

وفى نفس المعنى يقول أبو عثمان النيسابورى : « من صحب أولياء الله وفق للوصول الى الطريق الى الله » (١٤) ٠

ويرى سيدى على الجمل (شيخ ابن عجيبة الحسنى) ، أن جلوس المريد مع شيخ عارف بالله تعالى ، يوصله الى الحق تعالى ، ويتحقق بمعرفته ، فهو يقول لمريده : « اعلم أنه لا يقر طالب ، الوصول الى الله تعالى شىء مثل جلوسه مع عارف بالله ، ان وجده ، ثم قال : الجلوس مع العارف بالله أفضل من العزلة ، والعزلة أفضل من الجلوس مع العوام الغافلين ، والجلوس مع العامى الغافل ، أفضل من الجلوس مع الفقير الجاهل بالله ، ربما أتلف المريد عن مولاه بنظرة أو بكلمة ، كذلك الفقير الجاهل بالله ، ربما أتلف المريد عن مولاه بنظرة أو بكلمة فما فوقها » (١٥) ٠

واذا كان الأمر كذلك ، فانه ينبغى على السالك أن يصحب من ينهضه حاله ، ويدله على الله تعالى مقاله ، والى هذا المعنى يشير ابن عطاء الله السكندرى ، ناصحا مريده بقوله : « لا تصحب من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله » (١٦) ٠

ويحلل ابن عجيبة هذه الحكمة ، بقوله : « الذى ينهضك حاله ، هو الذى اذا رأيته ذكرت الله ، فقد كنت فى حال الغفلة ، فلما رأيته نهض حالك الى اليقظة ، أو كنت فى حال الرغبة ، فلما رأيته ، نهض حالك الى الزهد،

---

(١٣) أنظر ، الفتوحات الالهية ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ٠

(١٤) طبقات الصوفية ، ص ١٧٥ ٠

(١٥) راجع ، ايقاظ الهمم ، ص ١٣٥ ٠

(١٦) راجع ، ايقاظ الهمم ، ص ٩٥ ٠

أو كنت فى حال المعصية ، فلما رأيته نهض حالك الى التوبة ، أو كنت فى حال الجهل بمولاك ، فنهضت الى معرفة مولاك ، وهكذا ، والذى يدلك على الله مقاله : هو الذى يتكلم بالله ، ويدل على الله ، ويغيب عما سواه ، فاذا تكلم ، أخبر بمجامع القلوب ، واذا سكت أنهضك حاله الى علام الغيوب»(١٧) وعلي الجملة ، فليست طريق السلوك بطريق العزلة ، بل هى طريق الصحبة والاجتماع والاستماع والاتباع ، فالجمع رحمة ، والفرقة عذاب ، وفى الحديث : (يد الله مع الجماعة) ، أى الدالين على الله(١٨) ٠

ويذهب بعض الصوفية الى أن رعونات النفس توقع صاحبها فى الافراط أو التفريط ، أو تؤدى بصاحبها الى غير الطريق المقصود ، فاذا صاحب من هو أعظم منه ، وهو الذى يرشده وينصحه الى الطريق الصحيح، فانه لايتفرق ولا يضل ، بل انه سيصل الى الحق تعالى ، فيقول ابن عجيبة فى هذا الشأن : « الانسان لايخلو من رعونات نفسه ، فتوقعه فى افراط أو تفريط ، أو تخرج به بخلاف المقصود ، فاذا رجع فرأى من هو أعظم منه ، وأنصح له ، لم تبق فيه بقية تفرقه عن الوصول الى الحق » (١٩) ٠

ويوصى عبد الحق بن سبعين تلميذه أن يحمد الله تعالى ، الذى جعله من أصحابه (أى أصحاب الحق) ، وأن يحترم أصحاب الله تعالى ، الذين هم اخوانه ، وعليه أن يطلب معرفة الله والوصول اليه منهم ، فهو يقول لتلميذه : « أحمد الله الذى جعلك من أصحابه ، واحترم أصحابه (اخوانك)، وتعلق بكبارهم ، واطلب طريقه ومعرفته منهم ، فهم مظاهره » (٢٠) ٠

وينصح تلميذ ابن سبعين (شارح رسالة العهد) ، مريده أن يخالط ويجالس ويصاحب الوارث أو المحقق ؛ فانه شرط فى الوصول الى الله تعالى، فهو يقول له : « لا تخالط الا الوارث الذى هو شرط فى الوصول الى النبى عليه السلام ، والنبى عليه السلام شرط فى الوصول الى الله عز وجل ، هو

---

(١٧) ايقاظ الهمم ، ص ٩٥ ٠

(١٨) الفتوحات الالهية ، ص ١٠ ٠

(١٩) الفتوحات الالهية ، ص ١١٨ ٠

(٢٠) رسائل ابن سبعين ، ص ٣٨ ، كتاب فيه حكم ومواعظ ٠

(الصحبة)

مطلوب السعداء والعقلاء ، فالوارث هو مطلوب العقلاء والسعداء واالوارث و المحقق ؛ فالمحقق هو المطلوب للسـعداء والعقـلاء بأسرهم ؛ لأنا نقول : العقلاءيطلبون السعادة واللذة الأبدية،والسعادة واللذة الأبديةلاتوجد الا فى معرفة الله ، والوصول الى الله لايكون الا بالنبى ﷺ ، والنبى لايعرف الا بالوارث ، فالله لا يعرف الا بالوارث ، والسعادة لاتحصل الا بمعرفة الله ، فالسعادة لا تحصل الا بالوارث ، والعقلاء يطلبون السـعادة ، فالعقـلاء يطلبون الوارث ويحتاجون اليه ، والوارث هو المحقق ، فالعقـلاء يطلبون المحقق ويحتـاجون اليه بالضرورة ، وهـذا هو معنى قوله رضى الله عنه : (الكل من أصحابنا) ··· » (٢١) · ولما كان ابن عربى يرى أن الخـلة هى الصحبة الخاصة لله ، فانه يربط بين الخلة والتحقق بالمعرفة والوصول الى الحق تعالى ، فهو يقول : « اذا تخللت المعرفة بالله أجزاء العارف ، عن حيث ماهو مركب ، فلا يبقى فيه جوهر فرد وقد حلت فيه معرفة ربه فهـو عارف به ، بكل جزء فيه ، ولولا ذلك ماانتظمت أجزاؤه ، ولا ظهر تركيبه ، ولا نظرت روحانيته طبيعية فيه تعالى » (٢٢) ·

٤ ـ موضوع المعرفة :

موضوع المعرفة عند صوفية الاسلام ، هو الذات الالهية ، من حيث صفاتها وأسماؤها وافعالها ، وسائر مايتعلق بذلك(٢٣) ·

ويرى بعض الصوفية أن جملة معانى الأسماء الحسنى لله تعالى هى الذات الالهية والاسم الجامع وهو (الله) ، وسبع صفات هى الحياة والعلم والقدرة والارادة والسمع والبصر والكلام ، فيقول الغزالى حول هذا المعنى لمريده : « اعلم أن جملة معانى الأسماء الحسنى ترجع الى ذات ، وسـبع صفات » (٢٤) ·

---

(٢١) شرح رسالة العهد ـ رسائل ابن سبعين ، ص ١٢١ ، ١٢٢ ·

(٢٢) الفتوحات المكية ، مجلد ٢ ، ص ٣٦٢ ·

(٢٣) راجع ، أبو الوفا التفتازانى (الاستاذ الدكتور) ، ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة عام ١٩٥٨ ، ص ٢٢٦ ·

(٢٤) أبو حامد الغزالى ، روضة الطالبين ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، عام ١٩٢٤ م ، ص ١٩٣ ·

ولما كانت الصحبة أو الأخوة تستلزم المجانسة أو المناسبة أو المشابهة، وأن المماثلة من أهم خصائص الصحبة ، فان بعض الصوفية يرى أنه لاتوجد مناسبة أو مماثلة بين الحق تعالى والانسان ، فلا صحبة اذن من الله تعالى للانسان ، وحول هذا المعنى يشير ابن عربى ، يقول لمريده : « اعلم أيدك الله ؛ لما كانت الصحبة تطلب المناسبة ، وهو يقول : (ليس كمثله شىء) ، ودليل العقل يقضى به ، فله السيادة ، والعالم عبيده ، فخدمة ، لا صحبة ؛ وانما امتنعت الصحبة من الطرف الواحد ، وصحت من الطرف الآخر ؛ لما نذكره ؛ فالحق ليس بصاحب لأحد من المخلوقين الا الصحبة التى أرادها الشارع فى قوله : (أنت الصاحب فى السفر) ، بذلك المعنى ، كما اتخذناه وكيلا فيما هو ملكه ، ولأنه الفعال لما يريد كما قال ، مايكون فعالا لما تريد أنت ، الا أن توافق ارادتك ارادته : (وما تشاءون الا أن يشاء الله) (٢٥) .

ويتابع ابن عربى قوله فى هذا الشأن ، فيقول : « الصاحب ، من يترك ارادته لارادة صاحبه ، وهذا فى جناب الحق محال ، فلا يصحب الرب الا ربوبيته ، لكن يصحبه العالم ؛ لصحة هـذا الشرط منـه ، فمن صحبه من العالم ، ترك ارادته ، وغرضه ومحابه ، ومراضيه ، لارادة سيده ، وان كره ذلك (العبد) ... » (٢٦) .

واذا كان الأمر كذلك ، فان الصحبة لاتصح الا من الطرف الواحد ، وهو الأدنى(٢٧) .

ويحذر بعض الصوفية من ادعاء المثلية أو المناسبة مع الله ، فلما كان من الأسماء الالهية (المؤمن) ، وقد شارك الانسان ، الحق تعالى فى هذا الاسم ، فكانت الانسان أخوة معه بهذا الايمـان ، الا أن هذه المشاركة فى الايمان لاتعنى المماثلة أو المناسة ، واستمع الى ابن عربى وهو يقول لمريده: « قف معه (مع الله) فى موضع التسليم ؛ فانه وان كام مؤمنا ، وأنت مؤمن، فأنت على مرتبتك التى تليق بك ، وهو على مرتبته التى تليق به ، وأنت تعلم

---

(٢٥) سورة الانسان آية ٣٠ . وانظر، الفتوحات المكية ، المجلد الثانى ، ص٢٨٧.

(٢٦) راجع ، الفتوحات المكية ، المجلد الثانى ، ص ٢٨٧ .

(٢٧) الفتوحات المكية ، المجلد الثانى ، ص ٢٨٧ .

أنك لست مثله ؛ وان جمعكما الايمــان ، فليست نسبته اليه ، مثــل نسبته اليك ؛ فانك لست مثله ، فلا تغرنك المماثلة ، واعرف قدرك » (٢٨) ٠

وكمال العبد وسعادته فيما يرى بعض الصــوفية ، يكون فى التخلق بأسماء الله تعالى وصفاته ، ولكن لا يظن أحد أن هذه المشاركة فى الأسماء والصفات الالهية توجب المماثلة ، تعــالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فان مشاركة الانسان لله تعالى فى صفات مثل الحياة والعــلم والقدرة والارادة والسمع والبصر والكلام ، لا تجعله نموذجا للحق تعالى ؛ فالله موجود فى غير محل ، ولا يحده مكان ولا زمان ، ولذلك ينبه الغزالى تلميذه بقوله :

« لاتظن أن المشاركة بكل وصف ، يوجب المماثلة ، هيهات ، ألم تعلم أن الله موجود ، لا فى محل ، وان الله تعالى حى ، عالم ، قدير ، مريد ، سميع ، بصير ، متكلم ، فاعل ، والانسان كذلك أيضا ، فترى أن مثبت هذه الأوصاف للانسان ، يكون مشبها ممثلا ، هيهــات ، ليس الأمر كذلك ، بـ المماثلة عبارة عن المشــاركة فى النوع والماهية ٠ والخاصــية الالهية أنه الموجود الواجب الوجود بذاته ، الذى بقدرته يوجد ، كما فى الامكان وجوده على أحسن وجوه النظام والكمال ، وهذه الخاصية لايتصور فيها مشاركة ولا مماثلة البتة ، بل لايعرفها حقيقة الا الله تعالى » (٢٩) ٠

من هذا نرى أن الصحبة قد وردت ، فلا بد لها من وجه يستدعيها ؛ فانه اخبار الهى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، فلا تثبت الصحبة الا اذا لم تأخذ فى حدها الكفاءة ، فاذا أزيلت الكفاءة (أى المماثلة) فى الصحبة ، بقيت الصحبة فى الجنــاب الالهى ، فهو تعالى يصحبنا فى كل حال يكون عليه ، ونحن لا نصحبه الا فى الوقوف عند حدوده ، فما نصحب على الحقيقة الا أحكامه ، لا هو ، فهو معنــا ، مانحن معه ؛ لأنه يعرفنا ، ونحن لانعرفه » (٣٠) ٠

---

(٢٨) الفتوحات المكية ، المجلد الثانى ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ ٠

(٢٩) راجع ، روضة الطالبين ، ص ١٩٣ ٠

(٣٠) الفتوحات المكية ، حـ ٢ ، ص ١٧٠ ٠

فاذا كان الأمر كذلك ، فان ابن عربى يقول فى هذا المعنى

صحبة الكون كله بالذى فيه من نسب
ذل من يصحب الاله على صحة النسب(٣١)

ويذهب بعض الصوفية الى أن الشبه الذى حازه الانسان دون غيره ، هو اتصافه بشبه أوصاف الحق سبحانه ، حيث جعل الله فيه قدرة وارادة وعلما وحياة وسمعا وبصرا وكلاما ، وجعله نسخة من الوجود بأسره ، وخليفة عن الله ، وذلك فيما يرى ابن عجيبة الحسنى(٣٢) ٠

ويرى بعض الصوفية أن الله خلق آدم على صورته ، وأعطاه من الصفات مايشبه صفات الله تعالى ، فان فى الانسان من الأسماء الكامنة فى سره ، ثم تظهر هذه الأسماء على ظاهره ، كالكريم ، والرحمن والحليم ، وما الى ذلك ، واستمع الى ابن عجيبة وهو يقول ان الله خلق آدم ، وأعطاه من الصفات مايشبه صفات الرحمن ، وهى صفات المعانى والمعنوية ، وخصه أيضا ، فجعله خزانة لسائر أسمائه ، ففى الآدمى تسعة وتسعون اسما ، كلها كامنة فى سره ، ثم يظهر على ظاهره ماسبق له فى علم الغيب، فالبعض يظهر عليه اسم الكريم ، والبعض اسمه الرحيم ، والبعض اسمه الحليم ، والبعض اسمه المنتقم ، والبعض اسمه المتكبر ، والبعض اسمه القهار ، والبعض اسمه القابض ، والبعض اسمه الباسط ، وقد يتعاقب عليه أسماء كثيرة فى وقت واحد » (٣٣) ٠

وتقتضى معرفة أسماء الله تعالى وصفاته ، التعلق ، والتخلق ، والتحقق بهذه الأسماء وتلك الصفات ، والتعلق بها يعنى أن يشعر السالك بمعناها فى قلبه وباطنه ، وحول هذا المعنى يقول أبو مدين المغربى فى مناجاته لله تعالى شعرا :

---

(٣١) الفتوحات المكية ، حـ ٢ ، ص ٢٨٦ ٠
(٣٢) الفتوحات الالهية ، ص ٢٦ ٠
(٣٣) الفتوحات الالهية ، ص ٢٦ ٠

ولولا معانيكم تراها قلوبنـــا
اذا نحن أيقاظ ، وفى النوم ان غبنا
لمتنـــــــا أسى وصـــــبابة
ولكن فى المعنى ، معانيكم معنا(٣٤)

والتعلق بمعنى الاسم أو الصفة ، والشعور به فى القلب أو الباطن ، يسميه بعض الصوفية (حرية الباطن) ، فيقول ابن عجيبة الحسنى فى هذا الشأن : « حرية الباطن هى شهود أوصاف الربوبية ، وهو معنى التعلق بها » (٣٥) .

ويحلل بعض الصـوفية طريقة وكيفية التعلق بأوصـاف الله تعالى ، فيقول ابن عجيبة الحسنى لأحد تلاميذه فى هذا الصدد : « كيفية التعلق بأوصاف الحق ، هو أن تلتجىء فى أمورك اليه ، وتعتمد فى حوائجك عليه، وترفض كل ماسواه ، ولا ترى فى الوجود الا اياه ، فاذا نظرت الى عزه وكبريائه وعظمته ، تعززت به ، ولم تتعزز بغيره ، وصغر فى عينك دونه كل شىء ، واذا نظرت الى وصفه تعالى بالمغنى ، تعلقت بغناه ، واستغنيت عما سواه ، ولم تفتقر الى شىء ، واستغنيت به عن كل شىء ، واذا نظرت الى وصفه تعالى بالقدرة والقوة ، لم تلتجىء فى حال عجزك وضعفك الا الى قدرته وقوته ، واستضعفت كل شىء ، واذا نظرت الى سعة علمه واحاطته، اكتفيت بعلمه ، واستغنيت عن طلبه » (٣٦) .

وينبغى للعارف أيضا فيما يرى صوفية الاسلام ، لكى يعرف حقيقة أسماء الله وصفاته ، التخلق بمعنى كل اسم وصفة ، وهو أن يقوم به معنى هذا الاسم أو تلك الصفة ، فيكتسب هذه الصفات الالهية ويجعلها خلقا له ، بأن ينظر فيها ، ويخلى قلبه عما سواها من الصفات البشرية السيئة ، ويمر العارف ، فى هذه المرتبة من التعرف على حقيقة الأسماء والصفات الالهية بمراحل متصلة شعـوريا ، وهى أنه حين التخلق بصـفات الله ، يستعظم ماينكشف له من تلك الصفات ؛ ليقرب بها من الله تعـالى ، قربا بالصفة ،

---

(٣٤) راجع ، أبو مدين المغربى ، حياته وتصوفه ، ص ٢٥٧ .
(٣٥) ايقاظ الهمم ، ص ٢٣٣ .
(٣٦) ايقاظ الهمم ، ص ٢٣٣ .

فيمتلىء قلبه باستعظام هذه الصفات ، وهذا الاستعظام يتبعه شوق الى تلك الصفات ، وحرص على التحلى بها ، والى هذا المعنى يشير أبو مدين بقوله: « التخلق : أن يقوم بك معنى الاسم » (٣٧) ٠

ويجب على السالك فيما يرى بعض الصوفية ، التحقق بأسـماء الله وصفاته ، بأن يفنى عن الصفات التى فيها حظوظ النفس ، ويتحلى بأضدادها، مما يليق بوصفه هو فى علاقته مع الله ، فيكون مع الله بالافتقار ، لا بالغنى، وبالذل لا بالعز ، وبالضعف لا بالقوة ، وهكذا فى جميع الصفات الالهية ، ولا يصح التحقق بالوصف ، حتى يتعلق بأضـداد هذه الأوصـاف من الله تعالى ، فلا يلتجىء فى فقره ولا عجزه ولا ضعفه الى أحد سواه ، والى هذا المعنى يشير أبو الحسن الشـاذلى فى حزبه الكبير : « نسـألك الفقر ممـا سواك ، والغنى بك ، حتى لا نشهد الا اياك » (٣٨) ٠

وأوصاف العبودية فيما يرى بعض الصوفية أربعة ، يقابلها منأوصاف الربوبية أربعة : أولها : من العبد الفقر ، ومن الله الغنى ، الثانى : من العبد الذل ، ومن الله العز ، والثالث : من العبد العجـز ، ومن الله القـدرة ، والرابع : من العبد الضعف ، ومن الله القوة » (٣٩) ٠

ويقول ابن عطاء الله السـكندرى حول هـذا المعنى لمريده : « تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ، وتحقق بذلك ، يمدك بعزته ، وتحقق بعجزك يمدك بقدرته ، وتحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته » (٤٠) ٠

وعلى الجملة : فانه لما كانت صفات الله تتعالى عن أن تشبه صـفاتنا فاذن يستحيل أن يعرف الله تعالى على الحقيقة غير الله تعالى ، فنهاية المعرفة الالهية هى أن يكشف للعارف استحالة معرفة حقيقة ذات الله تعالى لغير

---

(٣٧) ابن قنفذ القسنطينى ، أنس الفقير ، نسخة خطية بدار الكتب بالقاهرة ، رقم ٣٠٣ مجاميع ، ورقة ٤١ أ ٠

(٣٨) ايقاظ الهمم ، ص ٣١٤ ٠

(٣٩) ايقاظ الهمم ، ص ٣١٤ ٠

(٤٠) ايقاظ الهمم ، ص ٣١٤ ٠

الله ٠ وانما تكون حدود معرفة الله فى معرفة أسمائه وصفاته وعجائب قدراته ، ويكون تفاوت العارفين ، فى معرفة الله تعالى(٤١) ٠

٥ ـ أداة المعرفة :

يعتبر القلب(٤٢) أداة المعرفة عند صوفية الاسلام ، وهم قد ربطوا بين الصحبة والقلب ، اذ لما كان أحد معانى الصحبة عندهم ، هو المخالطة ، فان بعض الصوفية يرى أن من مفسدات القلب مخالطة الأشرار وأهل البدع ، وحول هذا المعنى يقول ابن القيم : « الضابط النافع فى أمر الخلطة : أن يخالط (السالك) الناس فى الخير ، كالجمعة والجماعة ، والأعياد ، والحج، وتعلم العلم ، والجهاد ، والنصيحة ، ويعتزلهم فى الشر ، وفضول المباحات، فان دعت الحاجة الى خلطتهم فى الشر ، ولم يمكنه اعتزالهم ، فالحذر ، الحذر ، أن يوافقهم » ٤٣) ٠

والقلب السليم ، هو المعافى عن الشهوات والأخلاق المذمومة ، فان القلب اذا تعرض للشهوات والمعاصى ؛ فانه يفسد ولا يتحقق بالمعرفة الالهية ، واذا كان الأمر كذلك ، فانه يجب على السالك أن يعمد الى تصفية قلبه مما يميل اليه من الشهوات والأهواء والأمراض التى تفسده ، والى هذا المعنى يشير أبو مدين بقوله : اذا سلى القلب عن الشهوات فهو معافى » (٤٤) ٠

وبهذا يتطهر السالك من الأكدار ، فيظهر فى قلبه الحقائق والمعارف الالهية ، وينعت الصوفية هذا القلب السليم ، بالقلب المنور ، ويرى أحمد الرفاعى أن القلب المنور ، يميل الى صحبة العلماء والعارفين ، وينفر من صحبة المتكبرين(٤٥) ٠

---

(٤١) راجع ، روضة الطالبين ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ ٠

(٤٢) يقرر الغزالى مثلا ، أن القلب ليس هو هذه القطعة اللحمية التى فى الصدر من الجانب الايسر ، انظر ، أبو حامد الغزالى ، كيمياء السعادة ، القاهرة عام ١٩٣٤ م ، ص ٨ ٠

(٤٣) مدارج السالكين ، حـ ١ ، ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ ٠

(٤٤) شرح حكم أبى مدين ، ص ٤٠ ، وراجع ، أبو مدين المغربى ، حياته وتصوفه ، ص ٢٦٠ ٠

(٤٥) حكم أحمد الرفاعى ، ص ٢٠ ٠

ولما كانت مخالطة الأشرار وأهل البدع ، والحمقى ، تميت القلب وتفسده ، فان بعض الصوفية يرى أن الخلوة بالقلب تكون علاجا فى هذا الشأن ، فيكون القلب مستغرقا بكليته مع الحق تعالى ، معكوفا قلبه عليه ، مشغوفا ، والها اليه ، متحققا كأنه بين يديه ، وذلك فيما يرى أبو حامد الغزالى(٤٦) ٠

وأفضل أنواع الصحبة فيما يرى القشيرى ، هى صحبة القلب لله تعالى ، مع دوام الافتقار والحاجة الى الحق ، فهو يقول لمريديه فى هذا الشأن : « الصحبة التى لابد منها ، صحبة القلب، مع دوام افتقار الى الله ؛ اذ الحق لابد منه ، وأما الأغيار ، فلا حاجة لبعضهم الى بعض الا من حيث الظاهر ، وذلك فى ظنون أصحاب التفرقة » (٤٧) ٠

ولما كان العدو ضد الصاحب ، فان الشيطان عدو الانسان ، ومنعظيم حيل الشيطان فيما يرى الغزالى أنه يشغل الانسان عن نفسه ؛ بالاختلافات الواقعة بين الناس فى المذاهب والخصومات ، والى هذا المعنى يشير عبدالله ابن مسعود بقوله : « جلس قوم يذكرون الله تعالى ، فأتاهم الشيطان ؛ ليقيمهم عن مجلسهم ، ويفرق بينهم فلم يستطع ، فأتى رفقة أخرى يتحدثون بحديث الدنيا ، فأفسد بينهم ، فقاموا يقتتلون ، وليس اياهم يريد ، فقام الذين يذكرون الله تعالى ، فاشتغلوا بهم يفصلون بينهم ، فتفرقوا عن مجلسهم ، وذلك مراد الشيطان منهم » ٠ (٤٨) ٠

والعدو الذى هو الشيطان ، يريد أن يقطع السالك عن الوصول الى الله تعالى ومعرفته ، ويريد أن يبعده عنه ، فيعطيه الشكوك والاضطراب والجزع والسخط والهزل ، يقول الحارث بن أسد المحاسبى فى هذا الشأن : « العدو (أى : الشيطان) يريد أن يقطعك عن الله عز وجل ، مولاك وسيدك، بسوء ظنونه وقنوطه وشكوكه وخدعه ، ، وحبائل مصائده ، وكثرة غروره، ويزين لك العمل فى نفسك ، قال الله عز وجل : (وزين لهم الشيطان أعمالهم

---

(٤٦) راجع ، روضة الطالبين ، ص ١٤٠ ، ١ ١٤ ٠

(٤٧) لطائف الاشارات ، حـ ٢ ، ص ٦٦ ٠

(٤٨) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٣١ ٠

فصدهم عن السبيل) (٤٩) ، ويريد أن يبعدك عن الله مولاك ، وعن الحظ الجزيل من الله عز وجل ، والنعمة القصوى ، ويعطيك الشكوك ، ويأخذ منك السكون ، ويعطيك الاضطراب ، ويأخذ منك الصبر ، ويعطيك الجزع ، ويأخذ منك الرضا ، ويعطيك السخط ، ويأخذ منك الجد ، ويعطيك الهزل » (٥٠) ٠

والشيطان يتسلط على القلب بخواطره(٥١) ، فينبغى على السالك دفع هذه الوساوس والخواطر الشيطانية ، وتطهير القلب منها ، وذلك يـكون بالمجاهدة ، وذكر الله تعالى ، يقول الغزالى حول هذا المعنى : « الداعى الى الشر المحذور فى المستقبل ، عدو ، فقد عرف العدو ، لا محالة ، فينبغى أن يشتغل بمجاهدته ، وقـد عرف الله سبحانه عداوته فى مواضـع كثيرة من كتابه ، ليؤمن به ، ويحترز عنه ، فقال تعالى : (ان الشيطان لكم عـدو ، فاتخذوه عدوا ، انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) (٥٢) ، وقال تعالى : (ألم أعهد اليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان ، انه لـكم عدو مبين) (٥٣) ، فينبغى للعبد أن يشغل بدفع العدو عن نفسه» (٥٤) ٠

والله تعالى يصاحب ويجالس من يشتغل قلبه بذكره على دوام الأوقات، فيقول تعالى فى حديث قدسى : (أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيته الغالب عليه التمسك بذكرى ، توليت سياسته ، وكنت جليسه ، ومحادثه ، وأنيسه)(٥٥)

وحياة القلب فيما يرى بعض الصوفية فى ذكر الله تعـالى ، وصحبة الأولياء ، أهل المعرفة الالهية ، أما موت القلب فتكون بصحبة الغافلين عن

---

(٤٩) سورة العنكبوت آية ٣٨ ٠

(٥٠) القصد والرجوع الى الله ، ص ٤٣ ، ٤٤ ٠

(٥١) الخواطر تنقسم الى ما يعلم قطعا أنه داع الى الشر ، فلا يخفى كونه وسوسة ، والى ما يعلم أنه داع الى الخير ، فلا يشك فى كونه الهاما ، والى ما يتردد فيه ، فلا يدرى أنه من لمـة الملك ، أو من لمـة الشيطان ، راجع ، احياء علوم الدين للغزالى ، حـ ٣ ، ص ٢٥ ٠

(٥٢) سورة فاطر آية ٦ ٠

(٥٣) سورة يس آية ٦١ ٠

(٥٤) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٥ ٠

(٥٥) احياء علوم الدين ، حـ ٣ ، ص ٢٢ ٠

ذكر الله تعالى ، وحول هذا المعنى يشير ابن عجيبة الحسنى بقوله : « موت القلب سببه ثلاثة أشياء ، حب الدنيا ، والغفلة عن ذكر الله ، وارسال الجوارح فى معاصى الله ، وسبب حياته ثلاثة أشياء ، الزهد فى الدنيا ، والاشتغال بذكر الله ، وصحبة أولياء الله ، وعلامة موته ثلاثة أشياء : عدم الحزن على مافات من الطاعات ، وترك الندم على مافعلت من الزلات ، وصحبتك للغافلين » (٥٦) ٠

٦ – منهج المعرفة :

يعتبر الكشف(٥٧) عند الصوفية ، أرقى مناهج المعرفة ، وهو ادراك وجدانى مباشر ، يختلف عن الادراك الحسى أو العقلى المباشر ، وقد تعددت الأسماء للطريقة التى تتم بها المعرفة عند الصوفية ، فهم قد يطلقون عليها أحيانا ، الكشف ، وأحيانا أخرى ، البصيرة(٥٨) ، فى مقابل الحس والعقل والتحليل والتركيب والاستدلال ٠

ولابد للمعلم أو الشيخ ، للمريد أو السالك ؛ لتمرينه على الكشف كمنهج للمعرفة الالهامية ، فينبه الغزالى السالك الى هذا المعنى ، موجها خطابه اليه قائلا : (المعلم أعلم بما أنت أهل له ، وبأوان الكشف ، وما لم يدخل فى أوان الكشف » (٥٩) ٠

ولما كانت صحبة الله تعالى لاتصح الا من **الأدنى الى الأعلى** ، أى من المريد أو السالك الى الحق تعالى ، ولما كانت الصحبة تقوم على الحب أولا، فان السالك أثناء ترقيه للوصول الى الله تعالى ومصاحبته ، يكشف له

---

(٥٦) ايقاظ الهمم ، ص ١٠٥ ٠

(٥٧) الكشف فى اللغة : رفع الحجاب ، وفى الاصطلاح (أى عند الصوفية) ، الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعانى الغيبية والامور الحقيقية وجودا وشهودا ، أنظر ، الجرجانى ، التعريفات ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة عام ١٩٣٨ م ، ص ١٦٢ ٠

(٥٨) البصيرة عند الصوفية هى قوة القلب المنور بنور القدس ، يرى بها دقائق الاشياء وبواطنها ، وهى بمثابة البصر للنفس ، ويرى به صور الاشياء وظواهرها ، أنظر ، التعريفات ، ص ٣٩ ٠

(٥٩) احياء علوم الدين ، حـ ١ ، ص ٤٥ ٠

الحجب ، فيرى الجمال الالهى ، ويقسم الصوفية ، السالكين ، فى الكشف كمنهج للمعرفة الوجدانية الى خمسة أقسام ، من حيث ارتباط منهج المعرفة وهو الكشف ، بالصحبة ، فيقول الصوفى أبو الحسن الشاذلى (المتوفى عام ٦٥٠ هـ) : « من كشف له عن ذلك الجمال ، وحظى منه بشىء ، نفسا أو نفسين ، ثم أرخى عليه الحجاب ، فهو الذائق المشتاق ، ومن دام له ذلك ساعة أو ساعتين ، فهو الشارب حقا ، ومن توالى عليه الأمر ، ودام له الشرب ؛ حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله المخزونة ، فذلك هو الرى ، وربما غاب عن المحسوس والمعقول ، فلا يدرى مايقال ، ولا مايقول، فذلك هو السكر ، وقد تدور عليهم الكاسات ، وتختلف لديهم الحالات ، ويردون الى الذكر والطاعات ، ولا يحجبون عن الصفات ، مع تزاحم المقدرات، فذلك وقت صحوهم ، واتساع نظرهم ، ومزيد علمهم ، فهم بنجوم العلم ، وقمر التوحيد يهتدون فى ليلهم ، وبشموس المعارف يستضيئون فى نهارهم » (٦٠) ٠

ويستخدم هنرى برجسون ، اسم « الحدس » ؛ للتعبير عن منهج الكشف الصوفى ، وهو يوضح هذا المنهج عند الصوفية بقوله : « ان ماهو مطلق ، لا يمكن أن ينكشف لنا الا عن طريق الحدس ، وأما كل ماعداه ، فهو وليد التحليل ، ونحن نطلق هنا لفظ الحدس ، على تلك المشاركة الوجدانية ، التى بمقتضاها ، ننفذ الى باطن أى موضوع ، لكى نتطابق مع مافى ذلك الموضوع من أصالة فريدة ، وبالتالى ، مع مافيه من فردية لايمكن التعبير عنها، وعلى العكس من ذلك ، نجد أن التحليل ، هو تلك العملية التى ترجع الموضوع الى عناصر مشتركة بينه وبين غيره من الموضوعات » (٦١) ٠

ويقتضى الكشف عند الصوفية ، أن يخلع السالك عذاره ، والعذار هو مايقيد السالك ، ويعله مقصده ، من البنين والأصحاب والاخوان والمال والذهب ؛ فاذا لم يفن السالك عن هذا العذار ، فانه يظل محجوبا ، لم يرفع

---

(٦٠) ابن عطاء الله السكندرى ، لطائف المنن ، المكتبة السعيدية ، القاهرة عام ١٩٧٢ ، ص ٤٠ ٠

2) Bergeson (H.), La Pensée et Mouvant, Paris, 1946, p. 181.

عنه الأستار ، والى ذلك الاشـارة يقول أبى مدين لمريده : « من لم يخـلع العذار ، لم ترفع له الأستار » (٦٢) ٠

ويوضح نيكلسون ، منهج المعرفة الكشفية عند الصوفية ، فيرى أن هذه المعرفة مباشرة لله ، تؤسس على البصيرة أو الرؤيا الكشفية ، ولا تكون نتيجة لنسق عقلى ، وتعتمد كلية على الارادة والفضل الالهى الذى وهبه الله ؛ نعمة منه لهؤلاء الذين خلقهم بمقدرة على تلقيها ، وهى نور من الفضل الالهى الذى يسطع على القلب ، ويفيض على البشر المهيأ له ، فى اشعاعاته التى تبهر البصر(٦٣) ٠

والكشف الصوفى فيما يرى الصوفية يكون نتيجة الذوق أو القلب أو الوجدان ، وليس نتيجة العقل أو المنطق أو الاستدلال أو الاستنباط ، والى هذا المعنى ينشد جلال الدين الرومى :

ذهب العمر فى المحمول والموضوع
كما ذهب من غير بصيرة فى المسموع(٦٤)

ويصف صوفية الاسلام ، الكشف ـ كمنهج للمعرفة الالهية ، بالنور، والنور يفيد كشف المعانى المغيبات ؛ حتى تتضح وتشاهد ، ومحل هذاالنور، هو القلب ، ويكون أولا ضعيفا كنور النجوم ، وهو نور الاسلام ، ثم لايزال يتقوى ، ويستمد من النـور الوارد من خزائن الغيـوب ، حتى يكون كنور القمر ، وهو نور الايمان ، ثم لايزال ينمو بالطاعة والذكر والصحبة ، حتى يكون كنور الشمس ، وهو نور الاحسان » (٦٥) ٠

ويذهب بعض الصوفية الى أن نهاية كشف النور الأول ، الفناء فى

---

(٦٢) شرح حكم أبى مدين ، ص ٤٦ ٠

2) Nicholson (R.), The Mystics of Islam, London, 1935. p. 150.

(٦٤) قاسم غنى (الدكتور) ، تاريخ التصوف فى الاسـلام ، مكتبة النهضـة المصرية ، القاهرة ١٩٧٢م ، ص ٧٣٤ ٠

(٦٥) ايقاظ الهمم ، ص ٢٧٨ ٠

الأفعال ، ونهاية كشف النور الثانى ، الفناء فى الصفات ، ونهـاية كشف النور الثالث ، التمكين فى الفناء فى الذات(٦٦) ٠

والنور ، فيما يرى بعض الصـوفية هو اللذة الروحية التى يجـدها المريد فى قلبه ، فأصحاب الفناء فى الأفعال يجدون حلاوة ولذة الخدمة لله تعالى ، أما أهل الفناء فى الصفات فيتذوقون لذة الذكر ، وأخيرا ، فان أهل الفناء فى الذات يشعرون بلذة الفكرة والنظرة ، وحول هذا المعنى يقول ابن عجيبة : «النور عبارة عن الحلاوة والقوة التى يجدها المريد فى باطنه ، من مزيد ايمان ، وقوة ايقان ، فحلاوة الخدمة لأهل الفناء فى الأفعال ، وحلاوة الذكر الحسى اللسانى أو القلبى لأهل الفناء فى الصفات ، مع الحجاب ، وحلاوة الفكرة والنظرة لأهل الفناء فى الذات » (٦٧) ٠

وغاية الكشف أو التجلى عند الصـوفية ، الشهود ، فاذا اسـتحكم الكشف وقوى ، صار شهودا(٦٨) ٠

وكمال الشهود عند بعض الصوفية ، أن يشهد العارف ذاتا مجردة عن كل أسم ووصف ، ومن ظن أن الشهود : ظهور الذات لعيانه حقيقة فقد أخطأ، فالعارف فى شهوده ، لا تنكشف له الذات على وجه الحقيقة ، وانما الذى يشهده ، نور المعرفة الالهية القائمة على الادراك الباطنى المباشر ، أو الالهام، واستمع الى الصوفى عمر بن الفارض وهو يتحسر على ضياع أوقاته ، ولم يتحقق على الوجه الأكمل بشهود وجه الحق تعالى ، فهو ينشد قائلا :

واحسرتى ضاع الزمان ولم أفز
منكم أهل مودتى بلقاء(٦٩)

وكل من اشتغل بالحس ، علما أو عملا ، لا يذوق حلاوة الشهود أبدا، ولا يطمع أن ينتقل من شغل الحس الى شهود المعنى ، الا بصحبة أهل المعنى،

---

(٦٦) ايقاظ الهمم ، ص ٢٨٠ ٠

(٦٧) ايقاظ الهمم ، ص ٢٨١ ٠

(٦٨) الشهود عند الصوفية ، رؤية الحق بالحق ، أنظر التعريفات ، ص١١٤ ٠

(٦٩) البوريني والنابلسى ، شرح ديوان ابن الفـارض ، دار التراث بيروت ، ١١٢٣ هـ ، جـ ٢ ، ص ١٩ ٠

منكرا لأهل المعانى على الدوام طريقهم ومنهجهم فى الكشف الوجدانى أو الشهود ، وحول هذا المعنى يقول ابن البنا السرقسطى شعرا :

يا من اذا قيل له تعال
لمنهج التحقيق ، قال : لا لا(٧٠)

والمقصود بمنهج التحقيق عند الصوفية ، هو طريق الوصول الى معرفة الحق معرفة حقيقية عيانية ، لابرهانية(٧١) ٠

٧ ـ ارتباط الصحبة بالوجود :

بعد ذلك ينتهى بعض الصوفية الى مذاهب ، فى تصور الوجود ، فقد خاض بعض صوفية الاسلام فى البحث فى الوجود ، الى جانب البحث فى النفس والأخلاق والمعرفة ٠

ويمكن تقسيم الصوفية فى تصورهم للوجود وارتباط ذلك بالصحبة الى الأقسام التالية :

(أ) الصوفية السنيون ، الذين ينطقون بالاثنينية فى حال الصحو ، ولكنهم فى حال السكر والفناء ، ينطلقون فى القول بشهود الأحدية من الناحية الشعورية الوجدانية،فالصحبة أو الأخوة أو الصداقة ، وما الى ذلك يستغرق فى شهود الحق ، بعدها يعود الصوفى الى حال الصحو والبقاء فى حال الاثنينية ، فيفرق بين الصحبة والحق تعالى ٠

(ب) صوفية الشطح : الذين خضعوا لأحوال الوجد ، فمنهم من يقول بارتباط الصحبة بالحق تعالى ، فلا صاحب ولا خليل الا الله تعالى ، وهو أمر شعورى ، على نحو مانجده عند أبى يزيد البسطامى ، وأبى بكر الشبلى ، ولكن ذلك الشعور عندهم لايدوم ، فيعود الصوفى بعدها الى الاثنينية ، فيفرق بين الصحبة والحق ، ومنهم من يقول بحلول الحق تعالى فى الانسان، وهذا الحلول شعورى أيضا ٠

---

(٧٠) الفتوحات الالهية ، ص ٢٩٩ ٠

جـ) الصوفية المتفلسفون ، الذين ينكرون الصحبة من الله للانسان ، وليس من الانسان الى الله ، وذلك فى تصورهم للوجود ، على أساس القول بوحدة الوجود ، مثل محيى الدين بن عربى ، وعبد الحق بن سبعين وغيرهم

ولكى نتبين ارتباط الصحبة بتصور الصوفية للوجود ، سنعرض هنا ، تصور كل طائفة منهم لذلك :

(أ) الصحبة والوجود عند الصوفية السنيين :

فكرة الصحبة لها دور عند الصوفية السنيين ، من حيث أن شـــهود الأحدية فى الوجود ، شهود عارض ، يرتبط بالصحبة ، وبذلك نجد أنهم يدرجون تحت الاثنينيين ؛ لأنهم فى حال الصحو ، يؤكدون على هذه الاثنينية، فيفرقون بين الصحبة والحق ، أما فى وقت شهود الأحدية ، فان الصـــوفى يشهد فناء ماسوى الله تعالى فى وجوده ، ثم يشهد فناءه عن نفسه شهودا، وفى هذا الشهود تتلاشى الصحبة فلا يعود له شعورا بالصحبة ، لفنـــائه فى شهود الله تعالى ، ويشهد الحق بنظرة واحدية ، هى مضمون الشهود ، فلا يشعر بالصحبة ولا غيرها .

وهكذا تكون أول علامة لشهود الأحدية عند الصـــوفية ، هى خروج الصوفى عن الكائنات ، ورد جميع الموجودات الى الله تعالى ؛ لما يســـتولى عليه من حقائق التوحيد ؛ بحيث لايشهد حركة ظاهرة أو باطنة أو أثر ، ولا يسمع خبرا ، ولا يلاحظ حسا ، ولا معنى ، فالحق يفنيه عن الأكوان وعن نفسه ، فيضمحل جمعه ومتفرقاته ، وتتلاشى أحواله وأعماله (٧١) .

وبالجملة فمن غلب عليه شهود الأحدية ، وكوشف بسر الوحدانية ، واستغرق فى الحقيقة العيانية ، انقطع عن الشعور بنفسه ، وغاب عن السوى بالكلية ، وذلك على حد تعبير ابن عجيبة الحسنى(٧٢) .

ويذهب بعض الصـــوفية الى أنه فى حال الفنـــاء ، يشـــهد الصـــوفى

---

(٧١) راجع ، أبو مدين المغربى ، حياته وتصوفه ، ص ٢٨٨ .
(٧٢) أنظر ايقاظ الهمم ، ص ١٥٥ .

الكائنــات كالظل والظلال ، فالظلال غير موجودة بالاضـــافة الى مراتب الوجود ، وغير معدومة بالنسبة الى مراتب العدم ، واستمع الى ابن عطاءالله السكندرى ، وهو يقول فى لطائف المنن : « أشبه شىء بوجود الكائنات — اذا نظرت اليها بعين البصيرة ، وجود الظلال والظل ، لاموجود باعتبار جميع مراتب الوجود ، ولا معدوم ، باعتبار جميع مراتب العدم » (٧٣) ٠

ومن شهد ظلال الآثار ، لم تعقه هذه الظلال عن شهود الأحدية ؛ لأن الظلال ليست حجبا وجودية تمنع عن شهود الأحدية ، ويبرهن ابن عجيبــة على ذلك بما يشاهده فى الطبيعة من الآثار ، فهو يقول : « اذا ثبت ظلية الآثار ، لم تنسخ أحدية المؤثر ؛ لأن الشىء انما يشــفع بمثله ، ويضم الى شكله ، كذلك أيضا ، من شهد ظلية الآثار ، لم تعقــه عن الله ، فان ظــلال الأشجار فى الأنهار لا تعوق السفن عن الســير ، ومن هنا يتبين لك أن الحجاب ليس أمرا وجوديا ، بينك وبين الله تعالى(٧٤) ٠

ويوصى بعض صوفية الاسلام بصحبة من يوصل الى الله تعالى ويشهده شهودا ذوقيا ، فيقول ابن عجيبة حول هذا المعنى : « ان صحبة من يوصل الى الله ، فما هى الا صحبة الله ، اذ ما ثم سواه ، والنظر الى العارف بالله، فانما هو نظر الى الله ؛ اذ لم تبق فيه بقية لغير الله ، فصار نورا محضا من نور الله(٧٥) ٠

وأثناء شهود الصوفى للأحدية ، فانه يجد الله تعالى فى كل شىء ،وعند كل شىء ، وقريبا من كل شىء ، ومحيطا بكل شىء ، بقرب هو وصفه ، وبحيطة هى نعمته ، وذلك فيما يرى ابن عجيبة(٧٦) ٠

واذا كان الأمر كذلك ، فان الصوفى ، فى لحظة شهوده للأحدية ؛ يفنى عن الصحبة والأصحاب والأماكن والجهات ، والقرب فى المسافة ، فينمحق

---

(٧٣) راجع ، ايقاظ الهمم ، ص ١٥٥ ٠

(٧٤) ايقاظ الهمم ، ص ١٥٥ ٠

(٧٥) ايقاظ الهمم ، ص ٢٥٠ ٠

(٧٦) راجع ، ايقاظ الهمم ، ص ٢٥٤ ٠

الكل ، ويشير ابن عجيبة الى ذلك بقوله عن الحق تعالى : « بعد عن الظرفية والحدود ، وعن الأماكن والجهات ، وعن الصحبة ، والقرب فى المسـافة ، وعن الدور بالمخلوقات ، والحق للكل ؛ بوصفه الأول والآخر ٠ والظاهر والباطن » (٧٧) ٠

ويقسم الصوفية السنيون ، العارفين ، بالنسبة الى ارتباط الصحبـة بشهود الأحدية ، الى قسمين :

١ ـ قسم وجههم الحق لخدمته ، وأقامهم فيها ، وهم أنواع :

(أ) فمنهم من انقطع فى الفيافى والقفار ؛ لقيام الليل ، وصـيام النهار ، وهم العباد والزهاد ٠

(ب) ومنهم من وجهه الحق لاقامة الدين ، وحفظ شرائع المسـلمين ، وهم العلماء والصلحاء ٠

(جـ) ومنهم من أقامه الحق لنصرة الدين ، واعـلاء كلمـاته ، وهم المجاهدون فى سبيل رب العالمين ٠

(د) ومنهم من أقامه الحق لتمهيد البلاد ، وتسـكين العباد ، وهم الأمراء والسلاطين ٠

٢ ـ وقسم أقامهم الحق لمحبته (وصحبته) ، واختصهم بمعرفته ، وهم العارفون الكاملون ، سلكوا سواء الطريق ، ووصلوا الى عين التحقيق

ويفرق ابن عجيبة الحسنى بين القسمين :

(أ) فأهل الخدمة ، ينتظرون الأجر على العمل ، وهم مسدول بينهم وبين الله تعالى الحجب والأستار ، كما انهم من أهل الدليل والبرهان ٠

(ب) ولما كانت الصحبة أسـاسها المحبة ؛ فان أهل المحبة هم أهل الصحبة مع الله تالى ، وهم قوم مرفوع بينهم وبينه الحجاب ، وهم من أهل الشهود والعيان(٧٧) ٠

---

(٧٧) راجع ايقاظ الهمم ، ص ٢٥٤ ٠

(٧٨) راجع ايقاظ الهمم ، ص ١٤٠ ٠

ولما كان أهل الخدمة يشتغلون بحظوظهم ، فان الله تعالى قد أقامهم فى خدمته والاستمرار فى هذه الخدمة ، أما اذا تركوا الحظوظ ، وحصروا محبتهم وصحبتهم فى الحق تعالى ، فانهم يشهدون الله شهوداً ذوقياً وجدانيا ؛ وبذلك فانهم يستريحون من الخدمة ، وحول هذا المعنى يقول ابن عجيبة :

« دام أهل الخدمة فى خدمتهم ، ونفذ المحبون (من أهل الصحبة لله تعالى) الى شهود محبوبهم ، فلو تركوا الحظوظ ، وحصروا محبتهم فى محبوب واحد ؛ لنفذوا الى محبوبهم ، وشهدوه ببصر ايقانهم ، واستراحوا من تعب خدمتهم ؛ ولكن حكمة الحكيم أقامتهم فى خدمته » (٧٩) ٠

ويذهب بعض صوفية الاسلام الى أنه لما تخلى أهل الخدمة عن حظوظهم، تجلى لهم الحق بصفة الجلال والهيبة ، فصاروا مستوحشين من الخلق ، قلوبهم شاخصة لما يرد عليها من حضرة الحق ، قد نحلت أجسادهم ، واصفرت ألوانهم ، وخمصت بطونهم ، وبالشوق ذابت أكبادهم ، وقطعوا الدياجى بالبكاء والنحيب ، واستبدلوا الدنيا المجاهدة فى الدين ، ورغبوا فى جنة عرضها السموات والأرض ، أعدت للمتقين » (٨٠) ٠

وقد حرص الصوفية ألا يتعارض كلامهم فى شهود الأحدية مع الشريعة ، فرأوا أن الصوفى لابد له من العودة الى البقاء بعد الفناء عن شهود ماسوى الله ؛ ليقوم بخدمة الحق تعالى والعبودية له ، وتنفيذ أوامر الشريعة فان شهود الصوفى قيامه بالخدمة والعبودية والطاعات والعبادات، يكون أكمل من غيبته عن ذلك ، وأداؤها فى حال يقظته وشعوره بتفاصيلها، وقيامه بها ، أتم وأكمل ، ولذلك فان ابن عطاء الله السكندرى يناجى الحق تعالى فى احدى حكمه ، أن يجمعه الله اليه ، بدوام شهود الأحدية ، فهو يدعو ربه بقوله : « الهى : تنزهى من الأسرار ، يوجب وصل المسار ، فاجمعنى اليك بنظرة تقيمنى بين يديك » (٨١) ٠

---

(٧٩) ايقاظ الهمم ، ص ١٤٠ ٠
(٨٠) راجع ، ايقاظ الهمم ، ص ١٤١ ٠
(٨١) ايقاظ الهمم ، ص ٥٠١ ٠

ويحلل ابن عجيبة هذه الحكمة بقوله : « هذه غاية الجمع ، وهو تمكن النظرة ، ودوام شهود الحضرة ، ولا يذوق هذا ، الا من سبقت له الخدمة، وتداركته عناية الجذبة » (٨٢) ٠

وعلى الجملة ، ففناء الصوفية من أصحاب شهود الأحدية فى الوجود، يعود منه الصوفى الى اثبات الثنائية بين الله والعالم ، ومن هنا ، كان شهود الأحدية عندهم ، عبارة عن الفناء عن شهود الكثرة ، لا تفى هذه الكثرة عن حقيقة الوجود ، وحول هذا المعنى يقـــول ابن عطاء الله السكندرى فى مناجاته لله تعالى :

« الهى : ترددى فى الآثار ، يوجب بعد المزار ، فاجمعنى عليك بخدمة توصلنى اليك »(٨٣) ٠

فالتردد فى الآثار ، هو اثبات الكثرة فى الوجود ، وهى المخلوقات والكائنات المخلوقة لله ، ولواحقها ، وهذا هو مقام الفرق ، وهو الاثبات ، أما مقام الجمع على الله ، فهو حالة نفى ، أى نفى الآثار شهوداً ، وغاية الجمع على الله ، هو نفى الآثار ، ثم اثباتها بالله تعالى ، وهو مقام أهل البقاء ، والجمع بين الحقيقة والشريعة ، وقد وضح رينولد ألن نيكلسون حقيقة البقاء عند الصوفية بقوله :

« ان الصوفى ، فى حال البقاء ، يعود الى الناس ، وقد اتصف وتشبه بالصـــفات الالهيـــة ، فيظهـــر لهم الحقيقـــة ، ويقيم الشرع ، على وجهـــه الصحيح » (٨٤) ٠

ويتساءل والترستيس ، فى كتابه : التصوف والفلسفة ، كيف تستطيع نظرية الاثنينينية ، تفسير الأحدية ، كعلاقة مشابهة بين وجودين مختلفين ؟

---

(٨٢) راجع ايقاظ الهمم ، ص ٥٠١ ٠

(٨٣) ايقاظ الهمم ، ص ٥٠٠ ٠

(٨٤) نيكلسون ، فى التصوف الاسلامى وتاريخه ، ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى، الهيئة العامة للكتاب ، عام ١٩٦٩ م ، ص ١٢٣ ٠

ويجيب ستيس ، بانه وفقـا لنظرية الأثنينية ، تكون العـلاقة بين الله والذات الفردية (أى : الانسان) ، فى لحظة الجمع الصوفى ، هى أنه ، على الرغم من أنهما يستمران موجودان متمايزان ، الا أنه يوجد بينهما تشابه تام ، قل أو كثر ، يتضمن كل العنـاصر الروحيـة ، والارادة والعـاطفة والادراك » (٨٥) ٠

وما أعمق المعنى فيما يقول ابن عجيبة الحسنى ، وهو يحلل عـلاقة الصحبة بين الله وعباده فى لحظة شهود الأحدية ، مناجيا الحق تعـالى : « أنت المؤنس لهم بحلاوة ذكرك ، وشهود نورك ، حيث أوحشتهم العوالم ، فلم يستأنسوا بشىء منها ، بل اسـتوحشوا منهـا ، من حيث كونيتهـا ، واستأنسوا بصانعها ، والمتجلى فيها ، فأبدلهم الله ، الأنس به فى الخلوات، والمجالسة معه فى الفلوات ، بحلاوة المشـاهدة ، والمكالمة ، والمسـامرة ، والمناجاة ، وهذا هو النعيم المقيم ، والفوز العظيم » (٨٦) ٠

(ب) الصحبة وصوفية الشطح :

ترتبط الصحبة عند صوفية الاتحـاد ، بالله تعـالى ، فهم يشـعرون بالاثنينية بين الله والعالم ، فى حال الصحو والبقاء ، فهناك صحبة بين الله تعالى والانسان ، أما فى حال الفناء والسكر الصوفى ، فانه لما كانت الصحبة قائمة على أساس المحبة بين الله والانسان ، فان الصوفى ، فى حال الفناء ، يشعر بأن صحبته مع الله تعالى ، قد انتهت الى الاتحاد بينه وبين الحق ، بحيث لايعود الصوفى شـاعرا ومشـاهدا الا حقيقة واحدة ، هى الحق ، لتلاشيه فيه ، واستمع الى هده الحكاية من أبى عبد الله بن جابان ، يحكيها عن أبى بكر الشبلى ، فى هذا المعنى ، حيث يقول : « دخلت على الشبلى رحمه الله ، فى سنة القحط ، فسلمت عليه فلما قمت على أن أخرج من عنده، فكان يقول لى ولمن معى الى أن خرجنا من الدار : مروا ، أنا معكم حيث ماكنتم ، أنتم فى رعايتى وكلاءتى ، قلت : أراد بقوله ذلك : ان الله تعالى معكم حيث ماكنتم ، وهو يرعاكم ويكلؤكم ، وأنتم فى راعيته وكلاءته »(٨٧)

---

(٨٥) Stace (W.); Mysticism and Philosophy; London, 1961, p. 226.

(٨٦) راجع ، ايقاظ الهمم ، ص ٥١٤ ٠

(٨٧) اللمع فى التصوف ، ص ٤٧٨ ٠

وهذا الكلام من الشبلى ، شعور بالاتحاد بالحق ، والمعية هنا تشير الى الصحبة مع الله تعالى ٠

واذا كان الفناء قد أدى بالشبلى مثــلا الى القول بالاتحــاد شــعورا وشهودا ، فقد أدى بصوفى آخر هو الحسين بن منصور الحلاج (المقتول عام ٣٠١ هـ) الى القول بالحلول شعورا ، فهو يقول شعرا :

أنا من أهــوى ومن أهوى أنا
نحن روحـــان حللنـــا بـدنا
فــاذا أبصرتنى أبصـــــــرته
واذا أبصـــــرته أبصـــرتنا

وهو يقول كذلك :

أنت بين القلب والشــغاف تجــرى
مثل جرى الدموع من أجفانى(٨٨)
وتحل الضـــــمير جــوف فؤادى
كحـــلول الأرواح فى الأبـــــدان

ويقول أستاذنا الدكتور أبو الوفا التفتازانى عن الحلاج : أن الحــلاج يقــول بالثنــائية بين الطبيعة الالهيــة أو اللاهوت ، والطبيعة البشرية أو الناسوت(٨٩) ٠ كما يرى أيضا أن الحلاج كان حلوليا ، يطلب محو صفاته - التى يشعر بأنها عائق له دون الوصول الى الله ، وحلول الصفات الالهية محلها(٩٠) ٠

(جـ) الصحبة ووحدة الوجود :

يرى الصوفية المتفلسفون من أصحاب وحدة الوجود أن الوجود واحد، فى حقيقته وجوهره ، متعدد متكثر فى النظر والاعتبار عندما يقع عليه الحس

---

(٨٨) راجع ، مدخل الى التصوف الاسلامى ، ص ١٥٢ وما بعدها ٠
(٨٩) مدخل الى التصوف الاسلامى ، ص ١٥٧ ٠
(٩٠) راجع ، مدخل الى التصوف الاسلامى ، ص ١٥٧ ٠

الذى لا يدرك الا الجزئيات المتعينة المتشخصة ، أو يتناوله العقل الانسانى القاصر عن ادراك وحدته الشاملة(٩١) ٠

ولما كان الوجود واحد ، فى حقيقته وجوهره ، فان وجود ماسوى الله وهم ، فالصحبة اذن وهم من الأوهام بالاضافة الى الحق تعالى ، وعلى ذلك فان أصحاب وحدة الوجود ينكرون حقيقة الصحبة ؛ لأن الصحبة وهم من الأوهام عندهم ، وحول هذا المعنى يقول ابن عربى :

« الصاحب من يترك ارادته لارادة صاحبه ، وهذا فى جنــاب الحق محال ، فلا يصحب الرب الا ربوبيته » (٩٢) ٠

---

(٩١) أنظر ، التصوف الثورة الروحية فى الاسلام ، ص ٢٣٥ ٠

(٩٢) الفتوحات المكية ، حـ ٢ ، ص ١٧١ ٠

ثبت المراجـــع

١ ــ فى اللغة العربية ·

٢ ــ فى اللغات الأجنبية ·

أولا : المراجع فى اللغة العربية

١ - ابن سبعين (عبد الحق) ، الرسـائل ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، عام ١٩٦٥م

٢ - ابن عباد الرندى ، غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، عام ١٣١٠ هـ ٠

٣ - ابن عجيبة الحسنى ، ايقاظ الهمم فى شرح الحكم ، مكتبة ومطبعـة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة عام ١٩٨٣ م ٠

٤ - ابن عجيبة الحسنى ، الفتوحات الالهية فى شرح المباحث الأصلية ، مطبعة عالم الفكر ، القاهرة عام ١٩٨٣ م ٠

٥ - ابن عربى (محى الدين) ، اصطلاحات الصوفية ، الواردة فى آخـر التعريفات للجرجانى ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة عام ١٩٣٨ م ٠

٦ - ابن عربى (محيى الدين) ، الفتوحات المكية ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، بدون تاريخ ٠

٧ - ابن عربى (محى الدين) ، فصوص الحكم والتعليقات عليه للدكتور أبو العلا عفيفى ، القاهرة عام ١٣٨٦ هـ ٠

٨ - ابن عطاء الله السكندرى ، عنوان التوفيق فى آداب الطريق ، القاهرة عام ١٣٥٣ هـ ٠

٩ - ابن عطاء الله السكندرى ، لطائف المنن ، المكتبة السعيدية ، القاهرة عام ١٩٧٣ م ٠

١٠- ابن علان (أحمد ابراهيم) ، شرح حكم أبى مدين ، نسخة خطية بدار الكتب بالقاهرة ، رقم ١٤٠٥ تصوف طلعت ٠

١١- ابن قنفذ القسنطينى ، أنس الفقير ، نسخة خطية بدار الكتب بالقاهرة، رقم ٣٠٣ مجاميع ٠

١٢- ابن القيم ، طريق الهجـرتين وباب السـعادتين ، المطبعة السلفية ، القاهرة عام ١٤٠٠ هـ ٠

١٣- ابن القيم ، مدارج السالكين ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة عام ١٩٥٦ م ٠

١٤- أبو حامد الغزالى ، احيـاء علوم الدين ، مكتبة محمد على صبيح ، القاهرة ، عام ١٩٥٦ م ٠

١٥- أبو حامد الغزالى ، روضة الطالين ، مطبعة فرج الله ذكى الكردى ، القاهرة عام ١٣٤٤ هـ ٠

١٦- أبو حامد الغزالى ، منهاج العارفين ، مطبعة فرج الله ذكى الكردى ، القاهرة عام ١٣٤٤ هـ ٠

١٧- أبو حامد الغزالى ، معراج السالكين ، مطبعة فرج الله ذكى الكردى ، القاهرة عام ١٣٤٤ هـ ٠

١٨- أبو طالب المكى ، قوت القلوب ، مكتبة المتنبى ، القاهرة ، بدون تاريخ

١٩- أبو عبد الرحمن السلمى ، طبقات الصوفية ، مكتبة الخانجى ،القاهرة عام ١٩٨٦ م ٠

٢٠- أبو العلا عفيفى (الأستاذ الدكتور) ، التصوف الثورة الروحية فى الاسلام منشأة المعارف ، الاسكندرية ، عام ١٩٦٣ م ٠

٢١- أبو مدين المغربى ، أنس الوحيد ، نسخة خطية بمكتبة بلدية الاسكندرية رقم ١٦٦٧ تصوف ٠

٢٢- أبو مدين المغربى ، قصيدة مالذة العيش الا صحبة الفقرا ، نسـخة خطية رقم ٢٨٧ تيمور ، بدار الكتب بالقاهرة ٠

٢٣- أبو نعيم الأصفهانى ، حلية الأولياء ، دار الكتاب العربى ، القاهرة عام ١٩٨٧ م ٠

٢٤- أبو نصر السراج الطوسى ، اللمع فى التصوف ، مكتبة المثنى ، بغداد عام ١٣٨٠ هـ ٠

٢٥- أبو الهدى الصيادى ، قلادة الجواهر ، دار الكتب العلمية ، بيروت عام ١٩٨٠ م ٠

٢٦- أبو الهدى الصيادى ، الفجر المنير ، المطبعة الأميرية ، بولاق ، القاهرة عام ١٣٠٠ هـ ٠

٢٧- أبو الوفا التفتازانى (الأستاذ الدكتور) ، ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، عام ١٩٧٢ م ٠

٢٨- أبو الوفا التفتازانى (الأستاذ الدكتور) ، ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة عام ١٩٥٨ م ٠

٢٩- أبو الوفا التفتازانى (الأستاذ الدكتور) ، مدخل الى التصوف الاسلامى ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة عام ١٩٧٩ م ٠

٣٠- أبو الوفا التفتازانى (الأستاذ الدكتور) ، الطريقة الأكبرية ، بالكتاب التذكارى لمحيى الدين بن عربى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة عام ١٩٦٩ م ٠

٣١- أحمد الرفاعى ، الفجر المنير ، المطبعة الأميرية ، بولاق ، القاهرة ، عام ١٣٠٠ هـ ٠

٣٢- أحمد الرفاعى ، البرهان المؤيد ، مكتبة دار الشعب ، القاهرة ، عام ١٩٧١ م ٠

٣٣- أحمد الرفاعى ، الحكم ، مطبعة شرف موسى ، القاهرة ، عام١٣٠١هـ٠

٣٤- أحمد زروق الفاسى ، قرة العين ، المكتبة العصرية ، بيروت ، عام ١٩٧٣ م ٠

٣٥- أحمد زروق الفاسى ، قواعد التصوف ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة عام ١٩٦٨ م ٠

٣٦- أحمد ضياء الدين الكمشخانوى ، جامع الأصول ، القاهرة عام ١٣٢٨هـ

٣٧- آسين بلاسيوس ، ابن عربى ، حياته ومذهبه ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ، بيروت عام ١٩٧٩ م ٠

٣٨- التهانوى (محمد على الفاروقى) ، كشـاف اصـطلاحات الفنون ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة عام ١٩٧٢ م ٠

٣٩- الجرجانى ، التعريفات ، مكتبة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، عام ١٩٣٨ م ٠

٤٠- الحارث بن أسد المحاسبى ، القصد والرجوع الى الله ، لجنة التراث العربى ، القاهرة عام ١٤٠٠ هـ ٠

٤١- الحارث بن أسد المحاسبى ، الرعاية لحقوق الله ، مكتبة المثنى ، بغداد عام ١٩٦٠ م ٠

٤٢- زكريا ابراهيم - مشكلة الحب ، مكتبة مصر ، القاهرة ، عام ١٩٧٠م٠

٤٣- سعد جلال (الدكتور) ، المرجع فى علم النفس ، دار المعارف ، القاهرة عام ١٩٦٦ م ٠

٤٤- السهروردى البغدادى ، عوارف المعارف ، مكتبة محمد على صبيح ، القاهرة ، عام ١٩٥٦ م ٠

٤٥- الشعرانى (عبد الوهاب) ، الطبقـات الكبرى ، مكتبة محمـد على صبيح ، القاهرة ، عام ١٣٤٣ هـ ٠

٤٦- الشعرانى (عبد الوهاب) ، تنبيه المغترين ، مكتبة مصطفى البـابى الحلبى ، القاهرة ، عام ١٣٩٠ هـ ٠

٤٧- ضياء الدين السهروردى ، آداب المريدين ، دار الوطن العربى ،القاهرة بدون تاريخ ٠

٤٨- القشيرى (عبد الكريم بن هوازن) ٠ الرسـالة القشيرية ، مكتبة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة عام ١٩٥٩ م ٠

٤٩- القشيرى (عبد الكريم بن هوازن) ، لطائف الاشارات ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة عام ١٩٧٠ م ٠

٥٠- الكلاباذى ، التعرف لمذهب أهل التصوف ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة عام ١٩٦٩ م ٠

٥١ـ محمد اسماعيل ابراهيم ، قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية ، دار الفكر العربى ، القاهرة عام ١٩٦١ م ٠

٥٢ـ محيى الدين عبد الحميد طاهر (الدكتور) ، أبو مدين المغربى حياته وتصوفه ، رسالة دكتوراه من كلية الآداب جامعة القاهرة ٠

٥٣ـ نيكلسون ، فى التصوف الاسلامى وتاريخه ، ترجمة الدكتور أبوالعلا عفيفى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة عام ١٩٦٩ م ٠

٥٤ـ يوسف مراد ، مبادىء علم النفس العام دار المعارف ، القاهرة عام ١٩٦٢ م ٠

ثانيا : المراجع فى ولغة الانجليزية

1. Nicholson (R.) : The mystics of Islam; London; 1935.
2. Stace (W.) : Mysticism and Philosophy; London; 1961.
3. rUndehill (E.) : Mysticism; a study in the nature and deve-iopmentof man's spiritual consciousness; London; 1949.

ثالثا : المراجع فى اللغة الفرنسية

4. J.M. Guyau : (Esquisse d'une Morale sans Obligation ni sanction); Paris; Alcan.
5. Max Scheler : "Nature et formes de la Sympathie" Payot, 1950.
6. Schopenhaver : "Le fondement métaphysique de la Morale"; Tard. Franç.



فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	صفحة

رقم الايداع ٩٤٤٠ / ١٩٩٢
I.S.B.N. 977 - 05 - 1156 - 0